



BOBST LIBRARY



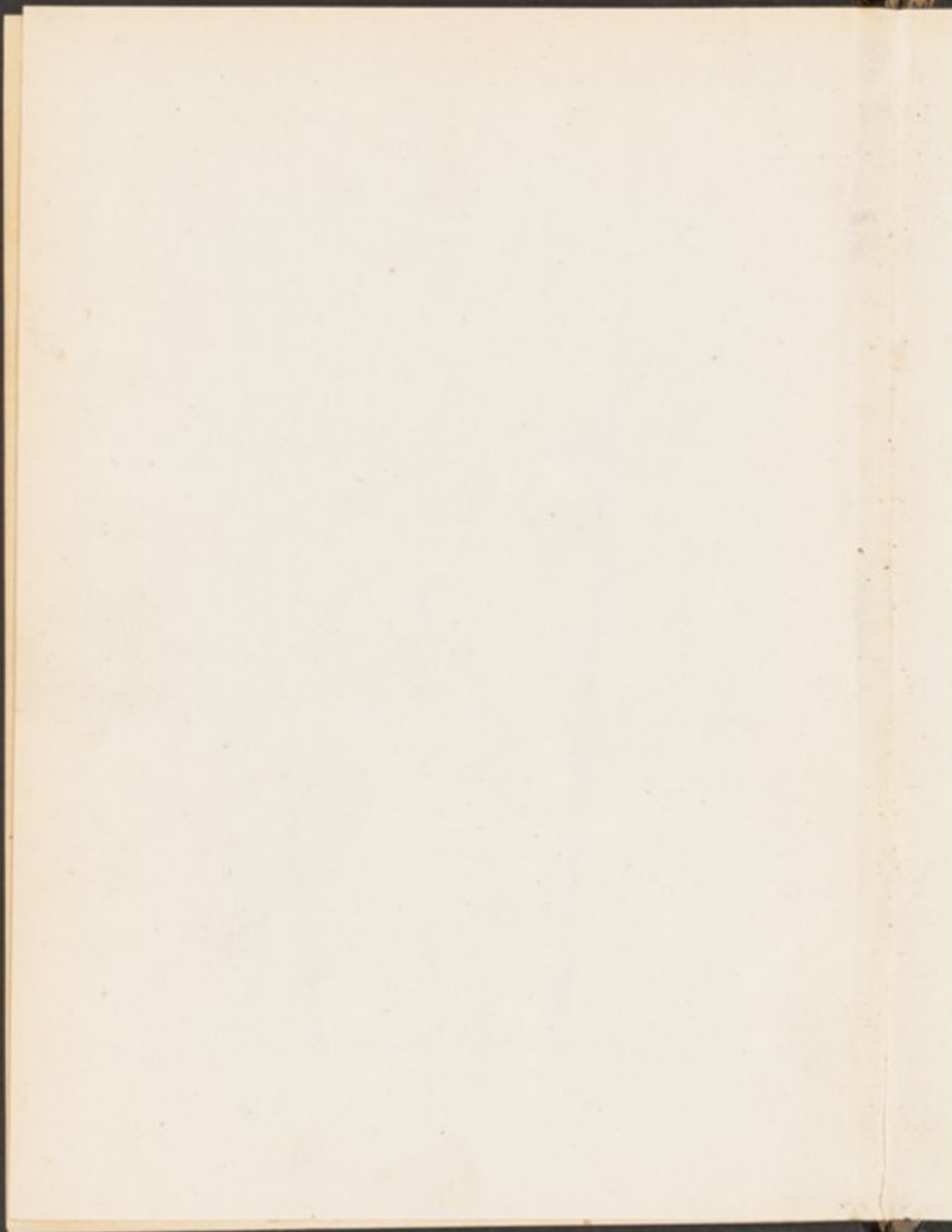
3 1142 02907 9897



GENERAL UNIVERSITY  
LIBRARY

---

---



VAR-8590.

(val: 3)

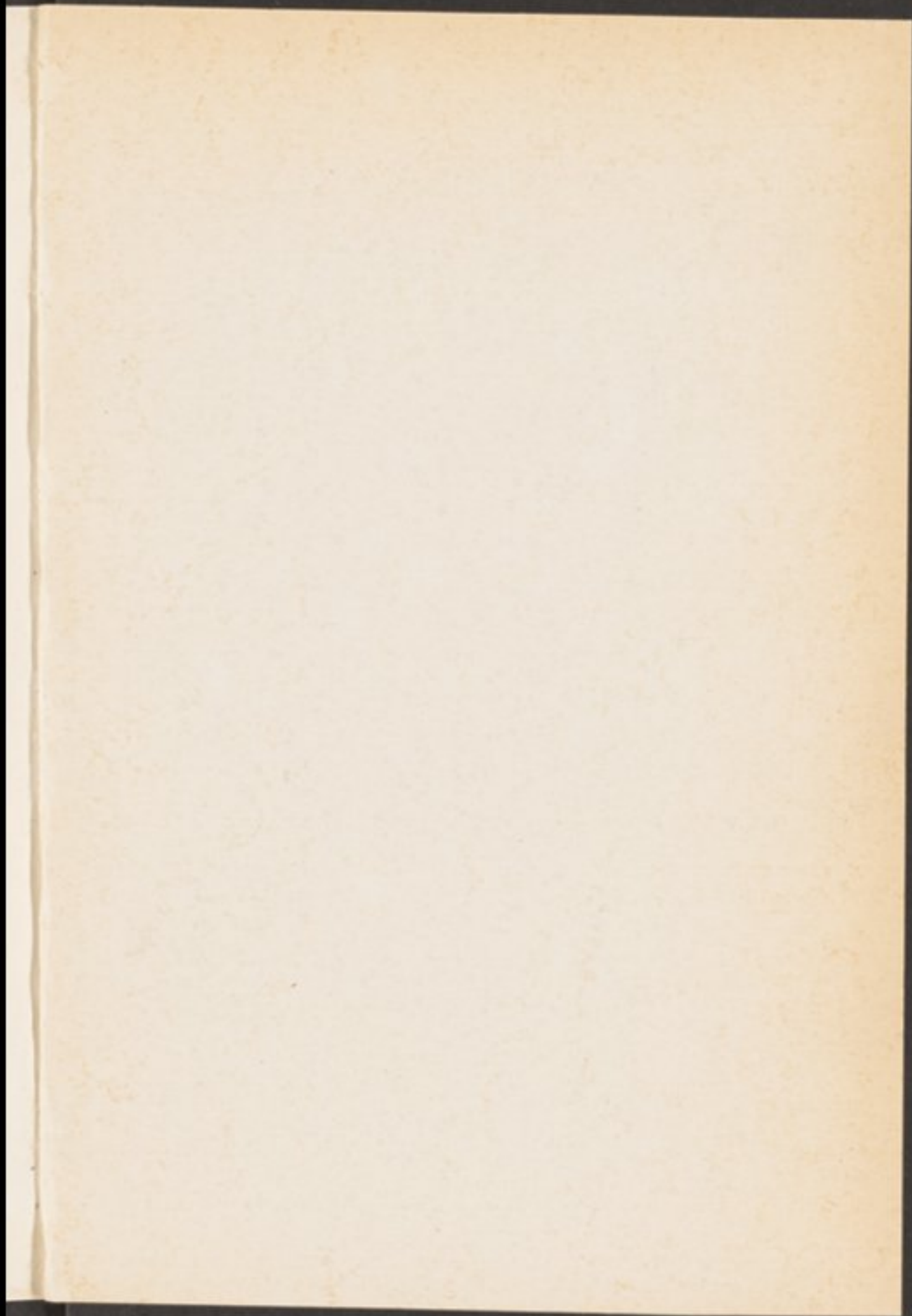
طه حسين

# على هامش السيرة

٢



دار المعارف بمصر



عَلَى هَامِشِ السَّيْرَةِ

مجلس العلماء



Tāhā Husayn

ظلّه حسين  
'Ala hāmish al-sīrah

---

# على هامش السيرة

val 3

٣

الطبعة الثانية



دار المعارف بمصر

Near East

PJ

7864

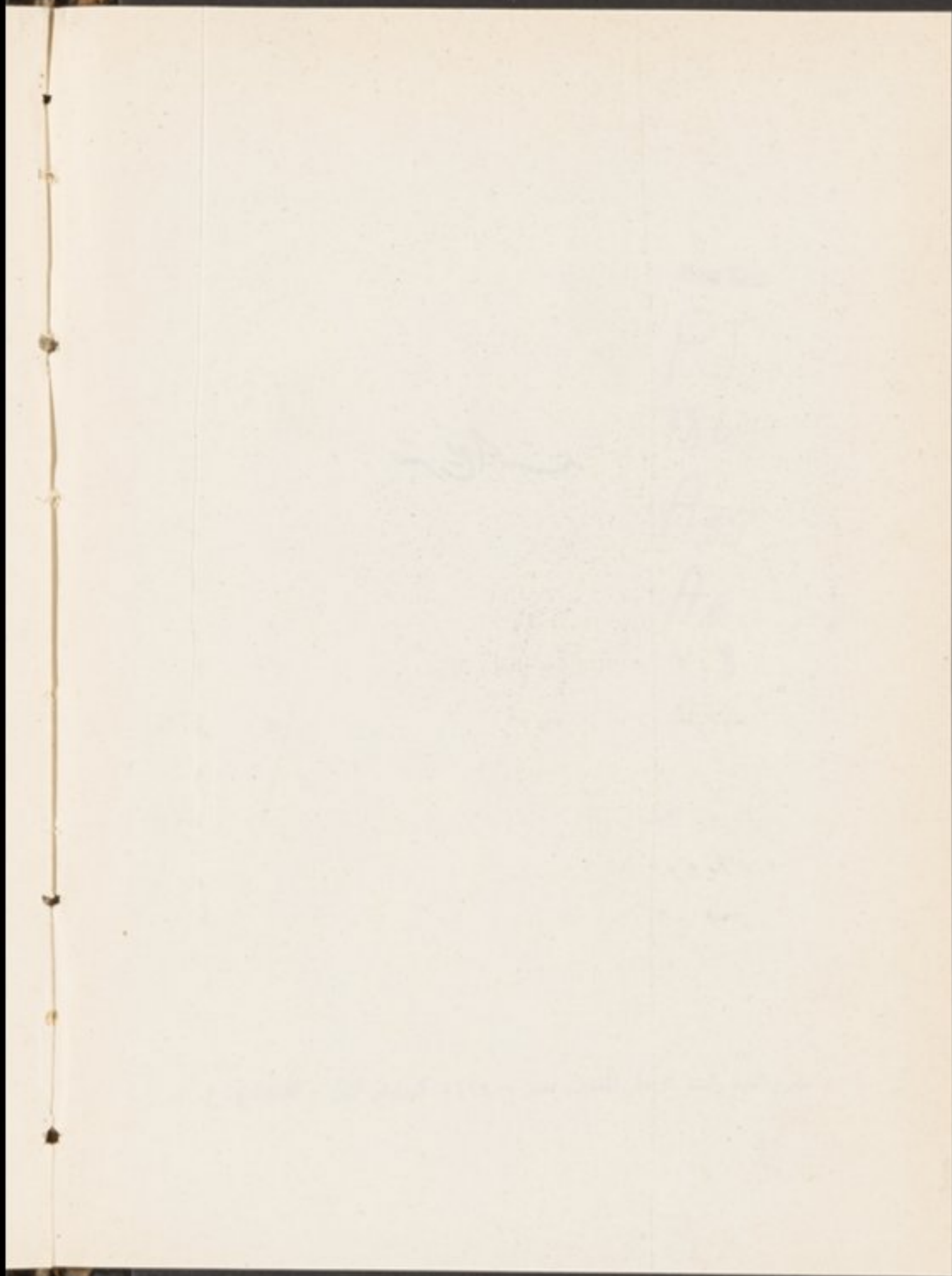
• A35

• A6

V.3

C-1

صريح أحمد



كان الشيخ مهيباً رهيباً ، وكان فخماً ضخماً ، قد ارتفعت قامته في السماء وامتد جسمه في الفضاء . وكان وجهه جهماً عريضاً ، تضطرب فيه عينان صغيرتان غائرتان بعض الشيء . ولكنهما على ذلك في حركة متصلة لا تكادان تستقران ، وهما مترقدتان دائماً ينبعث منهما شيء كأنه الضوء المشرق على هذا الوجه الجهم الغليظ ، فإذا لحظنا شيئاً أو أطالنا النظر إليه فكأنما تقذفانه بالشرر أو تسلطان عليه شواظاً دقيقاً قوياً من النار . وكان الشيخ فوق هذا كله ذكياً حاد الذكاء نافذ البصيرة ، يتعمق ما يعرض له من الأمر دون أن يحس الناس منه تعمقاً لشيء . يسأله الناس فيجيبهم لساعته جواب من فكر وقدر وأطال التفكير والتقدير ، فيعجبون منه ويعجبون به . وكان بعد هذا كله بطيء المشي ثقيل الحركة وقوراً في كل ما يصدر عنه ، وكان صوته يلاطم هذا كله من أمره ، فكان صوتاً ضخماً عميقاً ، يسمعه السامع فيخيل إليه أنه يخرج من غار بعيد القاع . وكان الناس يهابونه ويرهبونه كما كانوا يُجلّونه ويكبرونه . فإذا سألتهم عن مصدر ذلك لم يعرفوا كيف يجيبون ، إنما كان هذا الرجل يبههم ويسحرهم ويملاً نفوسهم إكباراً وإعظاماً ، فإذا

ذكر الوليد بن المغيرة فقد ذكر سيداً من أروع سادات قريش ، ورجل عظيم من رجالات البطحاء .

وكان ابن أخيه عمرو بن هشام في ذلك اليوم فتى قوياً نحيفاً شديد النشاط كثير الحركة لبقاً في كل ما يصدر عن جسمه ، رائعاً في كل ما يصدر عن عينيه القويتين البرأقتين . وكان على وجه الفتى دائماً ، وفي ذلك اليوم خاصة ، غشاء غريب فيه عبوس بصور الجلد المر ، وفيه ابتسام بصور الدعابة الحلوة . فكان الذين ينظرون إليه يطمعون فيه ويشفقون منه . وكان الذين يسمعون له يحارون فيما يسمعون أجنداً هو أم هزل . وقد أقبل في ذلك اليوم على عمه يمشى مشية فيها كثير من الخال والكبرياء وكثير من الاعتداد بالنفس والازدراء لغيره من الناس ، وفيها مع ذلك شيء من السخط والحزن .

كل شيء في هذا الفتى كان بصور رجلا شديد الطموح بعيد الأمل واسع الرجاء . ولكن الأسباب قد تقطعت به ، فهو غير راض عن نفسه ولا عمن حوله من الناس ولا عما حوله من الأشياء . يريد أن يدعن لظروف الحياة التي لا يستطيع لها تغييراً ولا تبديلاً ، ولكن نفسه لا تطيق الإذعان ولا تطمئن إليه ، فهي في جهاد متصل ، وصراع مستمر . وكان الذين ينظرون إليه في ذلك اليوم يتساءلون عن مصدر هذه الخيلاء التي كانوا يرونها في مشيته ، وفي تلك الابتسامة الخائرة على وجهه التي كانت تظهر لتستخفي ، وتستخفي لتظهر ، كأنها وميض البرق في الليلة المظلمة . وكان بعضهم يظن أن مصدر هذه الكبرياء هؤلاء الرقيق

الذين كانوا يسعون بين يديه يحملون أثقالا من الذهب والفضة لا تجتمع إلا لأصحاب الثراء الضخم من سادة قريش . وكان بعضهم يردّ هذه الكبرياء إلى أن عمرو بن هشام كان يسعى إلى عمه الوليد بن المغيرة ، فكان يستحضر في نفسه مجد مخزوم كلها تليده وطريفه ، وثروة مخزوم كلها ما استقر منها في مكة ، وما انتشر منها هنا وهناك في أطراف البلاد العربية ، وما تجاوز منها البلاد العربية إلى تلك البلاد البعيدة التي كانت تنتشر فيها تجارة قريش .

وكان الشباب من أترب عمرو بن هشام يرمقونه بأبصارهم ثم يردّونها عنه مسرعين ، منهم من يرضى عنه ، ومنهم من يسخط عليه ، وكلهم يبتسم له ابتسامة فيها كثير من الحسد وفيها شيء من الاستخفاف . فقد كان أترب عمرو بن هشام ينكرون غروره وافتتانه بنفسه ، ويبادونه بهذا الإنكار جادين حيناً وهازلين أحياناً . وكان منظره لا يخلو من روعة مضحكة ، مقام هذا الفتى الرشيق الأنيق الساخر العايب بين يدي عمه الوقور المهيب وقد وضع الغلمان أثقالهم ، وقال الفتى في صوت لا يخلو من فكاهة ولكنه لا يخلو من بعض الملاله والسأم أيضاً : « ماأنذا يا عم قد أقبلت أحمل إليك تحييتي وأحمل إليك مالي ؛ فقد يظهر أن من الحق على أن أساهم فيما سترحل به القافلة من قريش إلى الشام ، فهذه أسهمي من الذهب والورق أطرحها بين يديك ، وما أشك في أنك ستردها على أضعافاً مضاعفة » ثم تضاحك الفتى وهمّ أن ينصرف ولكن عمه أشار إليه أن أقم ، ثم قال له في هدوء وأناة : « ما أرى أنك أقبلت

لتحمل إلى هذا المال وتلقى إلى هذا السخف من القول؛ فقد كان هؤلاء  
الغلمان يستطيعون أن يحملوا إلى تحيتك ومالك، وما أظن إلا أنك  
أقبلت وأنت تريد أن تنفق معي شيئاً من وقتك وأن تفضي إلى بعض  
الحديث، ولكنك تأتي إلا أن تعبت دائماً. تُقبل وأنت تريد أن  
تُدبر، وتُدبر وأنت تريد أن تقبل، لا تفرق في عبثك بين من تلقى من  
الناس، سواء عندك لقاء الأتراب ولقاء الشيوخ الذين ينبغي أن تلقاهم  
بوجه غير هذا الوجه وحديث غير هذا الحديث.

قال الفتي في صوته الساخر الحزين: «ما تزال تنكر على شيئاً  
كلما لقيتني، وما أزال عاجزاً عن أن أبلغ رضاك. فإني لألثاك بهذه  
الدعابة في أندية قريش ومجالسها، وإنما ألكاك حراً في هذه الدار  
لا يظهر علينا فيها أحد من قريش. ولست أدري إلى أين تنهي بنا  
هذه الأوضاع التي تفرضها قريش على عقولنا وقلوبنا وأجسامنا! فنحن  
لا نستطيع أن نفكر ولا أن نشعر ولا أن نتحرك إلا على النحو الذي  
رسمته قريش للتفكير والشعور والحركة. ما أشد حاجتنا إلى شيء  
من السباحة ننعيم فيها بالحرية فيما نفكر وفيما نشعر وفيما نأتي وما ندع من  
الأمور».

قال الشيخ: «فأنت إذا ساخط دائماً، منكر للمألوف من عادات  
قومك وأوضاعهم دائماً. وقد كنت أنتظر مقدمك، ولو لم نُقبل الآن  
لبعثت في طلبك؛ فإن بيني وبينك حديثاً أرجو ألا يطول، وأرجو  
مع ذلك أن يبلغني منك ما أريد».



قال الفتي وهو يبتسم عن رضا صريح وفكاهة لا غموض فيها :  
 « وإذا فلا بدّ من أن أقيم ، فلا أقلّ من أن تأذن في أن أسقى ما يبيل  
 الظمأ وينقع الغلة ، فقد جف حلقى ويبس لساني » .

قال الشيخ : « وآية ذلك أني لا أجد إلى وقفك عن الكلام سبيلاً ،  
 اجلس حيث شئت ، يا غلام اسقه ما شاء من شراب » .

وأعرض الشيخ عن ابن أخيه ساعة شُغل فيها بكثير من شباب  
 قريش وشيوخهم ، وقد أقبلوا يحملون إليه الأموال التي يساهمون بها  
 فيما كانت قريش تُهيئ من تجارتها إلى الشام ، يحمل بعضهم إليه العين  
 من الذهب والفضة ، ويحمل إليه بعضهم العروض المختلفة ، وهو يسمع  
 لهم ويردّ عليهم ، وبين يديه كُتّاب يتلقون هذه الأموال ويسجلون  
 ما يتلقون منها . فلما انقضت على ذلك ساعة وقل المقبلون بأموالهم ،  
 أشار إلى كتابه وغلماانه أن انصرفوا لتستأنفوا أمركم من الغد .

وانتهز عمرو بن هشام اشتغال عمه بمن كان يُقبل عليه وينصرف عنه  
 فلها بمداعبة من كان يقوم على خدمته وخدمة غيره من غلمان الدار ،  
 يعبث بهذا ويمازح ذلك ، ويسأل هذا ويردّ على ذلك ، يقلدهم في  
 لهجاتهم الغربية المحطمة ، يتحدث إلى هذا بلهجة الحبشي المستعرب ،  
 وإلى ذلك بلهجة الرومي ، ويسأل هذا أو ذلك عن شؤونه الخاصة ، وربما  
 سأل هذا أو ذلك عن بعض شؤون عمه ، ولكنه كان يهمس بمثل هذا  
 السؤال وربما أوهأ به . وكان الغلمان يجيبونه كما كان يتحدث إليهم  
 مصرحين مرة ، وملمحين مرة ومشيرين بالطرف واليد مرة أخرى ، ومبتسمين

له دائماً . فقد كان عمرو بن هشام محبباً في دار عمه ، ومحبباً إلى غلمان هذه الدار خاصة . وربما آثره هؤلاء الغلمان على ابن سيدهم الشاب خالد بن الوليد . كانوا يرون من خالد أنفةً واستكباراً وازوراراً عنهم . وكانوا يرون من عمرو تلطفاً لهم وعناية بهم . وكان عمرو غريب الأطوار حقاً ، فقد كان شديد الكبرياء عظيم الخيلاء إذا لقي نظراءه من أبناء قريش ، فإذا لقي الغرباء من الرقيق والخلعاء تلتطف لهم ورفق بهم وخاض معهم في ألوان مختلفة من الحديث كأنه واحد منهم

على أنه حين أحس أن عمه قد فرغ من الداخلين والخارجين وكاد يخلص له تكلف الجحد وأشار إلى من كان حوله من الغلمان أن خذوا حذرکم فقد جاءت الساعة الرهيبة . ونظر إليه عمه فلم يستطع أن يرد ابتسامة أشرفت في وجهه حين رأى هذا الجحد المتكلف وهذا الإذعان لما ليس بدُّ من الإذعان له . ورأى الفتى ابتسامة عمه فأغرق في ضحك متصل ثم قال : « لبيك عمي فإني منصت لما تقول » .

قال الشيخ في هدوء : « قد بلغتني عنك أحاديث لا أحبها ولا أحب أن تتحدث بها قريش عن عمرو بن هشام بن المغيرة » .

قال الفتى وهو يتكلف الجحد : « وبلى من قريش وويل قريش مني ! بماذا أنبأتك ألسنتها المنطلقة التي لا تستقر؟ » . قال الشيخ : « أنبأتني بشيء عظيم كرهته ، وأرجو أن تكف عنه » . قال الفتى : « فتريد أن أعيد عليك ما أنبأتك به ألسنة قريش ؟ فإنها قد زعمت لك أني أختلف مع شباب قريش إلى بيت نسطاس فنشرب ونغيبث ونلهو ، حتى إذا

بلغنا حاجتنا من ذلك وهم أترابي أن ينصرفوا لم أخرج معهم وإنما تخلفت فأقمت عند نسطاس وأطلت عنده المقام ، أسمع منه ومن جواريه ، وأتحدث إليه وإلى جواريه . وقد أطيل المقام حتى يتقدم الليل ، فإذا هممت أن أنصرف أشفق على نسطاس من غائلة الطريق ، وأشفق على من كثرة ما شربت عنده من الخمر ، فدعاني إلى أن أنتظر الصبح عنده وما أكثر ما أستجيب لهذا الدعاء ؛ لأنني أحب بيت نسطاس وأنس إليه وإلى من حوله من الجوارى والغلمان . وقريش تنكر هذا وترتاب به ، وتكره لفتى شريف من فتيانها أن يبيت في غير مبيت وأن ينفق الليل بعيداً عن أهله . وقريش تبيح لفتيانها أن يلبسوا بدار نسطاس وأن يشربوا فيها الخمر ويعبثوا فيها ما طاب لهم العبث ولكن على أن يعودوا إلى أهلهم قبل أن يتقدم الليل . فلقريش وقارها ، وما ينبغي لفتيانها أن يغرقوا بالعكوف على اللذات ، أو يوصفوا بإدمان اللهو والإسراف فيه .

قال الشيخ : « وأنت تنكر من أمر قريش هذا كله ، وتأبى إلا أن تبادى قومك بما يكرهون ، فتخف حين يصطنعون الوقار ، وتصطنع الوقار حين يخفون ، وتحرص على أن تكون أحدىثة الناس إذا أصبحوا وأحدىثة الناس إذا أمسوا ، لا بما تقدم عليه من عظيم الأمر ولا بما تحاول من الشؤون الجسام ، ولكن بالدعابة إذا جدّ الناس ، وبالجد إذا لتهوا ، وبالاختلاف إلى حانة نسطاس إذا أقبل الليل مع أترابك ، والتخلف عنهم إذا انصرفوا ، كأن بينك وبين هذا الروم سرّاً ما ينبغي

أن يظهر عليه أحد إلا هؤلاء الروميات اللاتي يخلب بهن نسطاس عقول الفتیان .

قال الفتى : « أما أنى أنكر على قريش دخولها فيما لا يعينها من أمرى فهذا حق . وأما أنى أتخلف عن أترابى عند نسطاس إذا انصرفوا حين يتقدم الليل فهذا حق أيضاً . وأما أن بينى وبين نسطاس وجواربه سرّاً لا ينبغى أن يظهر عليه أحد فهذا هو التكلف كل التكلف . فخر نسطاس معتقة ، وجواربه حسان يفتنّ بما لهن من دلّ كما يفتنّ بغنائهن العذب . وحديث نسطاس حلو ممتع ، يرضى حاجتى إلى العلم ، وشوقى إلى المعرفة ، ورغبتى فى الجلد . فأنا أجد فى هذه الدار ما لا أجد فى أندية قريش . وأنا من أجل ذلك ملح فى زيارتها ، مطيل للإقامة فيها ، مفتون بما أجد عند أهلها من لذة الجسم والنفس جميعاً . وما أعرف أنى أعطيت قريشاً عهداً على نفسى أن أعيش كما تحب هى لا كما أحب أنا . وما أعرف أنى أتبع شيوخ قريش وفتيانها بمثل ما يتبعونى به ، فإن أمرهم لا يعينى ، فما بال أمرى يعينهم ، وما بالهم لا يدعونى وما أشاء كما أدعهم أنا وما يشاءون ؟ ! »

قال الشيخ : « إنك يا بن أخى لندربُ اللسان حديد القلب نافذ البصيرة ، وإنى لأحب منك هذا كله ، ولكنى . . . . »

قال الفتى : « ولكنك تريد أن أنفق هذا كله فيما ينبغى لفتى من فتیان قريش أن ينفق جهده فيه ، من الجلد فى التجارة حين يدعو الأمر إلى الجلد ، ومن العبث بهؤلاء البائسين من العرب حين يكون

موسم الحج نضلّهم ونغرّهم ونزعم لهم أننا سادة الناس وأن إلينا وحدنا أمور دينهم ، وأى دين ! ثم من الفراغ للأحاديث التي لا تفنى إذا ربحتنا من تجارتنا وأخذنا من موسم الحج ما نريد ، وصدر الناس عنا وقد أخذنا منهم أموالهم وعقولهم جميعاً ، هنالك نفرغ لأنديتنا فيتحدث بعضنا إلى بعض بأحاديث أقلها الحق وأكثرها الباطل ، ويبدى بعضنا لبعض أقل ما يمكن أن يبدي من نفسه ، ويستر بعضنا عن بعض أكثر ما يمكن أن يستر منها . نُكبر آلهتنا ونُعظم من أمرها وإنا لنزدريها في نفوسنا أشد الازدراء ، ونعمقها في قلوبنا أعظم المقت .

قال الشيخ وقد أسرع بيده إلى فمه والتفت يمناً ويسرة التفاتة لا تلاثم ما تعود من وقار : « صه ! صه ! يا بن أخي » . قال الفتى وقد أغرق في الضحك : « لا بأس عليك يا عم فقد انصرف كل إنسان وأغلقت من دوننا الأبواب ، وعلم غلمانك أننا نريد الحلوة » .

قال الشيخ وقد عاد إلى أناته ووقاره : « فإن من الحق عليك يا بن أخي أن ترعى ما يرعى قومك من سنة وألا تغرى السفهاء منهم بنفسك وبقومك . وقد حدثت أنك لا تكتفى بدار نسطاس ولكنك تألف داراً أخرى ما أحب لك أن تألفها ؛ لأن قريشاً لا تنظر إلى الآفها إلا شزراً . ومن كان مثلك ومثلى ومثل سادة قريش من أصحاب التجارة كان خليقاً أن يقدر رأى الناس فيه وأن يحسب الحساب كله لما يمكن أن يذاع عنه من الأحاديث . فأمر التجارة والمال يقوم على الثقة وحسن الأحدثوة أكثر مما يقوم على المهارة وسعة الخيلة ، وإنك لترى أمية وما يصنعون ! »

قال الفتي : « بل قل وما يتكلفون » . قال الشيخ : « هو ذاك » .  
 قال الفتي : « وهذه الدار الأخرى التي آلفها وأكثر من التردد عليها  
 هي دار ورقة بن نوفل ، أليس كذلك ؟ » . قال الشيخ : « بلى يا ابن  
 أخي ، هي دار ورقة بن نوفل الذي انحرف عن قومه وارتحل عنهم  
 مخالفاً لهم ، ثم عاد إليهم ملحقاً في الخلاف ، يدين بما تدين به الروم ،  
 ويؤمن بما يؤمن به النبط ، وينكر من أمر آلهتنا ما نعرف ، ويعرف  
 من أمر السماء ما ننكر . وقد علمت يا ابن أخي ما كان من ثورة قريش  
 به ريزيد بن عمرو وأمثالهما » .

قال الفتي : « فإن كنت أحب دار ورقة كما أحب دار نسطاس ،  
 وإن كنت أجد عند ورقة من متاع الروح مثل ما أجد عند نسطاس  
 من متاع النفس والجسم ! » . قال الشيخ : « فإن قريشاً لا تحب  
 منك ذلك ، وإني أنا لا أحب أن تنكر قريش من أمرك شيئاً ، وما  
 أحب أن يتحدث الناس في البطحاء والظواهر بأن قد عرض لفتي  
 من فتيان مخزوم مثل ما عرض منذ حين لفتي من فتيان عدى من  
 الانحراف عن الجادة والتمرد عن المؤلف من عادات قومه » .

قال الفتي : « فإن مخزوماً قد أصهرت إلى عدى<sup>(١)</sup> وما ينبغي  
 لكم أن تصهروا إلى قوم وترسلوا إليهم كرائمكم ثم ترتفعوا عن مشاركتهم  
 فيما يصيبهم من الأمر » . قال الشيخ : « لقد علمت ما أحببت هذا  
 الصهر ولا رضيت عنه ولا أشرت به ولا انتظرت منه لقريش خيراً ؛

(١) كانت حنثة أخت عمرو بن هشام زوجاً للخطاب وهي أم عمر رضي الله عنه .

فالألفة بين عدى ومخزوم شيء لا يرجى ، والخير أن يظل هذان الحيان من قريش على خلافهما القديم لا ليشقى به النساء حين يعيا بالطب له الرجال . ولئن أخطأ أبوك بقبول هذا الصهر فما ينبغي أن تمضى على أثره أو تضيف إلى خطئه خطأ جديداً . وإنك لتعلم أن قريشاً لا تكره من أحد شيئاً كما تكره الانحراف عما ألفت من عادة ودين ، ولا تخصم أحداً في شيء كما تخصمه في مالها ودينها . ودين قريش جزء من مالها لأنه ، كما علمت ، وسيلتها إلى السيادة والسلطان .

قال الفتى : « فإني لا أكره من قريش شيئاً كما أكره منها هذا الرياء : تكبر الآلهة وتعظم أمرها إذا شهد العامة أو حضر أهل الموسم ، فإذا خلا الملأ من قريش إلى أنفسهم فأى استخفاف بالآلهة وأى ازدراء لمن يدينون لها بالإكبار والإجلال ! إنكم لتطلبون إلينا شيئاً عظيماً حين تريدوننا على أن نمهر كما تمهرون ونمكر كما تمكرون ، ونعلن غير ما نسير ونسر غير ما نعلن ، لا لشيء إلا ليشترى ونسود . وإنا لنجد في رضا أنفسنا وراحتها واطمئنان ضمائرنا إلى ما نعلن وما نسر نعمة هي آثر عندنا من السيادة والثراء . فامضوا فيما تريدون لأنفسكم ، وخلوا بيننا وبين ما نريد لأنفسنا . »

قال الشيخ : « ما أرى إلا أن دار نسطاس قد فتنتك ، وأن دار ورقة قد أفسدت عليك أمرك كله يابن أخي ، فإنك تتحدث حديثاً لا يتحدثه أحد من شيوخ قومك وشبابهم . وإني لأرى لداتك من الفتيان وأسمع منهم وأتحدث إليهم فلا أجد عند أحد منهم مثل ما أجد

عندك ، وما أعرف أن الناس ينكرون على أحد من أترابك مثل ما ينكرون عليك .

قال الفتي : « وما تريد أن أصنع ؟ هم مفتونون بك وبنظرائك من الملأ ، وأنا مفتون بورقة ونسطاس ونظرائهما من الغرباء والمستضعفين » .  
قال الشيخ : « أمسك عليك نفسك يا بن أخي ولا تُظهر قومك من أمرك على مثل ما تُظهرني عليه ، فإن شر هذا الخلاف لا يصيبك وحدك وإنما يصيب مخزوماً كلها ، وما أظنك قد بلغت من حب نفسك أن تعرض قومك لما لا قبيل لهم به » .

قال الفتي : « فإني لا أحب أن أعرض قومي لشيء ولا أن يعرضني قومي لشيء ، وإنما أريد أن أترك الناس وما يحبون . ولست أكره إن شق عليكم أمرى أن تخلعونى ، فما أكثر الخلاء الذين يعيشون في مكة من قبائل العرب ! وما أكثر ما أغبطهم على ما ينعمون به من حرية القلب واليد واللسان ! » .

قال الشيخ وهو يبتسم ابتسامة غامضة فيها الإعجاب بشجاعة ابن أخيه والإشفاق من جرائره : « دون هذا وتستقيم الأمور يا بن أخي . ولكن ما الذى يعجبك من نسطاس ومن ورقة وقد رأيتهما وتحدثت إليهما فلم أرعهما خيراً ولا شراً ؟ » .

قال الفتي : « فإني أجد عندهما الراحة من اللذة والألم جميعاً » .

قال الشيخ : « إني لا أفهم عنك ما تقول منذ اليوم . الراحة من اللذة ! ما هي ؟ وكيف تكون ؟ » .



قال الفتي : « رُحْ معي إلى نسطاس أو اغدُ معي إلى ورقة ، ثم أطل  
عندهما المقام كما أظيله ، وتصرف معهما في فنون القول كما أتصرف ،  
فستجد عندهما مثل ما أجد ، وسترضى من أمرهما عن مثل ما أرضى  
عنه ، وستغدو على أحدهما وتروح على الآخر ، وستؤثر داريهما على  
أندية قريش . »

قال الشيخ وقد تضاحك : « وكذلك أريد أن أنهاك عما يكره  
قومك فإذا أنت تغريبي به وتحثني عليه ” لقد شبَّ عمرو على الطوق “ ،  
انصرف راشداً يابن أخى وأحسن سياسة قومك ، وكف عن نفسك  
وعنا غائلهم . »

قال الفتي وقد نهض : « فإني منصرف الآن راشداً كما تقول إلى  
نسطاس فشاربٌ عنده ومستمتع بحديثه وغناء جواريه ، ثم إني غاد  
إذا كان الضحى على ورقة بن نوفل فستمع له ومتحدث إليه ، ثم ملم  
بعد ذلك بأندية قريش فتحدث بما كان من أمرى ، فأبهم عرض لي بما  
لا أحب فلن يرى مني إلا ما يكره . »

قال الشيخ : « إني لأعرف فيك أنفة مخزوم وكبرياءها ، ولو عرفت  
أنك تسمع لي . . . . »

قال الفتي مقاطعاً في رفق : « لنصحت لي بأن أرحل مع القافلة بعد  
أيام فابيع وأشتري وأربح كثيراً من المال ، وأرى كثيراً من البلاد وألواناً  
مختلفة من أجيال الناس ، وأصبح فتى شريفاً من فتيان قريش أصنع  
ما يصنعون وأضطرب فيما يضطربون فيه ، وأنافس صخر بن حرب

فما يكسب لنفسه من السؤدد والثراء . قال الشيخ : « هو ذاك » .  
 قال الفتي : « فإني لا أحب من هذا كله شيئاً ، وإنما أوتر أن  
 أنفق هذا المال الكثير الذي لا أحصيه ناعم النفس قرير العين رضى  
 البال متردداً بين نسطاس وورقة ، وأن أستأجر صخر بن حرب وأمثاله  
 ليعملوا لى فى مالى وليعينونى على ما أنا فيه من نعيم » . ثم استرد الفتي  
 كبرياءه وخيلاءه وانصرف عن عمه كما أقبل عليه راضياً عن نفسه  
 وساخطاً عليها ، مدلاً بمكانته ومزدرياً لها .

وأقبل من الغد على ورقة بن نوفل ، فلم يلقه الشيخ ههشاً بهشاً كما  
تعود أن يلقاه ، وإنما ابتسم له ابتسامة فيها شيء من كآبة . على أن  
الشيخ لم يكن فارغ البال ولا مطمئن النفس ، وإنما كان معنياً بأمر  
عظيم يُضمّره ولا يظهره .

فلما رأى الفتي منه هذا الفتور أقبل عليه مداعباً كأنما يستخفه إلى  
شيء من النشاط ، فجعل يتحدث إليه عن ليلته التي أنفقها لاهياً بخمر  
نسطاس وغناء جواريه .

ولكن الشيخ لم يخفّ ولم ينشط ، وإنما جعل يسمع من الفتي  
أحاديثه الطويلة التي لا تنقضي ، ويحجبه بين حين وحين برأسه يهزه  
أو طرفه يوميء به أو لسانه يديره في فمه بالكلمات القصار . فلما رأى الفتي  
منه ذلك سئى به وضاق به ذرعاً وقال في شيء من الحدة : « ويحك  
أيها الشيخ ! إنك لشديد الكآبة منذ اليوم ، وما سعيت إليك أبتغي  
كآبة أو حزناً ، وما أقبلت عليك لتُنغِصَ إلى رأسك أو توميء إلى  
بطرفك أو تلوى لي لسانك بهذه الألفاظ التي لا تُغني ، وإنما جئت  
أتمس عندك شيئاً غير هذا » .

قال الشيخ وقد أخذ ابتسامه يتسع قليلا : « تلتمس عندي ماذا يابن أخي ؟ » . قال الفتى : « ألتمس عندك هذه القوة التي أستقبل بها سخف قريش وجهه النهار وآخره ، كما ألتمس عند نسطاس هذه اللذة التي أغسل بها هذا السخف عن نفسي حين يُقبل الليل » .

قال الشيخ متصاحكاً في فتور : « فقد غسلت نفسك من سخف قريش ولكنك دنستها برجس نسطاس ، ثم أقبلت الآن تريد أن تغسلها من هذا الرجس وتمحو منها آثار اللذة الآثمة ، آثار الخمر وما يتبعها مما لا يجمل بالرجل الكريم ! فما أعرف أن عند نسطاس لمثلك خيراً ، وإنما هي الفتنة التي تفضل الحدة وتفسد الطبع وتذهب المروءة وترد فتیان قريش إلى مثل ما عليه فتیان الروم من الضعف والوهن والفتور . لقد رأيتهم يابن أخي فما وجدت عندهم خيراً ، وإنما هو الفساد قد أخذهم من كل وجه وانسل إلى نفوسهم من كل سبيل ، فأصبحوا لا يقدرّون على شيء وإن خيلت إليهم كبرياؤهم أنهم يستطيعون أن يبلغوا كل شيء » .  
ثم سكت قليلا وأطرق ملياً ، ثم رفع رأسه وقال في صوت هادئ متزن :  
« ما أبغض ياعمرو شيئاً كما أبغض الحانات التي يقيمها الروم في أعطاف مكة والتي يُغترى فتیان قريش بما فيها من هذه اللذات الآثمة التي تقتل الرجولة » .

وكان عمرو بن هشام يسمع لحديث الشيخ وعلى ثغره ابتسامه ضئيلة غامضة ، وفي وجهه شيء من السخرية لا يكاد يبين ، وربما حرك رأسه إلى يمين أو إلى شمال ليخفي على الشيخ صحابة من عبوس كانت تغشى

جبهته بين حين وحين . فلما فرغ الشيخ من حديثه وعاد إلى إطراره فأمعن فيه وجعل ينكت الأرض بعصاه ، قام الفتي متثاقلا يريد أن ينصرف . فنظر الشيخ إليه نظرة قصيرة كأنما كان يريد أن يمسكه ، ولكنه لم ينشط حتى لذلك فغض بصره وعاد إلى إطراره . واستدار الفتي نحو الباب ، ولكنه عاد فجأة فاستقبل الشيخ وقال في شيء من العنف : « لن أنصرف ، فلست أحب أن تصحبنى منك هذه الصورة التي أنكرها . لقد كنت في نفسي شيئا غير هذا ، ولقد كنت أنتظر منك أن تباديني بكل شيء إلا ما باديتني به منذ اليوم » .

قال الشيخ : « فكنت تنتظر مني أن أغريك ببيت نسطاس وما فيه من لذة وإثم ، وكنت تقول لنفسك إنما ورقة بن نوفل رجل نصراني قد أتى بلاد الروم وطوّف في مدنها وقراها وعاد منها وقد أخذ كل ما وجد من الدين والدنيا ، فهو نصراني كنسطاس ، يجب كل ما يجب النصراني ويألف كل ما يألفون ، والسن وحدها هي التي تقعده عن بيت نسطاس ، ولو قد كان له فضل من قوة أو بقية من شباب لشاركني فيما أستمتع به عند نسطاس ، فخمرة معتقة وجواريه حسان وغلماناه صباح الوجوه ، وعنده غناء يفتن القلوب ويسحر الألباب . كلا يا بن أخي ! لقد أتيت بلاد الروم ، وطوّفت في مدنها وقراها ، وألمت ببيعهم وحنانهم ، ورأيت ما عندهم من دنيا ودين ، ثم عدت وإني لأكثر أمرهم لكاره أشد الكره ، وإني من حياتهم لنافر أشد النفور . ولو قد أعجبتني حياة الروم كما تُعجبك لما عدتُ إلى واد غير ذي زرع

كهذا الوادى الذى نعيش فيه .

قال الفقى : « الآن ينطلق لسانك وقد كان معقوداً ، ولكنى لم آت لأسمع منك هذا الحديث ولا لأتمس عندك هذه الموعظة ؛ فقد أسدى إلى منها عمى الوليد بن المغيرة أمس ما أستطيع أن أعيش عليه أياماً وشهوراً . »  
 قال الشيخ : « فإذا جئت تلتمس عندى إذا ؟ » . قال الفقى :  
 « جئت أتعلم منك ، وأرى أنك ستتعلم منى » . قال الشيخ وقد عاد إلى نشاطه وخفته واستأنف ما ألف عنده عمرو بن هشام من هذا الطبع السمح والمزاح الحلو والمرح الذى كان يحببه إلى النفوس — قال الشيخ :  
 « فعلمى يا عمرو فان الإنسان لا يكبر عن العلم مهما تبلغ به السن ، وإن العصا قرعت لذى الحلم » . قال عمرو بن هشام : « لا تهزأ فىنى سأعلمك عجباً من العجب ! إنك لتجهل من أمر نسطاس كل شىء ولا تعلم منه إلا ما يعرفه المفتونون من شباب قريش ، أولئك الذين يصطبحون عنده أو يغبقون لا يعرفون إلا أن عنده خمرأ معتقة وجوارى حساناً وغلماًناً صباحاً وغناء عذباً » . قال ورقة : « فما استكشفت عنده غير ذلك ؟ » .  
 قال : « استكشفت ما كنت أظن أنك لا تجهله . إن هؤلاء الروم الذين يقيمون حاناتهم فى أعطاف مكة كما تقول فتنة لشباب قريش وشيوخها لا يهبطون هذا الوادى المجذب رغبة فى المال وحده أو حرصاً على أن يمتعوا قريشاً بهذه اللذات التى يحملونها إلينا ، وإنما هم يبتغون أشياء لا تخطر لنا ببال . ولو قد فطن لها الوليد بن المغيرة الذى كان يسدى إلى النصح والموعظة أمس ، ولو قد فطن لها عتبة وشيبة ابنا ربيعة وصخر بن

حرب وأمّية بن تخلف لاستقبلوا من أمرهم غير ما يستقبلون ، ولنفوا كل رومي عن هذه الأرض ، ولاشتطوا على هؤلاء الغرباء من الروم والنبط والفرس أكثر مما يشتطون على العرب .

قال ورقة بن نوفل وقد ظهر على وجهه شيء من الجلد : « أفصح يا بن أخي فإني لا أفهم عنك » .

قال الفتي : « ستنهم عني ، فإن هؤلاء الروم لم يهبطوا هذه الأرض للتجارة وحدها ، إنما اتخذوا التجارة وسيلة إلى أشياء أخرى يبتغونها ونُخذع نحن عنها بهذه اللذات اليسيرة الفاتنة التي يحملونها إلينا ويغروننا بها » .

قال ورقة : « وما عسى أن تكون هذه الأشياء ؟ » . قال الفتي : « إنما هم عيون قيصر في هذه الأرض ورسله إلى هذا الوجه ، يمدّون له فيه الأسباب ويمهدون له فيه السبل . وما أرى أن واحداً منهم قد أقبل إلى بلادنا إلا وهو مجمع أن يجب إلينا أمراً من أمور الروم ويستخفّ قلوبنا لحب هذه الحياة الرومية التي يحملون إلينا أسرها وأهونها ، ثم يقول قائلهم لنا حين يرى منا الابتهاج والرضا ! فكيف لو ذهبتم إلى هذه المدينة أو تلك من مدن الروم ! وكيف لو رأيتم هذه اللذات في أصولها التي تخرج منها وبيئاتها التي تنمو فيها ! وكيف لو اتصلت أسبابكم بأسبابنا واختلطت أموركم بأمورنا ! »

قال ورقة : « وقد أحسست من نسطاس بعض هذا فجئت تتحدث إلىّ به وتؤامرنى فيه ؟ وما تراني أصنع لك في هؤلاء وقد اعتزلت قريشاً

واعترلتني قريش ، وأصبحت أموركم لا تعينني كما أن أمرى لا يعينكم ؟  
 هلاً تحدثت بذلك إلى عمك الوليد أو إلى الملاء من قريش !! »  
 قال الفتى : « إني لأغبطك على أن قريشاً قد اعترلتك وعلى أنك  
 قد اعترلت قريشاً . وإني لأتمنى أن يتاح لي من ذلك ما أتيح لك .  
 وإن لم أجد عليك لأتحدث إليك في شأن هؤلاء الروم أو أوامرك فيه ،  
 فإني أعرف أي الناس أستطيع أن ألقى إليه بهذا الحديث . إنما جئت  
 لأحدثك بالعجب من أمر نسطاس هذا الذي تلومني فيه كما لا مني فيه  
 عمى الوليد . »

قال ورقة : « وعند نسطاس أعجب مما ذكرت ؟ » . قال الفتى :  
 « نعم » .

قال الشيخ : « وما ذاك ؟ » . قال الفتى : « تعلم أيها الشيخ أني  
 لا أتمس الخمر واللذة والغناء عند نسطاس فحسب ، وإنما أتمس عنده  
 العلم أيضاً . وقد تعلمت منه كثيراً أكثر مما تعلمت منك ؛ فقد  
 عرفت منه شؤون الروم مفصلة وأخبارهم مطولة ، وأنت لا تحدثنا  
 من ذلك إلا بالترسير لأن ذلك لا يعينك ، فأما هو فيكفي أن  
 يتقدم الليل وأن ينصرف شباب قريش إلى بيوتهم وأن يخلو إلى  
 وإلى ثلاثة أو أربعة من غلمانهم وجواريه وقد صرف سائرهم ، فإذا خلا  
 بعضنا إلى بعض أديرت علينا خمر لا تدار على غيرنا ، وسمعنا غناء  
 لا يسمعه غيرنا ، حتى إذا تقدم الليل خطوات أخرى وأغرق كل شيء  
 في الصمت والسكون ونجبل إلينا أننا قد اقتطعنا من الحياة والأحياء



اقتطاعاً وأنا نعيش في جزيرة من النور والحركة يحيط بها بحر من الظلمة والسكون ، قال نسطاس بلسانه الملتوى وصوته الأجلش : " الآن طاب الحديث " . ثم نأخذ في حديث الروم فأسمع منه العجب العجاب . وقد أتصل الود بيني وبين نسطاس منذ أعوام ، وجعل أترابي من قريش يلمون معي بدار نسطاس ثم ينتقلون منها إلى غيرها من دور الروم والنبط يتبعون في ذلك أهواء نفوسهم ويفرون بذلك من الحياة المطردة المتشابهة . وما أكثر ما أحوأ على في أن أذهب مذاهبهم وأسلك مسالكهم وأتنقل معهم في الغي كما ينتقلون ، ولكني لم أنحرف قط عن دار نسطاس ولم أمل قط إلى اللهو في غير دار نسطاس ؛ لأن عند نسطاس ما ألزمني داره وشغلني بمودته ، حتى لا أمني فيه اللائمون ، وحتى ظنت قريش بي الظنون ، وحتى شكوا من ذلك أهلي وأترابي ، وعاتبني فيه عمي الوليد . قال الشيخ : « وماذا علمت يا بن أخي من أم نسطاس ؟ فقد

أثرت في نفسي شغفاً بالعلم لا عهد لي به منذ ودعت الشباب » .

قال الفتي وقد دنا من ورقة كأنما يريد أن يهمس إليه بما لا يجب أن يسمعه غيره : « علمت أن وراء نسطاس التاجر الحمار الذي يفتن شباب قريش بالخمير والنساء والغناء فيلسوفاً يلتمس الحق ، وديبانا يلتمس الدين الصحيح » . قال الشيخ دهشاً : « إنه لكذلك يا بن أخي ؟ » . قال الفتي : « نعم ! وقد كنت أعرف أنك وأمثالك تخرجون من بلادنا هذه لتضربوا في الأرض ولتلتمسوا الحق والعلم والدين ، عند هؤلاء الأعاجم من الفرس والروم ومن اليهود . وما كنت أنكر من

ذلك شيئاً ، فهم قد سبقونا إلى الحضارة ، وهم قد سبقونا إلى الكتاب .  
فأما أن يخرج الروم من بلادهم إلى هذه البلاد المجذبة القاحلة الغليظة  
الجافية التي لا حظ لأهلها من حضارة أو علم أو كتاب ، ليلتمسوا عندنا  
الحق والعلم والدين ، فهذا هو الذي لا أفهمه ، ولم تطمئن إليه نفسي  
حتى حدثني نسطاس بما حدثني به أمس .

قال الشيخ وقد أهمه الأمر إلى أبعد مدى ، واسترد نشاطاً غريباً  
وقوة كانت تخیل إلى من يراه أنه قد عاد إلى شبابه ، أو أن شبابه قد  
عاد إليه : « وبماذا حدثك ؟ » .

قال الفتى : « حدثني بأنه فرد من جماعة تلتمس الحق وتبحث  
عن الهدى ، وبأن هذه الجماعة منتشرة في بلاد الروم ، يتعارف  
أفرادها فيما بينهم بعلامات لهم ، لا يعرفها أحد غيرهم . فإذا تحدث  
بعضهم إلى بعض من قريب أو بعيد تحدثوا بالرموز والإشارات ،  
فلم يظهر أحد من أمرهم على شيء . وحدثني بأن هذه الجماعة قديمة  
العهد طويلة العمر ، قد مضت عليها القرون ، يوصى كل جيل منها  
إلى الجيل الذي يليه بالمضى في التماس الحق والبحث عن الهدى ،  
يجدون في ذلك ما أتاحت لهم قوتهم وحيلتهم أن يجدوا ، يتفرقون  
في الأرض في ملك قيصر ، وفي ملك كسرى ، وفي أقطار لم يبلغها  
ملك قيصر ولا ملك كسرى ، لا يبالون ما يلقون في ذلك من جهد  
ولا ما يحتملون فيه من عناء ، حتى إذا ظفر أحدهم بشيء من العلم  
أو بما يراه الحق أو قريباً من الحق ، احتال حتى يبلغه أصحابه ، وهم على

ذلك يتواصلون ويتعاونون ويستكشفون من العلم ما يستطيعون . ولكنهم علموا فيما علموا منذ الزمان الأول ، أن لهذه الديانات التي يدين الناس بها في أقطار الأرض غاية تنهى إليها ، وأمدأ تبلغه فلا تعدوه ، وأن ديناً يهبط على الناس من السماء في آخر الزمان ، فيتم من أمر السماء ما بدأ ، ويحمل الناس على الجادة ، ويهديهم إلى الحق الذي لا شك فيه .

قال الشيخ وقد أخذ حتى اضطرّ الفتي إلى أن يهدئ من روعه :  
« قل قل يا بن أخي ! وبماذا حدثك ؟ » .

قال الفتي : « وحدثني بأن الجماعة عرفت أن أمر هذا الدين قد قرب ، وأن زمانه قد أظلم ، وأنه لن يهبط من سماء الشام حيث هبط دين اليهود والنصارى ، ولا من سماء الفرس حيث ظهر دين زرادشت ، ولا من سماء اليونان حيث ظهرت ديانات اليونان ، ولكنه سيتنزل من سماء واد غير ذى زرع ، فيه قوم غلاظ قساة لاحظاً لهم من علم ولا من كتاب ، يطمئن أكثرهم إلى الجهل ويضيق به أقلهم ، ولكنهم على ذلك يكتُمون ما يجدون من هذا الضيق ، ويشاركون العامة فيما هم فيه من الجهل . يُقدم بعضهم على ذلك نفاقاً ورياءً والتماساً للمنفعة والثروة والسيادة ، ويُقدم بعضهم على ذلك عجزاً وكسلًا وإخلاداً إلى الراحة والدعة . وقد فرقت الجماعة سفراءها في أقطار الأرض المجذبة غير ذات الزرع والضرع ، فهم يلتمسون فيها هذه العلامات ، ويسجلون ما يجدونه منها ويُؤذن به بعضهم بعضاً ، وينتظرون فيها هذا الدين الجديده . ونسطاس أحد هؤلاء قد وقعت له أرضنا حظاً ، فأقبل إليها يلهينا بالخمير والغناء

والنساء ، وينتظر أمر السماء .»

ولم يبلغ الفتى هذا الموضع من كلامه ، حتى وثب الشيخ وثبة لم يشك الفتى حين رآها أنه قد فقد رشده ومسه طائف من جنون . ولكن الشيخ عاد إلى أمنه وهدوئه ، وظل قائماً مكانه وقد رفع يديه إلى السماء وهو يقول : مُقْدُوسٌ مُقْدُوسٌ ! أشهد ما أنبأتني خديجة إلا بالحق ! .»

ولم يظفر عمرو بن هشام من الشيخ بعد هذا الكلام الغامض بشيء  
يوضحه أو يجلوه ، وإنما ظل الشيخ قائماً مكانه باسطاً يديه أمامه رافعاً  
رأسه إلى السماء كأنما ينتظر منها شيئاً ، ثم انحنى رأسه واسترخت يداه  
إلى جنبيه ، وعاد إلى الشيخ ضعفه وهرمه ، فجثا على ركبتيه وأطرق  
إلى الأرض وجعل يصلّي بكلام حاول الفتى أن يفهمه أو أن يتبين لفظه  
فلم يجد إلى ذلك سبيلاً . فانصرف مغيظاً محنقاً يسأل نفسه في أعماق  
ضميره : أمسّ الشيخ طائف من جنون ، أم أراد الشيخ إلى العبث به  
والتعمية عليه ؟ فقد لاحظ عمرو بن هشام اشتغال الشيخ عنه حين أقبل  
عليه ، وإعراضه عنه حين تحدث إليه ، ومحاولة الفرار منه كلما ألح عليه  
في الحديث ، وتكلف الغباء والقصور عن الفهم حين بدأ يصغى إليه .  
وكان عمرو بن هشام يعرف من ورقة غير هذا كله ، كان يعرفه حفيماً به  
يحسن القول له والاستماع منه . وكان يعرفه ذكياً حاد الذكاء بصيراً نافذ  
البصيرة ، لا يكاد يحتاج من محدثه إلا إلى بدء الحديث . وكان يعرفه  
كلفاً بأمور الدين لا يكاد يعرض لها عارض بين يديه حتى يندفع كأنه  
السيب ، فينكر على قریش مكرهاً ونفاقها وتكلفتها عبادة الأوثان ،

وما هي من عبادة الأوثان في شيء ، ويرثي للعرب من جهالتهم هذه  
 الجهلاء التي يغرقون فيها إغراقاً منكراً حتى يضللمهم سادة قريش بهذه  
 الأكاذيب بصوغونها عن آلتهم هذه المنصوبة ، وهم يعلمون أنهم  
 يكذبون ويضللون ، وهم يسخرون من الناس ومن الآلهة حين يخلون  
 إلى أنفسهم وحين يخلص بعضهم لبعض نجياً . وقد راب الفتى ما رآه  
 من تغير الشيخ هذا الضحى ، وزاده ريبة ما رآه من هذه الثورة المفاجئة  
 حين ذكر له ما ذكر من أمر نسطاس . على أن الفتى لم يصل إلى هذا  
 الموضع من نجوى ضميره حتى ازداد ريبة إلى ريبة وشكاً إلى شك ؛ فقد  
 ذكر أن وجه نسطاس لم يكن خالياً له أمس ، وأن نفسه لم تكن  
 خالصة له كما تعودت أن تخلص له حين يتقدم الليل وتسكت الموسيقى  
 وينقطع الغناء ويتفرق الندامى ويخلو الصديقان ، لا يشهد خلوتهما  
 إلا هذان القدحان قد بقيت فيهما بقية من شراب يُقبلان عليه بين  
 حين وحين فيحسوان منه حسو القطا ، وإلا هذه النجوم التي كانت  
 تُطلّ عليهما من السماء كأنما كانت تريد أن ترى ما يصنعان أو تسمع  
 لما يقولان ، وهي على ذلك تُخفي عليهما أسراراً غامضة طالما اشتاقا إلى  
 استجلاؤها ، وإلا هذا النسيم الخفيف الضئيل الذي كان يختلس مسراه  
 من سكون الليل اختلاساً ويمر بهما من آن إلى آن حذراً متحفظاً  
 كأنما يخشى أن يفطنا له فيدلاً عليه ضوء الليل .

هنالك كانت نفس الفتى العربي ونفس الرجل الرومي تتمزجان امتزاجاً  
 غريباً ، فيصفولهما الود ، ويخلص بينهما الحب ، ويطيب لهما الحديث .

وربما غمرهما سكون الليل وسكوت الطبيعة من حولهما فسكنا وسكنا ،  
ورأى كل منهما مع ذلك في نفس صاحبه كما يرى في المرأة ، وفهم كل  
منهما عن صاحبه كما يفهم الصديق عن الصديق . فأما أمس فقد كان  
الرومي ذاهلاً عن صاحبه بعض الدهول ، لا يدنو منه إلا لينأى عنه ،  
ولا يصل إليه إلا لينفصل عنه ، وكان يحدثه أحاديث متقطعة ، يتحمس  
في بعضها حتى يبلغ أبعاد غايات التحمس ، ويفتر في بعضها حتى يبلغ  
أقصى آحاد الفتور . وقد ذكر عمرو بن هشام أنه انصرف عن صديقه  
الرومي كثيراً محزوناً يردّ عن نفسه ملالةً لا تريد أن تُردّ ، ويدفع عن  
نفسه سأمًا لا يريد أن يندفع . وكان يعلل نفسه بلقاء ورقة يتعزى ببشاشته  
وحديثه عن فتور نسطاس وشروء خاطره ، كما أقبل على نسطاس من  
ليلته تلك يلتمس فيها عنده من لذة آثمة أو بريئة عزاء عن هذا  
العتاب الثقيل الذي لقيه به عمه ، فأذاه به فيما لا يجب أن يؤذى فيه من  
هذه الحرية التي كان يؤثرها على كل شيء ، ولا يرضى أن تكون موضوعاً  
للأخذ والرد أو للجدال والنزاع .

وكانت كل هذه الخواطر تضطرب في نفس عمرو بن هشام وهو  
ماض في طريقه بين دار ورقة بن نوفل والمسجد . والحق أنه دفع إلى  
المسجد على غير إرادة منه ؛ فلم يكن في نفسه شيء من النشاط للقاء  
شيوخ قريش وشبابها في أنديةهم تلك التي لا يسمع فيها إلا ما يضيق به من  
الحديث . ولو قد فكر في الغاية التي ينبغي أن يقصد إليها بعد ما خرج من  
عند الشيخ لتردد بين اثنتين : فإما أن يرجع إلى داره ليخلو فيها إلى نفسه

ويستقصى حساب هذه الخواطر التي كانت تضطرب في ضميره ، وإما أن يذهب إلى نسطاس ، فلعله أن يجد عنده من النشاط وحضور الذهن ما ينسيه شروده أمس وشرود الشيخ عنه اليوم . ولكنه دفع إلى المسجد بحكم العادة ؛ فقد كان يُنفق أول النهار عند ورقة ، حتى إذا ارتفع الضحى وكادت الشمس أن تزول سعى متباطئاً إلى المسجد فأدرك أندية قريش قبل أن يتفرقوا وينصرف كل منهم إلى حيث يَقبِل . فلما بلغ المسجد كان قد انتهى من حساب نفسه إلى نتيجة مثيلة له أشد الإيلام ، مؤذبة لكبريائه أشد الإيذاء ، وهي أنه لقي ثلاثة من أحب الناس إليه وآثرهم عنده في أقل من يوم ، فلم ير عند أحد منهم شيئاً يرضيه . فعنه يعتب عليه عتباً ثقيلاً ، وصديقه الرومي يُعرض عنه إعراضاً مرّاً ، وورقة ابن زرقل لا يهدى إليه إلا هذا الغموض الذي هو أشد عليه من عتاب العم وإعراض الصديق .

ولم يكن يقدر أنه سيلقى من أندية قريش مثل ما لقي من هؤلاء الرجال الثلاثة : أشياء إن لم تحفظه وتنته به إلى الغيظ فهي لا تسره ولا ترضيه . ولو ملك الفتى زمام نفسه واستطاع أن يستقصى أمره كما كان يفعل دائماً ، لرد الأمور إلى أصولها ، ولعرف أن أحداً من هؤلاء النفر الثلاثة لم يلقه بشيء يكرهه ، وإنما هو الذي حمل نفسه على ما لا تحب فرأى عند هؤلاء الناس ما لم يكن يحب أن يرى ؛ فقد كان يأخذ الأمور دائماً أخذاً هيناً ، لا يهتم لشيء ولا يضيع بشيء . وما أكثر ما كان يلقاه عمه بالجد المرّ والدُّعابة الحلوة فلا يحفل بذلك ولا يأبه له .



ونفس الصديق ليست دائماً خالصة للصديق ، ووجه الخليل ليس دائماً خالياً لل خليل ؛ فللناس من أمورهم الظاهرة والخفية ما يجوز أن يشغلهم عن أحسن أصدقائهم عندهم منزلة ، وأرفعهم في قلوبهم مكانة . ولكن عمرو بن هشام كان هذه الأيام حرج الصدر ضيق النفس بكل شيء ، قد عرضت له أزمة من هذه الأزمات التي تعرض لأصحاب القلوب الذكية والنفوس الأبية ، حين يحسون الفراغ من حولهم ، ويشعرون بأن الحياة باطل ما فيها من الجدل والهزل ومن الشدة والرخاء ، ويلتمسون لهذه الحياة غاية خيراً مما وجدوا إلى الآن ، ويطلبون إليها ثمرات أحلى مذاقاً وأبقى أثراً من كل ما بلوا إلى الآن ، فلا يجدون شيئاً مما يلتمسون ، ولا يبلغون شيئاً مما يطلبون .

هنالك ينكرون أنفسهم وينكرون الناس ، وهنالك يضيقون بأنفسهم كما يضيقون بكل شيء وبكل إنسان . وهنالك يدقّ حسهم ويرقّ طبعهم ، فإذا هم يجدون الألم والسأم في أشياء لم يكونوا من قبل يجدون فيها ألماً ولا سأمًا . وآية ذلك أن عمرو بن هشام لم يلق ابتسام القوم له في ناديتهم بابتسام مثله ، ولم يرد تحيتهم الطيبة بتحية مثله ، وإنما أقبل فأهدى إلى قومه هذه التحية التي تدفع اللائمة ولا تزيد على ذلك . ولو قد استطاع لما ألمّ بهم ولا جلس إليهم . فقد رأى فيهم عمه الوليد بن المغيرة فكره ذلك أشد الكره ، وكاد يمضى لوجهه لولا أن جعل القوم يرحبون به ويومنون إليه أن أقبل ، ولولا أن جعل عمه يناديه : « أقبل » أبا الحكم فقد جئت حين اشتدت الحاجة إليك . ولم يكدهم عمرو يجلس

إلى قومه حتى ابتدره عمه قائلاً في دعابة حلوة : « هذا أوان يختبر  
حزملك وعزملك وفضلك فيما تعقد من الأمور » .

قال عمرو بن هشام وهو يتكلف الابتسام : « إنك لخلو الدعابة منذ  
اليوم يا عم ! وما أرى إلا أن أمور القافلة تستقيم لك على خير ما تهوى » .  
قال الشيخ : « لم تعد الحق يا بن أخي ، فما أكثر ما حمل إلى من  
الذهب والورق والعروض ! وما أشد ابتدار قريش إلى الرحلة وتنافسها  
في السفر ! ولتعلمن قريش أن الوليد بن المغيرة ميمون النقيبة ، لا يتولى  
لهم تجارة إلا عادت عليهم من الربح بأكثر مما ينتظرون » .

هنالك انبسطت أسارير القوم وظهر الابتهاج في وجوههم ، وقال  
قائلهم : « والله ما علمناك يا أبا الوليد إلا سيداً كريماً ميمون النقيبة في  
كل ما وليت من الأمر » .

قال الوليد لابن أخيه في صوته العريض العميق : « ولكن أمور  
الموسم لا تجرى من النجاح والاستقامة على مثل ما تجرى عليه أمور  
التجارة . فقد أدركت قومك يا بن أخي وهم يختصمون في شيء ليس  
بذئب خطر في ظاهر الأمر ، ولكنه بعيد الأثر في حياتهم وفيما يستقبلون  
من سياسة العرب . وحسبك أنها الحصومة بين المنفعة والحياء . وإذا  
اختصمت في نفسك المنفعة والحياء فإلى أيهما تميل ؟ » .

قال عمر بن هشام : « فأما إن كنت تمزح فإني أؤثر المنفعة  
ولا أعدل بها شيئاً . وأما إن كنت تريد إلى الجدل فإني أؤثر الحياء  
لا أعدل به شيئاً ؛ لأنني أؤثر دائماً أن أكون رجلاً ، والحياء نصف

مروءة الرجل . ولكني لا أفهم عنك ما تقول منذ اليوم ، فما هذه  
الخصومة بين المنفعة والحياء ؟ » .

قال الوليد : « فإن قومك يستعدون للموسم كما علمت ، ويتهيئون  
لاستقبال العرب الذين يفتدون علينا من كل صوب إذا دنت هذه  
الأشهر الحرم ، وأنا أعلم أنك مشغول بنفسك عن مثل هذه الهنات ،  
ولكن هذه الهنات معقدة يابن أخي أشد التعقيد ، ينهض بأثقالها  
شيوخ قومك وذوو الأحلام منهم على حين تختلف أنت وأترابك ... »  
قال عمرو بن هشام : « حسبك يا عم فقد سمعت من ذلك ما أرضاني  
أمس » ، ثم تمثل قول الشاعر اليربوعي :

قالت ولم تقصد لقليل الحنا مهلاً فقد أبلغت أسمعني

قال الوليد : « أما إن كان ذلك كذلك فإني أرجو أن يكون فيك  
خير . ولكن قومك يختصمون في الأمين وفي أمر أقدم عليه في الموسم  
الماضي ، وهم يخشون أن يعود إليه في الموسم المقبل » . قال عمرو بن هشام :  
« وما ذاك ؟ » . قال الوليد : « ألسنت تذكر أن محمداً غير من عادات  
قريش في الحج ما لا يقدر أحد على تغييره ، فحج كما يحج العرب لا كما  
يحج أهل الحرم ؟ » . قال عمرو بن هشام وهو يبتسم ويهز رأسه :  
« لا أذكر من ذلك شيئاً » .

قال الوليد : « ما أنت وذاك يابن أخي ! إن لك في مرح الشباب  
وأقداح نسطاس عن ذلك لشغلا . ولكنك تعلم على أقل تقدير أن  
أهل الحرم لا يخرجون منه إذا أرادوا الحج ، فهم لا يفيضون من

عرفة ولا يأتون منى ولا غيرها من المشاعر خارج الحرم ، إنما يتركون ذلك لسائر العرب فضيلة لهم على الناس جميعاً .

قال عمرو بن هشام : « فضيلة خصّوا بها أنفسهم ولم تخصهم بها الآلهة ، وأقرت لهم بها العرب ضعفاً وعجزاً » .

قال الوليد : « هذا أول الشر . فأنت إذا لا تنكر على الأمين خروجه من الحرم ، وإفاضة مع الناس من حيث يفيضون ، وسيرته في الحج كسيرة رجل من العرب لا من قريش ؟ » .

قال عمرو بن هشام : « لا أنكر عليه شيئاً ولا أقره على شيء ولا أعنى من ذلك كله بكثير ولا قليل ، ولو قد عنيت من ذلك بشيء لسلكت فيه طريق الأمين ، ولأعنته وجاهدت معه ، حتى نرد قريشاً إلى السنة الأولى ونلغى هذه البدعة التي ابتدعتها والتي لم نرثها عن آبائنا ؛ لا لأنى أحفل بقديم أو جديد ، ولا لأنى آبه لسنة أو بدعة ، ولكن لأنى أرحم هؤلاء العرب الذين تكلفونهم ما لا يطيقون ، وتحملونهم ما لا يستطيعون له احتمالاً ، إثارة لأنفسكم بالخير ، واستكثاراً للربح من غير وجهه ، واتجاراً بما لا ينبغي أن يتجر فيه . إنهم يأتونكم وقد حملوا ثيابهم وطعامهم وشرابهم ، فتحرمون عليهم من ذلك ما أحل لهم من قبل ، وتأبون عليهم أن ينزلوا بين أظهركم حتى يتخففوا كارهين من كل ما حملوا ، ثم تبيعون عليهم من الثياب والطعام ما لم يكونوا في حاجة إلى أن يشروه ، ثم تكرهونهم على أن يشتروا منكم الطعام أو يقيموا بينكم جياً ، وعلى أن يشتروا منكم الثياب أو يطوفوا بالبيت و يقيموا بينكم

عراة ، لا تفرقون في ذلك بين الرجل والمرأة ، ولا بين الشيخ الفاني والغلام الناشئ . خُطِّطَةٌ اختططتموها من عند أنفسكم لم ترثرها عن سُنَّةٍ ولم تأخذوها من كتاب ، وإنما هو حب الاستعلاء والطمع في الربح . لا يكفيكم أن تكونوا جيران الآلهة وسكان الحرم وحماة الكعبة حتى تستنبطوا من هذا كله حقوقاً لم تكن لكم . ولا يكفيكم ما تُغِله عليكم تجارتكم البعيدة والقريبة من مال حتى تضيفوا إليه مالاً تشتقونه من جوع الجائع وظماً الظالم وعرى العريان .

قال عتبة بن ربيعة وقد أحفظه ما سمع : « على رِسْلِكَ أبا الحكم ! فإنك والله لتشاركنا في كل هذا ، تأثم معنا إن أئِمنَّا ، وتنعم معنا إن نعمنا ، فأنكر على نفسك إن كنت منكراً » .

قال عمرو بن هشام : « نعم ؛ إني لأشارككم في الحبيث والطيب من مالكم ، وفي القبيح والحسن من أمركم ، ولوددت والله ألا أشارككم في شيء ، وأن أكون فيكم خليعاً كأحد هؤلاء الخلعاء » .

قال أمية بن خلف : « ما رأيت كاليوم سفيهاً كنا ننتظر منه الحلم ، ولا غويًّا كنا نرجو منه الرشد » .

قال عمرو بن هشام : « اربع<sup>(١)</sup> على نفسك أبا على ، فليس كل من خالف عن أمرك سفيهاً ، وليس كل من انحرف عن رأيك غويًّا » . قال أبي بن خلف : « أمهلوا أبا الحكم فوالله إن له لشأناً ، وما علمناه عياباً ولا مشتطاً على قومه ، وما أرى إلا أنه في حاجة إلى أن يثقل » .

( ١ ) اربع على نفسك أى كف وارتق .

قال الوليد بن المغيرة وهو يكظم غيظه ويتكلف الابتسام والدعابة :  
 « دعوه ، فوالله ما علمته إلا ولد سوء ، وما أرى إلا أن خمر نسطاس وهراء  
 ورقة بن نوفل قد أفسدا عليه أمره . ولقد نهيته عن هذين الرجلين فلم ينته  
 وإنى أحلف باللات والعزى ليكفن عما هو فيه أو ليكونن له معي شأن  
 كشأن زيد بن عمرو مع عمه الخطاب » . وهم عمرو بن هشام أن يرد علي  
 عمه القول ، ولكن شيبه بن ربيعة وعلي بن أمية قاما إليه فرققا به حتى  
 انصرفا به من المجلس .

وعاد شيوخ قريش إلى ما كانوا فيه من النجوى . فقال أمية بن خلف :  
 « قد علمتم يا معشر قريش أن للأمين فيكم مكانة ما تعدلها مكانة ،  
 وأنكم لم تنكروا من أمره شيئاً ، وما زلت أراكم تحتكمون إليه وترضون  
 حكمه في أمر هذا الركن . وقد علمتم أن لعبد المطلب وبنيه في  
 الدين شأناً غير شأنكم ومذهباً غير مذهبكم : تيسرون على أنفسكم ،  
 ويسشقون على أنفسهم ، وتعلم ذلك منهم العرب كلها . فما زاد الأمين  
 على أن مضى على سنة أبيه عبد المطلب فتكلف من شؤون الحج  
 ما لا تحبون أن تتكلفوا ، فخلوا بينه وبين ذلك ولا تراجعوه في شيء  
 منه فتسوءوه وتسوءوا بني هاشم ، ولكم بعد في تحرج الأمين وتكلفه  
 ما لا تتكلفون منفعة ؛ فسرى العرب أن سيداً من ساداتكم وشريفاً من  
 أشرافكم لا يكره أن يسير سيرتهم ، ويحتمل من المؤونة ما يحتملون ،  
 ويُفيض معهم من حيث يفيضون . فإذا رأوا ذلك عرفوا لقريش  
 السؤدد والتواضع جميعاً » . قال الوليد بن المغيرة : « إن رأيك هو الرأي

يا أبا عليّ . وتفرق القوم إلى دورهم .

فأما عمرو بن هشام فقد انصرف مع صاحبيه شيبه بن ربيعة وعليّ ابن أمية كارهاً وهما يرفقان به ويلطفان له ، يأخذانه بالجد حيناً وبالدهابة والمزاح حيناً آخر ، حتى ثابت إليه نفسه وسكت عنه الغضب . يقول له شيبه بن ربيعة متضحكاً : « لقد قمت يا أبا الحكم عن الأمين مقاماً سيعلمه وسيحمده لك » . قال عمرو بن هشام : « وأقسم ما أبغضت إنساناً قط كما أبغضت الأمين ، وما آذاني شيء قط كما تؤذي قريش حين تُكرمه وتعظم من أمره ومن أمر بني عبد المطلب ما تعظم » . وكان القوم قد انتهوا إلى دار شيبه بن ربيعة ، فعزم عليهم لئيدخلن ولينالنّ عنده شيئاً من طعام وشراب . فلما استقرّ بهم المجلس وأخذ الغلمان يهيشون لهم غداءهم ، قال شيبه : « ما ظننت قط أن أحداً يُبغض الأمين ، وما عرفته إلا محمداً كاسمه بين قومه محبباً إلى النفوس جميعاً . فهلا حدثتنا يا أبا الحكم ببدء هذا الشتان الذي تُضمّره له !! »

قال عمرو بن هشام : « إن بدء ذلك لقديم جداً ، وإن عهدى به لفي أول أيام الشباب : أقبلنا على وليمة في دار عبد الله بن جدهان ، فلما دعينا إلى الطعام ازدحمنا ، وزاحمني محمد فزحمني ، فزلت قدمي فسقطت على الأرض » .

قال شيبه : « أذكر ذلك ، وأذكر أنك لم تشاركنا في طعامنا فقد أصاب إحدى ركبتيك بأس » .

قال عمرو بن هشام : « بأس ! أي بأس ! ما زال أثره باقياً إلى الآن ، وما

أرى أنه سيزول ، وما أرى إلا أن بغضى لمحمد سيبقى ما بقي هذا الأثر .  
قال شيبه : « هون عليك أبا الحكم ؛ أمرٌ يكون بين الشباب  
لا عاقبة له . »

قال عليّ متصاحكاً : « فإن محمداً قد فوت عليه طعام ابن جدعان  
وطعام ابن جدعان يؤمى عليه . »

قال عمرو بن هشام : « كان ذلك بدء بغضى له ، ولكنى ما زلت  
أسمع عنه وعن قومه الأعاجيب ، يتحدث بها الناس عنه فتسمعون  
أنتم وتنسون ، وأسمع أنا وأحفظ ، ثم يغيظنى من ذلك ما لا يغيظكم .  
أتذكرون تلك الأحاديث التى أذيعت عنه وملئت بها مكة حين سافر إلى  
الشام فى مال خديجة بنت خويلد ؟ ! »

قال شيبه : « أحاديث غلام أعجمى صدّقها من صدّقها وكذّبها من  
كذّبها ، وأشاد بها هذا الصابى الذى تألفه وتكلف به ورقة بن نوفل . »  
قال عمرو : « دع ورقة لا تعرض له ، فإنه ما علمت لرجل خير . »  
قال عليّ : « توشك والله يا أبا الحكم أن تنحرف مع هذا الرجل عن  
مألوف قومك . »

قال عمرو ساخراً : « قومي أعز عليّ من هذا . »  
وكانت المائدة قد مدت فأقبل القوم على طعامهم ، ومضى عمرو  
ابن هشام فى حديثه يقول : « وإصهار محمد إلى خويلد واستثنائه  
بخديجة وما لها . » قال شيبه : « خير سيق إلى ابن عمك ، فما ينبغي أن  
تسنّفسه عليه . » قال عليّ : « لم ينفسه وحده ، ولقد شاركه فى ذلك



كثير من قريش . قال عمرو : « ولا والله ما غاظني شيء قط كما غاظني احتكام قريش إلى محمد في أمر الركن ورضاها بحكمه ، واستئثار محمد من دون قومه بهذا الشرف حين أخذ الحجر بيده فوضعه في موضعه من الكعبة ، ونحن قيام ننظر إليه لا نقول شيئاً كأنما سُكِّرت أفواهنا ، ولا نصنع شيئاً كأنما سُلت أيدينا » .

قال شيبه : « ما أحببت قط رجلاً كما أحببت محمداً في ذلك اليوم !

فقد رد عن قومه شراً عظيماً » .

قال عمرو : « وما ضقتُ بشيء قط كما ضقتُ بمكان عمى الوليد ابن المغيرة الذي كان يسلقني بلسانه آنفاً . لقد كنت أراه حازماً عازماً جريئاً حين ترددت قريش ، يُقدم على هدم الكعبة حين أشفق الملاء من ذلك وهو يقول : " اللهم لا تُرعَ فما أردنا إلا الخير " حتى إذا حمل قريشاً على ما أراد عجز عن أن يمضي في الحزم إلى غايته ، وخلي بين مجد قريش وبين فتى من فتیان بنی هاشم يستأثر به من دوننا » .

قال عليّ : « إنه الحسد يا أبا الحكم ، وما علمتك قبل اليوم

حسوداً »

قال عمرو : « سمّه ما شئت ؛ فإنني أضمر لهذا الأمين من البغضاء ما لم أضمره لإنسان قط . ولو استطعت... » ثم سكت قليلاً ثم استأنف حديثه فقال : « ومن لي بأن أستطيع !! » ثم التفت إلى عليّ قائلاً : « ما علمتني يا عليّ حسوداً ، وما عرفت في نفسي حسداً ، وإنك لتستطيع أن تملك من الذهب والفضة ما يملأ بين هذين الجبلين ، فلن

أجد في نفسي من ذلك إلا الغبطة والرضا ، ولكن شاة يملكها الأمين  
تؤذيني وتُقِضُ مضجعي كما لو عدا على حُرّ مالي فأخذه قهراً وقسراً .  
وطوف الغلمان عليهم بأقداح من خمر بيّسان فأقبلوا عليها شريين إليها ،  
ولكنها لم تكد تصرف عمرو بن هشام عن حديث الأمين وما كان  
يضمّر له من البغض حتى شق على صاحبيه .

وكانت أجيال مكة قائمة حولها ساهمة واجمة في يوم شديد القَيْظ ،  
 كأنما أدركها منه ما يدرك الناس فيذهلهم عن أنفسهم وعمما حولهم من  
 الأشياء . وكانت مكة بين هذه الأجيال ساكنة سكوناً مخيفاً لا حركة فيه ،  
 هادئة هدوءاً مفضلاً لا نشاط فيه ، قد استقرت بين هذه الأجيال ، واستقر  
 فيها كل شيء ، فما تجرى فيها نسمة ، وما يغنى فيها طائر ، وما تصوت  
 فيها حشرة ، وإنما هي جامدة هامدة تُصَبّ فيها أشعة الشمس المحرقة  
 صبباً ، وتنعكس في هذه الأشعة المحرقة ألوان مختلفة من هذه الصخور  
 القائمة من حولها ، حتى ليخيّل إلى من كان يمكن أن يراها في ذلك الوقت  
 أنها طستٌ يُصَبّ فيها معدن مذاب يصهر كل ما مسه من شيء . وفي هذه  
 المدينة الجامدة الهامدة المحرقة المشرقة كان رجل رومي يسعى ثقيل الحركة  
 بطيء الخطو متخوفاً يلتفت عن يمين وشمال في كثير من الحذر ، كأنما  
 يخشى أن يرى مكانه أحد . وكان يسعى مجهوداً مكثوداً شديد الإعياء  
 قد أهبته هذه الشمس المهلكة ، ولكنه على ذلك يسعى إلى غايته  
 لا يبالي تعباً ولا نصباً ، حتى إذا بلغ دار ورقة بن نوفل رأى غلاماً قائماً  
 بالباب يرقب مقدمه ، فلما رآه مقبلاً تلقاه بابتسامة صامتة ، ثم سعى بين

يديه حتى أدخله الدار وأغلق من دونهما الباب ، ثم سعى بين يديه ينقله  
 من دهليز إلى دهليز ومن حجرة إلى حجرة ، يسعى لا يقول شيئاً ، والرومي  
 وراءه يمشي لا يقول شيئاً ، حتى انتهيا إلى حجرة في أقصى الدار ، فلما  
 دخلاها أغلق الغلام الباب من دونهما ، ثم أحدث حساً فظهر ورقة  
 كأنما كان في مخبأ . فلما رأى الرومي حياه بالإشارة ثم قال : « اتبعني  
 يا نسطاس » . ثم التفت إلى الغلام وقال : « أما أنت فكانك حتى نُحدث  
 لك أمراً » . وهبط ورقة يتبعه نسطاس في سلم كان في زاوية من زوايا  
 الغرفة ، فلما انتهيا إلى أسفل السلم أمعنا في نفق طويل ضيق ولكنه جعل  
 يتسع قليلاً قليلاً كلما أمعنا فيه حتى انتهيا إلى مجلس حسن ، فلما بلغاه  
 جثا كل من الرجلين على ركبتيه وأخذنا يصليان بلغة غير عربية صلاة  
 طويلة . فلما فرغا من صلاتهما مدّ ورقة يده إلى قدح فيه شيء من خمر  
 فقرأ عليه كلاماً ثم قدمه إلى الرومي ، فشرب منه ثم رده إلى ورقة فشرب  
 ما كان قد بقي فيه . ثم تحوّل الرجلان عن مكانهما ذلك إلى حشية قد  
 أقيت على الأرض فجلسا عليها وبين أيديهما شراب أقبلا عليه صامتين .  
 ثم قطع نسطاس الصمت قائلاً : « إنه الفجر يا ورقة » . قال ورقة : « نعم ؛  
 إنه الفجر يا نسطاس ! والفجر الصادق هذه المرة ، فقد طالما كذبتنا  
 نجوم الليل » . قال نسطاس : « فقد أخذ الليل ينجلي » . قال ورقة :  
 « ولكنه ينجلي في بطن شديد » . قال نسطاس : « وقد آن لي أن أرحل  
 بالخبر إلى أصحابنا قبل أن تشرق الشمس » . قال ورقة : « أو قبل أن يرتفع  
 الضحى » . قال نسطاس : « بل قبل أن تشرق الشمس فالخبر في البكور .

وقد كان شاعركم يحب الغدو مع الطير ، فلنكن عرباً ونحن نودع أرض  
العرب . قال ورقة : « ولكنك عجات على نفسك أمس يا نسطاس » .  
قال نسطاس : « بما حدثتُ به عمرو بن هشام ؟ » قال ورقة : « نعم » .  
قال نسطاس . « لا تُرَع » ، فقد كان يجب أن نُؤذن قريشاً بمطلع  
الفجر ، وأن نهيبها لما سيغمرها من نور ، ونعدّها لما تضمّر لها الأقدار  
مما تحب وما تكره . وما أعرف أحداً كان أقدر على أن يهيب قريشاً  
لهذا الأمر من صاحبك هذا ؛ فإنه فتي طموح شديد الطموح ، مغرور  
يكاد يقتله الغرور ، حسود يأكل الحسد قلبه كما تأكل النار ما يلقى  
فيها من الحطب ، وهو على ذلك ذكي القلب ، فصيح اللسان ، أثير عند  
قومه . وما أرى إلا أنه سيكون أشد الناس عداوة لهذا النور الحديد ،  
وما أرى إلا أن عداوته ستزيد هذا النور انتشاراً كلما أمعنت في الشدة  
والحدة . وكذلك الأقدار يا ورقة تدبر للناس أمورهم كما تحب هي لا كما  
يجبون هم . نور يخرج من ظلمة ، ثم ما تزال الظلمة تحاربه وتغالبه حتى  
يقهرها . رأيت إلى صاحبنا هذا الذي أشرق الفجر في قلبه وسيشرق  
على الناس من فمه كيف أقبل على هذه الدنيا وكيف استقبل أيامه فيها ؛  
يولد أبوه وهو أحب الناس إلى أبويه ، ولكنهما يفتنان فيه فتنة لم يعرفها  
الناس منذ إبراهيم ، حتى إذا خلص الفتى من الفتنة وقرت به عيننا أبويه  
خرج إلى الشام فلم يعد من رحلته تلك ، وإنما دُفن في حفرة بيثرب .  
لم يولد لنفسه ، وإنما ولد لينقل ابنه إلى الأرض ، فلما أدى أمانته مضى  
لسبيله . وتلد آمنة ابنها وتقوم عليه ، حتى إذا تقدم به الصبأ قليلاً واستغنى

عن خدمة الأمهات مضت أمه إلى حيث مضى أبوه ، وظل الصبي يتيمًا  
عائلاً ضالاً ، لا ينتظر أحد له خيراً ، ولا يظن به أحد خيراً ، ولا يحفل به  
أحد ، ولا يلتفت إليه أحد ، إلا الذين أرادت الأقدار أن يعرفوا بعض  
شأنه وأن يقوموا ببعض أمره ، لا يتكلفون في ذلك إلا أيسر الأمر  
وأهونه ؛ لأن الذي اختارته الأقدار لمثل هذه المهمة العظمى لا ينبغي أن  
تكون للناس عليه يد ، ولا يرعاه ويكلؤه إلا من اصطفاه لما يريد .  
قال ورقة : « هو ذاك يا نسطاس . وما أكثر ما بحثنا وأمعنا في  
البحث ! وما أكثر ما استقصينا وغلونا في الاستقصاء ! نُبعد ومحمد بين  
أظهرنا . نلتمس مشرق النور في أقطار الأرض ومشرق النور يسعى بين  
أيدينا ، حتى إذا تتابعت الآيات وتظاهرت الأدلة ظننا في غير قطع  
أننا قد اهتدينا إلى ما كنا نبحت عنه ، وجعلنا نرقب محمداً منذ خمس  
عشرة سنة منذ عاد من الشام . أتذكر يا نسطاس ؟ » قال : « نعم » .  
قال ورقة : « ما زلنا نرقبه منذ ذلك اليوم والآيات يتبع بعضها بعضاً ،  
والأدلة يشد بعضها أزر بعض حتى جاء الحق وظهر نور الله » .

قال نسطاس : « هو ذاك ! ولكن بماذا أرحل إلى أصحابنا ؟ » . قال  
ورقة : « بما علمت » . قال نسطاس : « فإني لم أعلم من ذلك إلا خلاصته ،  
وقد أحب أن أحمل إلى أصحابنا تفصيله . وقد أنبئت أن عندك من هذا العلم  
كله ، فأعد عليّ من ذلك ما تعلم ، تقول أنت بعريبتك وأكتب أنا  
بيونانيتي ، حتى إذا بلغت أرض الروم أفضيت بالأمر إلى أصحابنا فأخذوا  
له ما ينبغي من الأهبة ، وتهيئوا له كما ينبغي أن يتهيئوا لهذا الأمر العظيم » .

قال ورقة : « ليتنى أستطيع أن أرتحل معك ، وأن أشارككم فيما ستبدلون من جهد وما ستحتملون من مشقة لتعدوا بلاد الأعاجم لاستقبال الشمس المشرقة حين يبلغها نورها » .

قال نسطاس : « ولكن عليك أن تقيم حيث أنت ، وعلىّ أنا أن أعود إلى بلاد الروم ، بهذا أمرنا ، ولا بدّ من أن ندعن لما أمرنا به . فاقصص علىّ بدء حديثك فقد هيات كل شيء للرحيل ، ويجب أن أترك مكة قبل أن تغرب الشمس وأن يأتى فتیان قريش إلى حانة نسطاس فلا يجدوا فيها نسطاس ، ولا يجدوا فيها خمرًا ولا غناء ولا نساء ، وإنما يجدون داراً خالية بلقماً يباباً ، كما سيجدون دوراً لقومهم حين يرتفع ضحى هذا النور الجديد » .

قال ورقة : « فإن ابنة عمى خديجة قد أقبلت علىّ ذات يوم فأنبأني بالنبا تعيد علىّ حديث زوجها ، وقد حفظته عنها كما سمعته منها ، فإن شئت فاكتب » . فأقبل نسطاس على رَقّ يكتب فيه . وجعل ورقة يقول : « قال رسول الله (صلعم) » . يقول نسطاس : « يا لها كلمة حلوة المحجى على اللسان ، حسنة الموقع فى القلب ، خالدة فى الدهر ما بقى الدهر ! » . قال ورقة : « أتكتب يا نسطاس ؟ » قال نسطاس : « نعم » . قال ورقة : « قال رسول الله (صلعم) : جاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب ، فقال اقرأ ، قال قلت ما اقرأ ، قال فغتنى<sup>(١)</sup> به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال اقرأ ، قال قلت : ما اقرأ ، قال فغتنى

( ١ ) الغت : العصر الشديد مثل الغط .

به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ ، قال قلت ما اقرأ ، قال  
 فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ ، قال قلت : ماذا اقرأ ،  
 ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي ، فقال :  
 ( اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ) . قال  
 فقرأتها ، ثم انتهى فانصرف عني ، وهببت من نومي فكأنما كتبت في  
 قلبي كتاباً . قال فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت  
 صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فرفعت  
 رأسي إلى السماء أنظر ، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في  
 أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . فوقفت أنظر إليه  
 فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء ،  
 فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيتته كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي  
 وما أرجع ورائي ، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي ، فبلغوا أعلى مكة  
 ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرف عني ، وانصرفت  
 راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة ، فجلست إلى فخذهام مضيئاً إليها .  
 فقالت يا أبا القاسم ! أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسل في طلبك حتى  
 بلغوا أعلى مكة ورجعوا إلى . ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت : أبشر  
 يا بن عم واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي  
 هذه الأمة <sup>(١)</sup> .

(١) سيرة ابن هشام ، الجزء الأول صفحة ٥٢٢ ، طبعة المطبعة الخيرية بمصر .



ثم سكت ورقة فلم يقل شيئاً ، وكف نسطاس فلم يكتب شيئاً ، وظل  
الرجلان في هذا الصمت والسكون ساعة ، كأنما كانت نفسيهما قد فارقتهما  
وجعلتا تسموان إلى أفق بعيد ليس من هذا العالم الذي يحيط بهما في  
شيء . ولو قد رأهما رأى على هذه الحال لخيّل إليه أن قد اشتمل عليهما  
النوم . وآية ذلك أن الحس عاد إليهما فجأة فدُعرا من هذا الصمت  
كأنما هبنا من نوم عميق ، ونظر كل منهما إلى صاحبه نظرة طويلة صامتة  
ثم مدّ كل منهما يده إلى صاحبه فصافحه مصافحة طويلة ، وإذا دموعهما  
تهلّ في صمت ، وإذا نسطاس يقول لصاحبه : « ما أحسن ما كوفئنا  
يا ورقة بعد شدة الجهد وطول الانتظار ! ولكن ممن سمعت حديثك هذا  
الذي حدثتني ؟ » . قال ورقة وقد أشرق وجهه بشراً وابتهاجاً : « سمعت  
حديثي هذا من خديجة أول الأمر ، فما أنكرت منه شيئاً وما شككت في  
أن هذا الملك الذي جاء محمداً هو الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ،  
فعرفت أن محمداً لم يُفجأ بقاء الملك ولا بتلقّي الوحي ، وإنما هبى لذلك  
شيئاً فشيئاً حتى أنكر نفسه وأساء بها الظن ؛ فقد جعل قبل أن يأتيه الملك  
بوقت طويل يرى من آيات ربه أشياء لم يكن يراها من قبل ، فينكر ما يرى  
ويظن بنفسه العلة ، ويصرفها عما كان يرى ويسمع ، فلا تكاد تنصرف  
عنه ، أو لا يكاد ينصرف عنه ما كان يرى ويسمع . وكان أول أمره من  
ذلك أن صدّفته أحلام الليل صدقاً لم يألّفه الناس ولم يألّفه هو فيما مضى  
من دهره ، فكان لا يرى رؤيا إلا صدّقت وصحّت وتحققت كأنها فلق

الصباح ، حتى كاد النوم يكون آثر عنده وأحب إليه من اليقظة . ثم أحسن حب الخلوة والحاجة إليها ، فكان لا يُلمّ بمكة إلا قليلاً ، ثم يخرج منها فيمضي أمامه في شعاب الجبال مستأنساً بهذه الوحشة مطمئناً إلى هذه الوحدة . ولكن خلوته هذه لم تلبث أن رابته وأثارت في نفسه الظنون ، أو قل لم تلبث أن فارقت ، وإذا هو لا يخلصُ لنفسه ولا تخلص له نفسه ساعة من نهار أو ساعة من ليل ، وإذا الفرق بين الليل والنهار قد ألغى بالقياس إليه إلغاءً ، فهو لا يرى إلا نوراً يأخذه من كل وجه سواء أكانت الشمس مشرقة أم كان الليل مظلماً مُدْ لَهَيْمًا ، فقد الظلمة فقداناً تاماً ، ثم فقد السكون والصمت فقداناً تاماً ؛ فكان لا يمشي إلا سمع الأصوات تناجيه أحسن النجوى ، وتحدثه أعذب الحديث وتحييه أكرم التحية ، يسمع ذلك من الأشجار ، ويسمع ذلك من الأحجار ، ويسمع ذلك من حصباء الأرض ، ويسمع ذلك من نسيم الجو ، حتى أنكر نفسه أشد الإنكار ، وحتى أقبل ذات يوم على خديجة مُدْلَهَا مُوَلَّهَا مذعوراً يقول : تعلمين يا خديجة أني والله ما أبغضت شيئاً كما أبغض هذه الأوثان التي تعكف عليها العرب ، وما كرهت شيئاً كما أكره ما ألف العرب من الكهانة ، وإني مع ذلك لأجد أشياء أنكرها ، وأخشى أن يلمّ بي لسمّ أو أن أصير إلى الكهانة . تقول له خديجة : لا بأس عليك ! أنت أكرم على ربك وآثر عنده من أن يصنع بك هذا . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث وتصنع المعروف ، حتى كان ذلك اليوم الذي نُبِئَ فيه . وكان ورقة يقص هذا الحديث هادئاً مشرق الوجه باسم الثغر ، وكانت يد

نسطاس تجرى على قرطاسه بتفسير ما يسمع في لغة يونان . ثم سكت ورقة لحظة ثم استأنف حديثه فقال : « وقد لقيت محمداً بعد ذلك ، فسألته أن يعيد عليّ ما حدثتني به خديجة من شأنه وما حدثتكَ به آنفاً ، فيعيده عليّ ، لا والله ما ينقص منه حرفاً وما يزيد فيه حرفاً ، فيشرق الهدى في نفسي ويمتلئ قلبي يقيناً ونوراً ، وأبشره بما ستبشر به أصحابنا في الإسكندرية وغيرها من مدن الروم ، وبما ستنتشر أنبأؤه في الآفاق من أنه نبيّ هذه الأمة . وأثبّتْهُ وأوذنه مع ذلك بشيء من بعض العنت الذي سيلقاه من قومه » . قال نسطاس : « أو قد فعلت ؟ » . قال ورقة : « نعم ؛ ألسنا نقرأ في كتبنا أن قومه سيكذبونه وسيؤذونه وسيخرجونه وسيقاتلونه ؟ ! » . قال نسطاس : « بلى » : قال ورقة : « فقد تحدثت إليه ببعض ذلك ، أولسنا نقرأ في كتبنا أن علينا نصره وتأبيده ما وسعنا النصر والتأييد ؟ » . قال نسطاس : « بلى » . قال ورقة : « فقد وعدته بذلك ، ولكن أنى لي هذا الفضل وإنما أنا هامة اليوم أو غد ! » . ثم استعبر واستعبر معه نسطاس . فلما سكت عنهما البكاء قال نسطاس : « وماذا كان صدق حديثك في نفسه ؟ » . قال ورقة : « والله ما كدت أحسب أن قد كان لحديثي في نفسه صدق ! دهش لما أنبأته به بعض الدهش ، ثم أعرض عنه كأنه لم يسمع له . لا والله ما رأيت إلا حزماً وعزماً ، وإلا يقيناً وإيماناً ، وإلا تصميماً على أن ينهض بالأمانة ويؤدى الرسالة مهما يكتنفه من الأحداث والخطوب . وليتني كنت حاضر أمره ! » . قال نسطاس : « وليتني كنت حاضر أمره ! ولكنك لن تحضر من أمره إلا قليلاً ، واكنى لن أحضر من

أمره في هذه الأرض شيئاً . والأقدار تجري بما تريد يا ورقة ، وإنما نحن  
 مأمورون ، وعلينا أن نمضي لما أمرنا به حتى يبلغ الكتاب أجله . ثم جثا  
 الرجلان وبسطا أيديهما أمامهما وخفضا رأسيهما إلى الأرض وجعلا يصليان  
 بلغة غير عربية وقتاً غير قصير ثم نهضا ، وتناول نسطاس قدحاً فيه شيء  
 من شراب ، فبارك عليه ثم قدمه إلى صاحبه فشرب منه ثم أخذه هو منه  
 فشرب سائره ، ثم اعتنق الرجلان وخرجا من مجلسهما يسعيان في نفقهما  
 الذي جعل يضيق شيئاً فشيئاً ، حتى إذا بلغا السلم صعدا فيه ، فوجدا  
 الغلام قائماً لم يبرح مكانه .

قال ورقة للغلام : « هل هيتيء كل شيء ؟ » . قال الغلام « نعم !  
 إن فرس نسطاس ينتظره في المكان الذي يعلمه » . قال ورقة لنسطاس :  
 « فإنه الوداع إذاً يا نسطاس ! » . قال نسطاس : « إنه الوداع » . ثم  
 اعتنق الرجلان مرة ثانية ، يقول ورقة لنسطاس : « انطلق راشداً  
 مصاحباً » ويقول نسطاس لورقة : « وأقم موفقاً مهدياً » . ثم يُغلقُ  
 الباب من دون ورقة ، وإذا هو قائم وحده ينظر عن يمينه وينظر عن  
 شمال ويرفع رأسه إلى السقف ثم يجثو باسطاً يديه أمامه وهو يصلي بلغة  
 لا تفهمها ولا تتكلمها قریش .

ومضت على عمرو بن هشام أيام لم يعرفها ولم ينكرها ، كما أن قومه لم يعرفوه فيها ولم ينكروه . راح إلى دار نسطاس من يرمه ذلك فألفاها قاعاً صفصفاً ، فلما سأل عن صاحبه الرومي قال له من سألهم : والله ما ندري إلا أننا أحسننا في دار نسطاس حركةً وجه النهار فلم ننكر شيئاً ، فلما أمسينا رأينا الدار كما تراها . فانطلق إلى دار ورقة يستأذن عليه ، فيقول له غلام ورقة : إن سيده يشكو بعض العلة ولا يستطيع أن يرى أحداً . ولو قد استجاب الفتي لنفسه لذهب إلى دار عمه الوليد بن المغيرة ، ولكنه ذكر ما كان بينه وبين عمه في المسجد فأعرض عن لقاء الشيخ إعراضاً . ولو قد استمع الفتي إلى ما ملأ قلبه من الضجر والضيق لعاد إلى بيته كئيباً كاسف البال سيء الخلق فساء أهله وبنيه ، ولكن ماذا جنى أهله وبنوه !

فينطلق الفتي إلى مجلس من تلك المجالس التي كان يجتمع فيها شباب قريش حين يقبل الليل يشربون ويطربون ويعبثون بكل إنسان وبكل شيء ، حتى إذا بلغ مجلسهم تلقَّوه دهشين يقولون له : ويحك أبا الحكم ! فأين أنت من نسطاس ؟ ! قال :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس" ولم يسمُرُ بمكة سامرُ  
 قال أخوه الحارث بن هشام :  
 بلى نحنُ كنا أهلها فأزالنا صروفُ الليالي والحدود العوثر  
 قال عمرو بن هشام : « لا والله ما أزالت نسطاس صروف الليالي  
 ولا الحدود العوثر ، وإنما أزالته أمور دُبِّرَت بليل وكيد يكاد لقريش . »  
 قال القوم : « ويحك أبا الحكم ! ماذا تقول ؟ » . قال عمرو :  
 « وأقسم لولا جبن قريش وحرصها على مالها وتجارها لما قصرتُ في  
 طلب نسطاس حتى أدركه وحتى أُرده عليكم وحتى أذيقه من العذاب  
 ألواناً ، ويومئذ تعلمون ما يكاد لكم من الكيد ، ويومئذ تعلمون أنكم  
 تسرفون على أنفسكم حين تضيفون هؤلاء الغرباء ، وتبسطون لهم  
 وجوهكم ، وتغدقون عليهم كريم أموالكم ثمناً لما يفتنونكم به من أقذاح  
 الخمر وغناء المغنيات . لا والله ما هؤلاء الغرباء إلا عيون عليكم لقيصر  
 وكسرى ؛ ولكنكم أصحاب تجارة تجوبون الأرض ولكم في كل بلد  
 قافلة وأموال ، فأنتم تخشون على أموالكم وأنفسكم . وأنتم تبيعون أمنكم  
 وعافيتكم بهذا الربح الذي تنهالكون عليه . ولو قد عشم كما يعيش  
 العرب من حولكم لكرُمتم على أنفسكم وعلى الناس أكثر مما أنتم . »  
 قال عتبة بن ربيعة : « ما أكثر ما تنعى على قومك منذ اليوم  
 يا عمرو ! فدعني أقل لك الآن مثل ما قلته لك في المسجد ، فابدأ  
 بنفسك فعش كما يعيش العرب من حولنا . »  
 قال عمرو بن هشام وفي صوته سخرية حزينة :

وهل أنا إلا من غزيرة إن غوت

غويبت وإن ترشده غزيرة أرشد

ستستبينون الرشد غداً أو بعد غد . ثم ضرب إحدى يديه بالأخرى وصاح : « الحمر يا غلام » . وأقبل على شرابه عاكفاً عليه مسرفاً فيه حتى عربد على أصحابه من ليلته تلك ، وعاد إلى أهله سكران لا يكاد يبين . ثم لم تره قريش بعد ذلك إلا مغيضاً مُحْنَقاً ، يسخر من كل شيء إن هدأ ، ويغضب من كل شيء إن جمحت به نفسه ، وما أكثر ما كانت تجمع به نفسه ! وما أكثر ما كان يؤذى أصحابه وأترابه في غدوة ورواحه ! حتى لقد كانوا يتجنبونه ويتكلفون النأي عنه . ولولا مكانه من مخزوم وموضعه من عمه الوليد بن المغيرة لأصبح خليعاً في قريش كما تمنى غير مرة أن يكون .

وبينا كان رائحاً في ذات يوم إلى حانته تلك يشرب فيها ويطرب وينغص على شباب قريش شربهم وطربهم ، عرض له في بعض الطريق شيخ أعرابي حسن الوجه ، رائق المنظر ، لولا أنه كان غليظ الزرّ خشن الثياب ، يكاد يبدو عليه الضر ، لولا أنه يتجمل ويروض نفسه على ما لم يتعود الأعراب أن يروضوا أنفسهم عليه . فلما رأى عمرو ابن هشام هذا الشيخ مقبلاً عليه ، رماه بنظرة سريعة فيها كثير من السخرية وقليل من الحذر ، وهم أن يمضى لوجهه . ولكن الشيخ استرقفه في رفق ، فأظهر عمرو أنه لا يخفل به . ولكن الشيخ رفع صوته قليلاً بهذه الكلمة : « مكانك يا فتى فإن لي إليك حديثاً » .

وبلغ هذا الصوت أذن الفتى فروعه شيئاً ، ولم يدر الفتى أيجب هذا  
 الصوت أم يكرهه ، وأراد يَمْضِي أمامه ولكن رجليه لم تطاوعاه ،  
 فقام مكانه كأنما نُبِّتَتْ قَدَمَاهُ فِي الْأَرْضِ تَثْبِيثاً . ودنا الشيخ منه  
 يسعى متباطئاً قصير الخطا ، حتى انتهى إليه فوضع إحدى يديه  
 على كتفه في رفق وقال له في صوت بلغ أعماق قلبه : « لا تُرْعَ  
 يَا بَنِيَّ فَمَا أُرِيدُ بِكَ إِلَّا خَيْرًا » . قال الفتى في صوت مضطرب يريد  
 أن يثبت : « من تكون أيها الشيخ ؟ وماذا تريد ؟ » . قال الشيخ :  
 « ستعرف من أكون ، وستعرف ماذا أريد ، ولكن تعلم أني بعد  
 أن وضعت يدي هذه على كتفك هذه قد ملكت أمرك كله ، فلن  
 تنطق إلا بلساني ، ولن تعمل إلا برأيي ، ولن تصدر إلا عن أمري .  
 وآية ذلك أنك ستحاول أن تَمْضِي الآن أمامك فلن تطاوعك رجلاك ،  
 وستحاول أن تعود أدراجك فلن تطاوعك رجلاك ، فاجتهد أن تتقدم ،  
 ثم اجتهد أن تتأخر ، فلن تجد متقدماً ولا متأخراً ، ستظل قائماً  
 مكانك حتى آذن لك في أن تتقدم أو تتأخر . ثم تنأى عنه قليلاً  
 وأشار إليه أن جَرَبَ قَدَمَيْكَ إِنْ شِئْتَ . وَهَمَّ الْفَتَى أَنْ يَنْخَطُوَ إِلَى  
 أَمَامِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ ، كَأَنَّمَا شُدَّتْ قَدَمَاهُ إِلَى الْأَرْضِ بِأَسْبَابِ الرِّصَاصِ .  
 وَهَمَّ الْفَتَى أَنْ يَنْحَوِيَ لِيَرْجِعَ أَدْرَاجَهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ ، كَأَنَّمَا اسْتَحَالَ  
 جِسْمُهُ إِلَى تَمَثَالِ نَحْتِ مِنَ الصَّخْرِ الصَّلْدِ . وَهَمَّ الْفَتَى أَنْ يَدِيرَ  
 رَأْسَهُ إِلَى يَمِينٍ أَوْ إِلَى شِمَالٍ فَلَمْ يَجِدْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا . وَهَمَّ الْفَتَى أَنْ  
 يَبْعَثَ مِنْ فِيهِ صَيْحَةً يَلْتَمِسُ بِهَا الْغَوْثَ فَلَمْ يَجِدْ فِي جَوْفِهِ إِلَّا نَفْسًا



خائراً لا يبلغ أن يكون صوتاً يسمعه الناس . والشيخ الأعرابي قائم منه غير بعيد ينظر إليه باسماء له رقيقاً به عطفاً عليه . ثم دنا الشيخ منه قليلاً قليلاً ، حتى إذا حاذاه ضحك له ضحكة فيها كثير من الحب وكثير من السخرية ، ولكنها سخرية لا تخلو من حنان وعطف ، ثم قال له في صوت حلو : « الآن وقد عرفت سلطاني عليك فامض لوجهك ، حتى إذا بلغت حانتك تلك فاشرب فيها ما شئت أن تشرب ، واطرب فيها ما أحببت أن تطرب ، وقل فيها ما أردت أن تقول ، فلن تسوء قومك منذ الآن مهما تقل أو تفعل ، ولن تسمع منهم إلا ما يرضيك ، ولن ترى منهم إلا ما يسرك . لست أكبرهم سنّاً ولا أعظمهم قدراً ولا أكثرهم مالاً ، ولكنهم سيسمعون لك كما لو اجتمع لك هذا كله . ولن يطول بك المقام في حانتك تلك حتى يأتيك رسول عمك الوليد بن المغيرة أن زرّه من الغد فإن له معك شأناً . ولا تعجل على نفسك ولا على أصحابك ولكن خذ من اللهو بأرفر حظ ممكن . ثم إذا انصرفت لتعود إلى أهلك فاذاكر أنى أنتظر في هذا المكان ، ولك أن تسلك إلى بيتك أى طريق شئت فإنك لن تبلغ دارك ولن تغلق الباب من دونك حتى ترانى جالساً أنتظر . وستراني مهما تكن ظلمة الليل ، وستراني وحدك لن يرانى معك أحد ، وسأناجيك وستسمعني وحدك لن يسمعني معك أحد . امض لوجهك ، ولا تحاول أن تخالف عن أمرى ؛ فقد ملكت ناصيتك منذ اليوم » .

ونظر عمرو بن هشام حوله فلم ير أحداً ، وحرك رجله فاستجابتا له ،

وحرك يديه فاستجابتا له ، ولوى وجهه إلى يمين وإلى شمال فلم يرفى ذلك  
 عسراً . وقد شق عليه ما رأى ، وشق عليه ما أحسّ وظن أن قد  
 ألمّ به طائف من الجنّ ، وهمّ أن يستغيث ولكنه استحميا ، وهمّ  
 أن يتحدث إلى أصحابه في الحانة ببعض ما رأى ولكنه استحميا ،  
 فأقبل على طهوه وشرابه كأن لم يكن شيء ، وأقبل على أصحابه وأترابه  
 يتحدثهم أرقّ حديث وأحسنه . يقول بعضهم لبعض : ما نرى إلا أن  
 أبا الحكم قد عاد إلى خير أيامه ، وذهبت عنه العلة التي كانت ألمّت به .  
 ولم يكده يبلغ الثاني من أقداحه حتى أقبل غلام من غلمان عمه  
 الوليد ، فهمس في أذنه أن النميم بعلمك من غد فإن له في لقائك أرباباً .  
 فوقع همس الغلام في قلب عمرو موقعاً غريباً نسبته إلى الشيخ الأعرابي  
 وقد كاد ينساه ، ولكنه على ذلك مضى في طهوه مقبلاً عليه مغرقاً  
 فيه وفي حديثه إلى أصحابه وأترابه يرضيهم بجدّه ويسرهم بدُعابته ،  
 ويسمع منهم خير ما أحب ، وهو مع ذلك لا يكاد يخلّص لما كان  
 فيه من لذة الشراب والحديث والغناء ، يذكر الشيخ الأعرابي بين  
 حين وحين فتغشى قلبه غاشية من خوف وحزن ، ثم لا يلبث أن  
 يدفع ذلك عن نفسه ، ويمضى في منادمة قومه ، سمح الطبع ، كريم النفس  
 فصيح اللسان بأعذب الحديث . فلما تقدّم الليل واستوفى القوم حظهم  
 من السمر وهموا أن يتفرقوا ، كان عمرو قد استرد مكانه في قلوب  
 أصحابه جميعاً ، فيأبى شيبه بن ربيعة وعلى بن أمية بن خلف أن  
 يفارقه حتى يبلغاه داره . يقول لهما عمرو : « والله ما هذه لكما بطريق ،

وما تعودت منكما هذا الرفق ، وما أرى أن بي بأساً ، وما أحسب أن أحداً يرصدني في الطريق ، فانصرفا إلى أهلكما وصَلتكما رحمٌ . فيقولان له : « والله ما بك شيء مما ذكرت ، وما بنا رعاية لك أو إشفاق عليك من مكروه ، وإنما عدت إلى حسن سابقتك فينا ، فريد أن نعود إلى حسن عهدك بنا . ولا والله ما نصاحبك إيثاراً لك بصاحبتنا بل إيثاراً لأنفسنا بصاحبتك . ولو استطعنا لسمرنا معك إلى آخر الليل ، وإنما أنت صديق فقدناه ثم وجدناه » . ويمضون وفي نفس عمرو بن هشام شيء من الرضا والأمن ؛ فقد كان يكره أن يلتقى الشيخ وحده ، وما كان يشك في لقائه ، وفي نفسه شيء من الحياء فقد كان يكره أن يراه الشيخ مع صاحبيه فيظن به جبناً أو فرقاً . ومع ذلك فقد مضى مع صاحبيه يقول لهما ويسمع منهما كأن نفسه لم تكن تحدثه بشيء ، وكأن قلبه لم يكن يفرق من شيء . فلما بلغ المكان الذي لقي فيه الشيخ آخر النهار أبطأت قدماه شيئاً ومدَّ بصره ، فیری الشيخ قائماً ينتظره ويبتسم له ابتسامة فيها كثير من الرضا ، يراه وحده ولا يشك في أن صاحبيه لا يريان ما يرى . وآية ذلك أنهما لم يكفياً عما كانا فيه من حديث ، ولم يلتقيا بالآ إلى شيء لأنهما لم يحسباً شيئاً .

ويمضى القوم أمامهم والشيخ الأعرابي معهم يراه عمرو دون صاحبيه ، ويكاد يؤذن صاحبيه بمكانه ، ولكن شيئاً من حياء برده عن ذلك : فقد كان يخشى أن يظن به صاحباه الجنون . فما حديثه

إليهم عن شيخ يراه هو ولا يريانه هما ؛ وكيف به لو قص عليهما ما كان بينه وبين الشيخ آنفاً ؟ وكيف به لو حدثهما بأن الشيخ قد أنبأه بأن الأمور ستصفو بينه وبين أصحابه وأترابه ، وبأن عمه سيدعوه لزيارته بعدما كان بينهما من قطيعة ، وبأن هذا كله قد كان ! . ولكنه لا يحدث صاحبيه بشيء بل لا يظهر لهما أن شيئاً يدور بخلده غير ما يدور بينه وبينهما من حوار في أمر هذه القافلة التي ستفصل بعد يوم أو يومين ، والتي تحمل من الذهب والورق والعروض إلى بلاد الروم ما لم تحمله قافلة لقريش منذ أعوام ، والشيخ الأعرابي يرمق عمراً معجباً به عاطفاً عليه . حتى إذا بلغ القوم دار أبي الحكم حياً بعضهم بعضاً واتعدوا نادى قومهم في المسجد إذا كان الغد . وانصرف شيبة وعلى ، ودخل عمرو داره ، ولكنه لم يدخلها وحده وإنما دخلها معه الشيخ باسم الثغر مشرق الحيا يقول : « لا عدمتك بطلاً من أبطال قريش ! أشهد لقد أنجبت الحنظلية . لقد شهدتك بين قومك تجد ما تجد من الخوف ، وتنكر ما تنكر من الأمر ، لا يصرفك ذلك عن الحديث والمنادمة . ولقد شهدتك تحاول أن تخلص من صاحبيك لا إيثاراً ولا إسراعاً إلى ، ولكن إبقاء على نفسك أن أظن بك جبناً أو فرقا . ولقد قرأت ما كان يدور في نفسك من الخواطر حين لقيتني فأخفيت هذا كله لم يظهر أحد من دخيلة نفسك على شيء . وكذلك يجب أن يكون الرجل ، ولا سيما حين تهيئه الأيام لأمر جسام » .

قال عمرو ولم يجد في نفسه خوفاً ولا فرقاً ، ولم ينكر مكان هذا الشيخ منه : « ألا ترى أنك قد أثقلت عليّ منذ الليلة ؟ ألا تنبئني ما خطبك ؟ وماذا تريد مني ؟ ! » .

قال الشيخ : « لك أن تلقاني بما أحببت من رفق وغلظة ، ولك أن تحدثني بما شئت من لين القول وعنيفه ، فقد وطئت نفسي على أن أحتملك كما أنت ؛ لأن كل شيء فيك يروقي ويعجبني . وستعلم حين يتصل بينك وبينني الحديث ، أني لم أثقل عليك منذ الليلة ولن أثقل عليك إلى آخر الدهر » ثم ضرب على كتفه مبتسماً وهو يقول : « فسأكون صديقك وحليفك إلى آخر الدهر ، وستحمد مغبة هذه الصداقة وعواقب هذه الحلف ، ولكن ابتغ لنا مجلساً ، فما يحسن أن يطول بنا الحديث ونحن قائمان . هلمّ أبا الحكم ! لقد عهدتك جميل اللقاء للضيف ، تحسن قراه إن ألمّ بك ، فما لك لا تعرض عليّ طعاماً ولا شرباً ؟ بل ما لك لا تعرض عليّ مجلساً أستقر فيه ؟ إنك تريد أن أنتسب لك كما تعود الضيف أن يفعلوا حين يلحون بمن يضيفهم من الناس . وما يغنيك أن أنتسب لك وأنت لن تفهم عني نسبي إن عرضته عليك ؟ ! وهل تفهم عني إن قلت لك إنني ابن النار منها خرجت وإليها أعود إن كنت إليها عائداً لا أعرف لي غيرها أباً ولا أمّاً » .

قال عمرو بن هشام وفي صوته شيء من الاضطراب : « ما رأيت كالليلة شيخ سوء يتحدث بكلام لا غناء فيه ! ما ابن النار منها

خرجت وإليها تعود ؟ ! » .

قال الشيخ : « ومع ذلك فليس لي نسب غير هذا . لا تعجلُ على نفسك فإن لكل شيء إبانته . ابغ لنا مجلساً ، ولا تكلف نفسك القيرى فقد نام أهل الدار ، وما ينبغي أن توقظهم ولا أن تكلفهم قري ضيف لا يرونه ولا يسمعونه » .

قال عمرو : « فتظنهم لا يسمعوننا الآن ونحن نتحدث ؟ وهبهم لا يسمعون صوتك أذت ، أنتظهم لا يسمعون صوتي أنا ؟ وما تراهم يقولون حين يسمعونني أتحدث إلى شخص لا يرونه ولا يحسون مكانه ؟ » .

قال الشيخ وهو يضحك ضحكاً غريباً : « لا بأس عليك أبا الحكم ! إنهم لا يسمعونك ولا يسمعونني مهما يرتفع صوتانا . إنهم لا يعلمون أنك قد عدت من سمرقند ، ولن يعلموا ذلك حتى أنصرف عنك ، ولن ترى منك أم عكرمة إلا خيراً . ابغ لنا مجلساً ، فأما إن أبيت فأنحرف بنا إلى هذا المجلس عن يمينك من فناء الدار ، فقد نستطيع أن نطمئن فيه . واعجب إن كنت في حاجة إلى العجب ، فسأقدم إليك من القيرى ما لم تُرد أن تقدم إلى . إن معي زقاً من خمر الطائف فشاركني في شيء منه » . ثم أخذ بيده حتى أجلسه ، وأخرج زقاً صغيراً من وعاء كان يحمله على ظهره ، وأخرج قدحاً حين فصّب فيهما منه ، ثم قال للفتى : « هلم أبا الحكم ، فستحمد نشرة هذه الخمر » . ويحسو عمرو من القدح الذي قدم إليه فيقول : « لا والله ما شربت قط خمرأ كهذه الخمر ، إن لها لمذاقاً غريباً في

القيم ، ونكهة غريبة في الأنف ، وحرّاً غريباً في الجوف .

قال الشيخ : « ودُّ وِأَرَأَ غريباً في الرأس ، إنها خمر أبي مُرّة يا بني .

هذه هي الكنية التي ستعرفني بها منذ الآن . إذا أعيا عليك أمر من الأمور ، أو ضاق بك مسلك من المسالك ، أو وجدت من الناس غير ما تحب ، فادعُ حليفك أبا مرة ، فسيستجيب لك قبل أن يرتد إليك طرفك ، وسيفرّج عنك كل كربة ، وسيخرجك من كل ضيق . ولنأخذ الآن فيما أردتُ أن أتحدث إليك فيه ، لقد أتيتُ أمرين في هذه الأيام كرهتُ أحدهما أشد الكره ، ورضيت عن الآخر أشد الرضا . فأما الأمر الذي كرهته منك فخلافاً لقومك ، وخروجك عليهم ، وازدراؤك لما يقولون ويعملون ، واشتدادك على عمك في الحديث وقطيعتك له منذ اليوم ، كل هذا كرهته أشد الكره لأنك عماد قومك وموئلتهم وذخرهم الذي ادّخرَ لهم حين تُقبل الحوادث وإنها لحسام مفضعة . فعدّ إلى عمك فواصله ، وعد إلى قومك فارفق بهم . واردد نفسك عن جماعها ، وردد لسانك عن شططه ، ودع هذه السخرية مما عليه قومك فإنه قوتهم ، ولو قد انحرفوا عنه قليلاً لتخطّفهم الناس . ولو قد تخطّفهم الناس لهلكت العرب ! فقريش رِدْؤُهُم وكهفهم الذي إليه يأوون . وأما الأمر الذي أحببته منك أشد الحب ، فبغضك لابن عبد المطلب هذا الذي يسميه قومك الأمين ضعفاً منهم وخرقاً ، وإنه لهم لمصدر البلاء كل البلاء والشر كل الشر والمحنة كل المحنة .

قال عمرو في شيء من الحدة : « إليك عنى ! فوالله ما أحببت من نفسى هذه الحصلة ، وما أرى إلا أنى ظالم لابن عبد المطلب . حاسبت نفسى منذ قلت تلك المقالة فى دار شيبه فما حمدت حسابها . إن ابن عبد المطلب ليصل الرحم ويصدق الحديث ويرفق بالضعيف ويرحم الرقيق ، وإنه لمؤمن فى قومه على الهين والعظيم من أمرهم ، وإنى لأجد فى نفسى الحسد له ، وليس الحسد من أخلاق الرجل الكريم . وإنى لأروض نفسى منذ ذلك اليوم على أن أعود على ابن عبد المطلب بالعافية وأمنحه مودتى وبرى ، ولكنى لا أجد إلى ذلك سبيلا ، فيسوءنى من نفسى هذا الضعف ، وهذا هو الذى أفسد خلقى منذ أيام » .

قال الشيخ وهو يقدم القدح إلى عمرو : « اشرب أبا الحكم ودع عنك هذه الخواطر ! فلقد صدقتك نفسك حين حملتك على بغض هذا الرجل . ولئن حمدت فىك شيئاً فإنما أحمد فىك هذا البغض العنيف ، هذا البغض الذى لا يبنى ولا يذر ، هذا البغض الذى لا يعرف رحمة ولا هواة ولا ليناً ولا أناة . وإن هذا البغض على عنفه وشدته لقليل بالقياس إلى ابن عبد المطلب » .

قال عمرو : « أبينك وبينه دم ؟ ! » .

قال الشيخ : « ليس بينى وبينه شيء ، وإنما الشر كل الشر بينك أنت وبينه . أتذكر حين زحمتك عند ابن جده عان ؟ إن ذلك لم يكن إلا رمزاً لما سيكون بينك وبينه من خصام لا يجده إلا الموت . إنك لا تعرف من أمر ابن عبد المطلب شيئاً . إنك ترى قومك يكرمونه



والشر كل الشر في إكرامهم له . إنه يدبر لهم من الأمر ما سينغصص عليهم أيامهم ، ويورق عليهم لياليهم ، ويكدّر عليهم صفو الحياة أتذكر حديث نسطاس حين أنبأك بأن سيكون للسماء خبر ؟ فإن ابن عبد المطلب هو الذى سيحمل إليكم خبر السماء . أتذكر ثورة ورقة بن نوفل حين أنبأته بحديث نسطاس ؟ فإن ورقة يزعم من ذلك مثل ما يزعم نسطاس . ثم قدّم القدح إلى الفتى وهو يقول : « اشرب أبا الحكم ! إنك لمتناقل على الشراب منذ الليلة » . فيشرب عمرو ويقول للشيخ : « ويلك ! والله ما أدري أخيراً تسقيني أم ناراً ؟ ! » . فيجيبه الشيخ : « لست أسقيك خمراً ولست أسقيك ناراً أبا الحكم ، وإنما أسقيك بغضاً لابن عبد المطلب لو سلط البحر عليه ما أطفأه . لقد رحّت إلى نسطاس من يومك ذاك فلم تجده ، ورحت إلى ورقة فاعتلّ عليك يزعم أنه سقيم . أتريد أن تعرف ما كنت تجهل من أمر نسطاس ؟ فإنه قد خلا إلى ابن نوفل ساعات من نهار ، ثم انصرف عنه إلى بلاد الروم ينيّ جماعة تلك التى حدثتلك عنها بأن النبي الذى كانوا ينتظرونه قد ظهر ، وبأن ابن عبد المطلب هو هذا النبي . وكره ورقة أن يلقاك حين رحّت إليه ، وسيكره لقاءك كلما حاولت أن تلقاه ؛ لأنه يكره أن يتحدث إليك من أمر ابن عبد المطلب بقليل أو كثير ، فلم يؤذن له بعدُ فى الحديث عن هذا الأمر » . قال عمرو وقد أدركه دهش كاد يخرججه عن طوره : « ومن الذى يستطيع أن يأذن لورقة أو لا يأذن له ؟ » .

قال الشيخ : « ما أدري ! ولكن أمر ابن عبد المطلب سيظل سرّاً خفياً حيناً من الدهر ، لا يباديكم به ولكنه يهبي لكم في أثناء ذلك شر ما تكرهون » .

قال عمرو : « ماذا يهبي لنا ؟ » . قال الشيخ وهو يقدم القدح إلى الفتى : « تريد أن تعرف ماذا يهبي لكم ؟ سيُلقى في قلوب الذين يتبعونه أن لهم إلهاً غير آلهتكم لا يراه أحد ولا يحسه أحد وهو مع ذلك في كل مكان وفي كل قلب . وسيلقى إليهم أن آلهتكم كلها باطل من الباطل لا تملك لنفسها ولا لكم خيراً ولا شراً » .

قال عمرو : « والله ما أكره من ذلك شيئاً » . قال الشيخ « وسيلقى إليهم أن ليس بين الناس قوى ولا ضعيف ، وأن ليس بينهم شريف ولا وضعيع ، وأن ليس بينهم سيد ولا مسود ، وأنهم جميعاً سواء كأسنان المشط قد خلقتوا من التراب وإلى التراب يعودون ، وأن ما بينهم من اختلاف المنازل وتفاوت المراتب وتباين الطبقات ظلم يجب أن يرفع وباطل يجب أن يزال » .

قال عمرو : « إني لأرى في هذا شيئاً من حق ، ولكن نفسي تكرهه وتنبو عنه » .

قال الشيخ وهو يقدم إليه القدح : « اشرب أبا الحكم ! فلا بد من أن نستنفد ما في الزق » . ثم استأنف حديثه فقال : « سيلقى إليهم أن الناس جميعاً سواء لا يتفاوتون في الدنيا وإنما يتفاوتون في الآخرة بما يقدمون بين أيديهم من العمل ، فمن عمل صالحاً فله جنة لا أدري

ما هي ، ومن عمل سيئاً فله نار لا أدري ما هي . قال عمرو وقد رفع القدح إلى فمه فشرب منه : « وما الآخرة هذه التي تحدثني عنها ؟ » .

قال الشيخ وهو يصب في القدح ليملاه : « حياة يزعم ابن عبد المطلب أنها كائنة بعد الموت ، وأنها لا آخر لها » .

قال عمرو وقد عب في القدح عباً شديداً ، وقدحت عيناه شيئاً كأنه الشرر ، وغشيتي وجهه شيء كأنه اللهب ، وانبعث من فمه ضحك قبيح : « حياة بعد الموت لا آخر لها ! أهلم أبا مرة اسقني من خمرك هذه التي كأنها النار ، أو من نارك هذه التي كأنها الخمر . حياة بعد الموت لا آخر لها ! لن تخرج بزقك وفيه قطرة من شراب . حياة بعد الموت لا آخر لها ! حياة بعد أن نصبح تراباً تذروه الريح ! » .

قال الشيخ وهو يصب في القدح ليملاه : « اشرب أبا الحكم فإنك لا تشرب خمرأ ولا نارأ ، وإنما تشرب بغضاً مذابأ . فأما في حياتكم هذه الأولى فأنتم وعبيدكم وإماؤكم سواء ، ليس لكم عليهم فضل . وأما في حياتكم تلك الثانية فقد تلقون أنتم في النار تُصهَرُ جلودكم وتُحرق وجوهكم ، ويدخل عبيدكم وإماؤكم الجنة ينعمون فيها بالطيبات وأنتم ترون ! تستسقونهم قطرة من ماء فلا يجودون بها عليكم لأنكم نعمتم في حياتكم الأولى ، فيجب أن تشقوا وتبتسوا في حياتكم الآخرة ، ولأنهم شقوا وابتأسوا في حياتهم الأولى فيجب أن ينعموا ويبتهجوا في حياتهم الآخرة . توشك أن تسمع ذلك أبا الحكم ممن

في دارك ودار أصحابك من الرقيق» .

قال عمرو : « وإن محمداً ليقول هذا للناس ؟ ! » .

قال الشيخ : « نعم ! إنه ليقول هذا للناس ، وإن الناس ليسمعون منه ويؤمنون له ويكثرون من حوله . وإن شئت فاغدُ إلى ابن أبي قحافة فسَله عن ذلك ، وإن شئت فاغدُ إلى زيد بن محمد فسَله عن ذلك ، وإن شئت فاغدُ إلى هذا الصبيّ عليّ بن أبي طالب فسَله عن ذلك ، فسيتبثونك جميعاً بأكثر مما أنبأتك به » .

قال عمرو : « ومن أين لمحمد هذا الحديث ؟ » .

قال الشيخ في صوت يضطرب اضطراباً فيه الغيظ والخوف معاً : « يزعم أن هذا الحديث يأتيه من السماء ، ينزل عليه به الملك فيُلقيه إليه في كلام غريب ، يشبه الشعر وما هو بالشعر ، ويشبه السجع وما هو بالسجع » . قال عمرو : « فاقرأ عليّ بعضه » . ولم يكده الشيخ يسمع هذه الكلمة من عمرو حتى تضاعل وتضاعل ، وارتدّ وجهه وأخذته رعدة منكّرة ، وقال في صوت مضطرب بلسان لا يكاد يُبين : « كلا ! كلا ! لا تطلب إلى ذلك ، فما ينبغي لي أن أقرأه » .

قال عمرو : « ويلك ! ماذا أصابك ؟ » .

قال الشيخ : « دعني ! دعني ! واشرب حتى تُفرغ ما في هذا القدرح ؛ فقد أعلمتك من أمر ابن عبد المطلب ما كان ينبغي أن تعلم ، وما زلت تجهل أكثره ؛ لأن أمر ابن عبد المطلب لم يتجاوز أوائله بعد » .

قال عمرو : « وهل تنزل الملائكة من السماء وتُلقى إلى الناس أخبارها ؟ » .

قال الشيخ : « محمد يزعم ذلك ، ويزعمه كذلك نسطاس وورقة ابن نوفل ، ومن قبلهم زعمه أهل الكتاب » .

قال عمرو وهو يعبّ في القدح عبّاً شديداً : « وما بال السماء لم تختار لأمرها غير محمد ؟ ! أليس في قريش إلا محمد ! » .

قال الشيخ وهو يبتسم ابتسامة منكورة : « كلا ! ليس في قريش غير محمد ، ليس فيها الوليد ابن المغيرة ، وليس فيها أمية بن خلف ، وليس فيها عتبة بن ربيعة ولا شيبه بن ربيعة ، وليس فيها أبو الحكم عمرو بن هشام فتي مخزوم وسيدها ! » .

قال عمرو وقد ظهر في وجهه غيظ شديد : « أمّا إذ قلت ذلك فإن مخزوماً كلها لتبغض هاشمياً كلها ، وقد كنت أنقم من بني أمية تكلفهم وأنفس عليهم جيداً هم في تجارة قريش وحرصهم على سيادتها ، فأما الآن فلا والله ما أبغض أحداً كما أبغض بني هاشم ، ولا أجد من الضغن على أحد كما أجد على فتاهم هذا الذي يسمونه الأمين ! ! » .

قال الشيخ في صوت فاتر متكسر : « هوّن عليك أبا الحكم ! فإنك لم تَبْلُ من بغض هؤلاء الناس إلا أهونه وأيسره ، ولتبلغن العداوة بينك وبينهم أقصاها . فإذا بلغت ذلك فاذاً أن صديقك أبا مرة ليس منك ببعيد ، وأن زقه ما زال رويّاً يسباً للذات في كل يوم ، كما قال امرؤ القيس » . ثم سكت قليلاً ثم استأنف حديثه

في صوت ضئيل : « قد أوشك الليل أن ينتقضى أبا الحكم ، وأذن الصبح بإسفاره ، فعدُّ إلى أهلك فقد شققنا عليهم ، ولكنهم لم يعلموا من سهرنا ولا من سمرنا شيئاً » .

قال عمرو : « لم يعلموا من سهرنا ولا من سمرنا شيئاً ! اسقني أبا مرة ! فقد حرمت على النوم من ليلتي هذه » . ولكن أبا مرة لم يسقه ولم يجبه . وينظر عمرو فلا يرى أحداً ، فينهض متثاقلاً وهو يقول : « لم يعلموا من سهرنا ولا من سمرنا شيئاً ! » .

وأصبحت قريش فاجتمعت في أنديتها حول البيت كدأبها في كل يوم . ولأنهم لقي أحاديثهم وإذا قائل منهم يقول : « انظروا يا معشر قريش هذا والله العجب » . فينظرون فلا يروعهم إلا الوليد بن المغيرة قد أقبل يتوكأ على ابن أخيه عمرو بن هشام باسمأ له متحدثاً إليه . يقول بعض قريش لبعض : والله إن للوليد بن المغيرة لشأناً ، ما علمناه إلا عنيف الغضب إذا غضب ، بطيء الرضا إذا رضى ، عنيداً إذا خاصم ، وما علمنا ابن أخيه عمراً إلا مثله أنفة وكبرياء ، وقد باعد بينهما ما رأينا وسمعنا من ذلك الخلاف والحوار ، حتى قال الوليد لابن أخيه إنه ابن سوء ، فماذا قرّب بينهما ؟ وأيهما سعى إلى صاحبه ؟ قال شيبه بن ربيعة : « ما أحسب إلا أن الشيخ هو الذى تقرّب إلى ابن أخيه ، وقد رأيت أحد غلماناه يُلمّ بنا في بعض مجالسنا فيلقى في أذن أبي الحكم حديثاً قصيراً ثم ينصرف » .

وكانت قريش تتحدث بهذه الألفة بين الرجلين على حين كان الوليد وابن أخيه يطوفان بالبيت . وكان الوليد يطوف كما تعود غير آبه ولا مكترث ، وإنما هو عبء يُلقى عن نفسه كعادة الملاء من قريش

إذا غدوا على أنديتهم بالمسجد من كل يوم . ولكن عمراً كان يطوف في هيئة لفتت إليه أشراف قومه ، فيها كثير من الاجتهاد والاحتفال ، وفيها كثير من التواضع والتضائل ، وقد ظهر على وجه الفتى شيء من الإيمان بما كان يفعل والصدق فيه ، حتى قال بعض قريش لبعض : « والله لقد دعا أبو الحكم إلى سنة قومه واجتهد فيها ، وما نرى إلا أن قد ذهب عنه ما ألفنا عنده من السخرية بكل شيء والازدراء لكل شيء » .

حتى إذا فرغ الرجلان من طوافهما أقبلتا فسلما وجلسا ، ولم يجرؤ أحد أن يدخل فيما كان بينهما من نفور ، وفيما استأنفا من تواصل ومودة ، وإنما أخذوا في المألوف من أحاديثهما كأن لم يكن بينهما شيء . حتى أقبل النضر بن الحارث مهرولاً ، فطاف بالبيت عجلًا أشد العجلة ، حتى لاحظ المأل ذلك ، فقال بعضهم لبعض : إن للنضر اليوم لحديثاً يريد أن يُلقيه إلينا ، ألا ترونه يعجل بطوافه أشد العجلة ! وقد كان للنضر حديث يريد أن يُلقيه إليهم حقًا ، فما كاد يفرغ من طوافه حتى أقبل إليهم مسرعاً ، فسلم وأخذ مجلسه . وابتداه عمرو بن هشام قائلاً في دعابة حلوة : « ما وراءك يا نضر ؟ هات فوالله إن لديك حديثاً تريد أن تلقيه إلينا » .

قال النضر : « وأي حديث ! ألم تعلموا أن قد حدث لبنى عبد المطلب شأن ؟ ! » . قال الوليد : « وما ذاك ؟ » . قال النضر وهو يضحك : « ظهر فيهم نبيّ هذه الأمة يتلقى أخبار السماء فيبلغها



إلى الناس . قال عمرو بن هشام مسرعاً : « وهذا النبي هو محمد ؟ ! » .  
قال النضر : « هو محمد والله ! لقد كنا نعجب لما كان يُروى لنا  
من أخبار عبد المطلب حين أمير في المنام أن يحتفر زمزم وحين خاصم  
قومه فيها ففُجِّر له الماء تفجيراً ، وحين قام مقامه من صاحب القبيل ،  
وحين فادى بابنه ذاك فداءه المعروف . والله لقد كنا نعجبُ  
لما كان الناس يحدثوننا به من أمر حفيده محمد بن عبد الله ذلك  
الذي فودى به فلم يمهل الموت في مكة إلا ليلدركه في يثرب مُنصرفه  
من الشام ؛ فقد كانوا يحدثوننا عن هذا الفتي بالعجب من الحديث  
حين كان صبيّاً يُنشأ ، وحين كان غلاماً يشب ، وحين كان فتي  
يستكمل رجولته وقوته ، ولقد كنا نحبه ونكرمه ونؤثره بخير ما عندنا  
من المودة والمعروف ، حتى سميناها الأمين ورجعنا إليه في كل ما  
كان يحزُبنا من الأمر . وما أرى إلا أننا قد أغريناه وأبظرناه ،  
فهو الآن يستأنف سيرة جده عبد المطلب ولا يدعُ الناس يتحدثون  
عنه بالأعاجيب ، بل يتحدث هو بها عن نفسه ، فيزعم أن الملائكة  
تتنزل عليه بأحاديث السماء ، وأنه قد أمير أن يبلغ هذه الأحاديث  
إلى الناس ويدعوهم إلى بدعٍ من الأمر والله ما سمعنا به في آبائنا  
الأولين . »

قال عمرو بن هشام وقد ظهر في وجهه غيظ شديد : « إيه ! وربّ  
هذه البنية<sup>(١)</sup> لقد أغريتموه وأبظرتموه . وما أكثر من تُغرون ومن

(١) البنية: الكعبة

تُبطرون ! وما أرى إلا أنكم ستلقون من هذا كله شططاً . أفلم  
أكن أحدثكم منذ أيام يا شيبه بن ربيعة بأمر نسطاس وأمثاله من  
هؤلاء الأعاجم الذين تمدون لهم أسباب العيش ، وتيسرون لهم ما  
تعسرون على غيرهم من العرب ؟ ! ألم أكن أذكر لكم أن هؤلاء الأعاجم  
ما هم إلا عيون قيصر علينا ، يفتدون علينا تجاراً ، ويقيمون بين  
أظهيرنا أحراراً ، يقولون لنا ويسمعون منا ، ويذيعون فينا البدع ،  
ويكيدون لنا الكيد ، ثم ينصرفون عنا وقد أخذوا من أموالنا ما أرادوا ،  
وعلموا من أمرنا ما أحبوا ، وأذاعوا فينا من مذاهبهم وآرائهم ما لا عهد  
لنا به ؟ ! فهؤلاء هم الذين أفسدوا علينا زيد بن عمرو ، وورقة بن نوفل  
وغيرهما من كرام قومنا . وما محمد إلا أحد هؤلاء .

قال الوليد بن المغيرة : « على رسلك يا بن أخي ! إنك لمجتهد في  
النعي على هؤلاء الروم ، ولقد كنت أشدنا لهم معاشرة ، وأكثرنا لهم  
مخالطة . ولقد نهيتك عنهم وعن نسطاس منهم خاصة ، فلم أكن أرى  
منك إلا نايأ وازوراراً . ولا والله ما أعلم أن محمداً كان يختلف إلى  
نسطاس أو إلى أشباه نسطاس ، كما كنتم تختلفون إليه وكما تختلفون  
إلى أمثاله من تجار الروم ، وما علمت من أمره إلا خيراً . إنه لأفضل  
قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم جواراً ،  
وأعظمهم حلماً وأمانة ، وأصدقهم حديثاً ، وأبعدهم من الفحش  
والأذى ، وما رُئي ملاحياً ولا ممارياً أحداً ، حتى سميناها الأمين لما  
تبينا فيه هذه الخصال . فإن كان قد جاء بما يحدثنا النضر أنه قد جاء

به ، فلا أحب أن أعجلَ في أمره . وما أظن أنه يريد أن يُدخل على قومه سوءاً . وإنه لأبرّ الناس بقومه ، وأوصلهم رحماً ، وأقربهم لهم مودة ، فاستبينوا أمره قبل أن تقولوا فيه بما لا تعلمون .

قال عتبة بن ربيعة : « وكيف علمت ما علمت من أمره يا نصر ؟ » .  
قال النصر : « علمت ذلك من بعض الذين صبّوا إليه واستجابوا له . ألم يحدثني أخو جُمَح عثمان بن مظعون أنه قد جلس إليه ، فبينما هو جالس معه إذ رآه يرفع رأسه إلى السماء ثم ينحرف عنه ساعة ثم يعود إليه . فلما أنكر عليه ذلك قال له : إن الملك قد نزل على من السماء فأوحى إلى أمر الله . فلما سأله عن أمر الله هذا ، تلا هذا الكلام الذي حفظه عثمان واستجاب له ، وحفظته أنا ولم أستجب له ، ولكن في نفسي منه شيئاً » .

قال عمرو بن هشام ، وقد ذكر في سرعة غريبة أن صاحبه أبا مرة لم يستطع أن يتلو عليه شيئاً مما كان يوحى إلى محمد ، وإنما عجز عن ذلك وتضائل له وأدركه منه رعب شديد - قال عمرو بن هشام : « فاقراً علينا يا نصر ما سمعت وحفظت » . فتلا النصر هذه الآية : ( إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ) . قال الوليد وقد سمع القوم فأعجبوا وأطرقوا برءوسهم إلى الأرض : « صدق والله محمد وبر . أقسم ما جاء قومه إلا بخير . ماذا تنكرون من هذا ؟ وهل فينا من لا يحب العدل والإحسان ! وهل فينا من يكره إيتاء ذى

القربى ! وهل فينا من يحب الفحشاء والبغى ! ! أما والله لو جاء محمد قومه بمثل هذا دائماً لكان أعطف قومه عليهم وأرأفهم بهم وأهداهم إلى سبيل الخير .

قال عمرو بن هشام في شيء من الحدة يريد أن يكظمه :  
« ويحك يا عم ! لقد كنت تأمرنا آنفاً ألا نعجل في أمر محمد حتى نستبينه ، فإني أراك تعجل في أمره قبل أن تستبينه ! إنك لم تسمع من أمره إلا ما حدثنا به النضر ، ولو قد سمعت من أمره ما سمعت أنا لقلت فيه غير ما تقول الآن » .

قال الوليد : « ماذا سمعت يا بن أخي ؟ » . قال عمرو : « سمعت أنه جاء بما يفرق به بين المرء وزوجه ، وما يفرق به بين الأب وابنه ، وما يفرق به بين المرء وأخيه ، جاء بالمساواة بين السيد والعبد ، وبين القوى والضعيف ، وبين الغنى والمعدم ، بل جاء بما يُلقى في روع الضعفاء والأذلة من الناس أنهم خير من ساداتهم وأرفع منهم عند الله مكاناً ، بل جاء بما يُلقى في روع الناس أن ليس لهم إلا إله واحد يجب أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وأن آلهتنا هؤلاء الذين هم وسطاؤنا عند الله باطل لا يملكون لأنفسهم ولا يملكون لنا نفعاً ولا ضراً . أفيعجبك هذا يا عم ؟ ! » .  
قال الوليد وقد ملكه رعب شديد شاع في غيره من الملأ وقد رفع يديه فجعلهما أمام وجهه كأنما يحتمى بهما من هول ما سمع : « أما هذا فلا » يقولها ثلاثاً ، ويقولها الملأ معه كلما قالها .

قال النضر : « فرّوا رأيكم يا معشر قريش ! فقد جاءكم ابن

عبد المطلب بأمر عظيم .

قال عمرو بن هشام . « وأى رأى تريد أن نرى ؟ إنه والله الهول ، فإن لم نغلبه غلبنا . والله لناخذنّ عليه الطريق ، ولنسدنّ عليه المسالك ، ولنحمينّ منه دين قريش وسلطانها وسيادتها على العرب » .

قال الوليد : « هو ذاك يابن أخي ، ولكن لا تعجلوا على صاحبكم وانتظروا به حتى يبين لكم أمره جلياً » .

قال عمرو : « ننتظر به حتى يفسد علينا أمرنا ، وحتى نحاول الإصلاح فلا نجد إليه سبيلاً ! لا والله لا نظيرةَ ولا إمهال ، وإنما هو السعى والاستقصاء منذ الآن ، والسؤال عن أمر محمد عند من عرفه من قريب ومن عرفه من بعيد ، ومن يلوذ به من أتباعه إن كان له أتباع ، ومن يحفُّ به من بنى هاشم » .

قال القوم في صوت رجل واحد : « هذا والله الرأى يا أبا الحكم لا أرى غيره ، لنسعينّ ولنستقصينّ ، ولنسألنّ عن أمر محمد القريب والبعيد » .  
وتفرّق القوم وفي صدر كل واحد منهم همّ ثقيل . ولا يكاد عمرو بن هشام يبعد عن المسجد قليلاً حتى يرى حليفه ذاك الأعرابي فجأة ، لا يدري أنجمَ له من الأرض أم هبط عليه من الجوّ ، ولكنه يراه قد وضع يده على كتفه وهو يقول : « وريّت<sup>(١)</sup> بك زنادى ؟ لقد سُدتّ قومك وملكت أمرهم ، فلن يخالفوك في شيء منذ اليوم » .

(١) ورت الزناد ووريت : انتقدت وخرجت نارها . وتقول لمن أعانك ونصرك :

« وريت بك زنادى » .

وأقام رسول الله في قومه دهرًا لا يعرض لهم بشيء يكرهونه ، ولا يلقونه بشيء ينكره ، وإنما يدعوهم إلى كلمة الحق ، ويذيع فيهم البر والمعروف ، ولا يجلس إلى أحد منهم إلا قال له خيراً أو دعاه إلى خير ، وقريش ترى منه ذلك ، فتحمد حبه للعافية ، وسعيه بالخير ، ولقائه للناس بما يرضون . وقريش تسمع دعوته إلى الله ، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، فيستجيب له من أشرافها القليلون ، ويستجيب له الكثيرون من الفقراء والمستضعفين وأهل البؤس والضر . وهو يسوى بين أولئك وهؤلاء في حبه لهم وبره بهم وعطفه عليهم ، لا يفرق منهم بين الغني والفقير ولا بين ذى النفر والقوة ومن لا عون له ولا ظهير ، إنما هم جميعاً إخوانه وأبناؤه ، قد أحبهم في الله والخير ، وأحبوه في الله والخير . والملا من قریش يرون ذلك فيعرفون بعضه وينكرون بعضه : يعرفون دعوته إلى البر والمعروف ، وسعيه بين الناس بالخير ، ويعرفون أنه لا يؤذيهم ولا يريدهم بسوء ، ولكنهم ينكرون إثاره للصغار والبائسين وتتبعه لهم بالود والبر والتكرمة ، ويقول بعضهم لبعض : لئن اتصل هذا من محمد لَيُفسِدُنَا علينا الناس ، ولَيَطمِئِنَّا فينا ضعفاءهم ،

ولِيُصْبِحُنَا أَحَدُنَا فَإِذَا عبيده وإماؤه وأتباعه ومواليه يطلبون إليه أن يلقاهم من الخير والبر والمساواة بمثل ما يلقاهم به محمد ، ويومئذ لا يستقيم لقريش أمر . ثم يقول بعضهم لبعض : ولكن محمداً لم يَبْغِكُمْ شَرًّا ، ولم يقدم إليكم مساءة في عادة أو دين ، إنما هو يأتي المسجد كما تأتونه ، ويطوف بالبيت كما تطوفون به ، ويسعى في أمره كما تسعون في أموركم ، ولكن له مع ربه ومع الناس مذاهب لا تذهبونها ، وسيرة لا تسيرونها ، فلا سبيل لكم عليه حتى يباديكم بما تكرهون . فيغيظ ذلك منهم عمرو بن هشام ويلقاهم بالشدة والحدة والمنكر من القول ، يقول : « والله يا معشر قريش إنه للعجز ، وإنكم لتخافون من ظلالكم . إنكم لتكرهون من محمد مثل ما أكره ، ولكنكم تخافون أن تُبادوه بما في نفوسكم فيباديكم بما في نفسه ، فيظهر الشر بينكم وبينه ، ويغضب له بنو هاشم وبنو عبد مناف ، فتكون الحرب . وما عرفت أبغض منكم للحرب ، ولا أشد منكم لها تهيباً ومنها إشفاقاً » . يقول قومه : « لا تجهل أبا الحكم ! فما عرفناك جهولاً ، وما علمنا أن بينك وبين محمد شراً » . فيجيب : « واللوات والعزى ما أنا بالجهول ! ولقد أسرفت على نفسي كما أسرفت على أنفسكم في الحلم ، وإن بيني وبين محمد للشر كل الشر ، وإن بينكم وبينه للشر كل الشر ، ولكني أرى ما لا ترون ، وأعلم ما لا تعلمون » .

فيضحك عمه الوليد بن المغيرة ويقول : « ويح قريش من هذين الفتيتين ! أحدهما يأتيها بأخبار السماء ، والآخر يرى ما لا ترى ويعلم

ما لا تعلم . والله ما أدري ماذا ألمّ بهذا الحرم وقد كان آمناً ! »  
 وفي ذات يوم امتلأت مكة بحديث كان له في قلوب الناس جميعاً  
 وقع غريب ؛ فقد تحدثوا أن رسول الله خرج من صمته ودعا إليه  
 أشراف قريش ، فلما اجتمعوا إليه عرض عليهم ديناً جديداً فيه التوحيد ،  
 ووعدهم إن سمعوا له واستجابوا لدعوته أن يكون لهم شرف الدنيا والآخرة ،  
 وأنذرهم إن أبوا عليه وأعرضوا عن دعوته أن يستقبلوا عذاباً مبيهاً  
 مهيناً يلقون صدراً منه في حياتهم الأولى ، ثم يخلدون فيه بعد  
 الموت إلى غير غاية ولا أمد . وتحدثت قريش بأن عمه أبا لُب  
 كان أول من ردّ عليه فكذب به وآذاه ، وتفرّق الناس عنه ولم يقل له  
 أحد غير عمه شيئاً .

تحدثت بذلك قريش نهارها كله وشرطاً من ليلها ، ثم أصبحت  
 فتحدثت به ، ثم أمست فخاضت فيه ، ثم جعلت لا تصبح ولا تمشي  
 إلا كان محمد لها حديثاً . وجعل عمرو بن هشام يُلمّ بأندية قريش في  
 المسجد وبمجالسهم في الدّور والمتاجر ، ويخرج إلى الظواهر فيلمّ  
 بأندية البادين منهم ، يقول لأولئك وهؤلاء : « أترون يا معشر قريش  
 إلى محمد وقد ألقى القناع ، ودعاكم جهرةً إلى ما كان يدعوكم إليه  
 سراً ؟ ! وإني أحلف باللات والعزى لو أخفتموه حين كان يذيع  
 مقاله فيكم خفية لما اجترأ على أن يفجأ الملائمكم بما فجأكم به ،  
 فخذوا حذركم وروا رأيكم ، واجتهدوا لأنفسكم . فكأنى بمحمد  
 قد أفسد عليكم ضعاف الناس في مكة ، وكأنى به قد أفسد عليكم



العرب وأغراهم بكم وأطمعهم فيكم . وإيتم الله لستقتلن محمداً أو  
لستقتلنكم جميعاً .

فيجيبه أشرف الناس وذوو الأسنان والمكانة فيهم :  
« إن ما تقوله لحق يا أبا الحكم ، ولكن الأمور لا تؤتى بهذا العنف  
ولا تعالج بهذه العجلة . إن لمحمد فينا مكانة وشرفاً ، وإن له من قومه  
لعزاً ومنعة ، وإن لبني هاشم وبني عبد مناف لبأساً وقوة ، فما ينبغي  
أن نعرض لمحمد بمكروه حتى نعدر فيه ، وما نحب أن تسفك قريش  
دماءها بأيديها ، وإنما ندعو محمداً فنقول له ونسمع منه لعلنا  
نصرفه عن هذا الذي هو ماض فيه ، فإن لم يقبل منا رأينا فيه رأينا » .  
فيرفع عمرو بن هشام كتفيه ساخراً ، ويهز رأسه مستهزئاً ويقول :  
« شيوخ قريش وذوو الأسنان والأحلام فيها ! ويل لقريش من  
الأسنان والأحلام ! » . فلما أكثر من ذلك وأثقل على عمه الوليد  
وعلى مشيخة قريش قال له عمه : « على رسلك يا ابن أخي ! إنك  
لتتمادى في الجهل من يوم إلى يوم ، وإن وجهك هذا الرائع ،  
ولسانك هذا الذرب الفصيح لن يغنيا عن قريش شيئاً إذا قطعت  
أرحامها وسفكت دماءها ، ولم ترع لهذا البيت مكانه ، ولا لهذا  
الحرم حقه » .

ثم اجتمع الملاء من قريش فدعوا رسول الله إليهم ، فلما جاءهم  
قالوا له فأكثروا القول ، عرضوا عليه المال فرد عليهم المال ، وعرضوا  
عليه الشرف والسيادة فرد عليهم الشرف والسيادة ، وعرضوا عليه

الملك والسلطان فرد عليهم الملك والسلطان ، وعرضوا عليه الطب إن كان مريضاً فرد عليهم الطب وقال : ما أنا بمريض . ثم قال لهم رسول الله فدعاهم إلى الله ، وحجب إليهم الخير ، وزين لهم البر ، وبين لهم أن آلتهم لا تغني عنهم من الله شيئاً ، ووعدهم شرف الدنيا والآخرة إن صدقوه ، وأنذرهم خزي الدنيا والآخرة إن كذبوه ، ففترقوا عنه ولم يظفروا منه بشيء ، ولم يظفر منهم بشيء ، ولكنهم انصرفوا عنه وفي قلوبهم من الخوف والفرق ما لا يكادون يخفونه ، وانصرف عنهم وفي نفسه من الثقة واليقين ما يملأ قلبه إيماناً وتشبيهاً .

واستأنف عمرو بن هشام سعيه فيهم وإلحاحه عليهم ، يغيرهم بمحمد مجتمعين ، ويغيرهم به متفرقين ، يسعى إليهم في أنديةهم ويكلمهم في بيوتهم ، فيناجيهم في بغض محمد ويخونهم منه ويؤلبهم عليه . وأبو مرة من ورائه يقويه ويشد أزره ، ويساقيه البغض والحسد لمحمد حين يخلوان إذا تقدم الليل . حتى زار ذات يوم أمية بن خلف فرآه محزوناً مكروباً ، قال : « ويحك أبا علي ! إني لأراك كاسف البال كئيب النفس » .

قال أمية : « إن كنت لصادقاً يا أبا الحكم في كل ما خوفتنا من محمد وما صورت لنا من أمره » .

قال عمرو وهو يبتسم : « وما ذاك يا أبا علي ؟ » . قال أمية : « لقد دخل بيتي من محمد شر » . قال عمرو وهو يضحك : « أو أصابك الغيث ؟ » . قال : « نعم ! هذا عبد من عبيدي بلال » .

ابن رباح تابع محمداً ، فهو يصلي كما يصلي محمد ، ويدعو بدعوته  
ويعتلّ عليّ فيما لم يكن يعتلّ عليّ في مثله من قبل ، ويوشك أن  
يُفسد عليّ رقيقى كلهم إن استأنيت به .

قال عمرو : « ولم تستأنى به ؟ » . قال أمية : « إنها الرحمة  
والبقيا يا أبا الحكم ، فما تعودت قتل الرقيق . وإنى لأرجو أن أستصلحه  
فيعود عليّ منه نفع » .

قال عمرو : « لا تقتله ولكن عذّبه حتى يثوبَ إلى ما تحب ،  
وحتى يكون مثلاً لغيره من غلمانك وإمائك ومواليك » .

ومنذ ذلك اليوم بدأت محنة بلال رحمه الله ، فسامه أمية من  
العذاب ألواناً وألواناً ، وكان يأتي به في اليوم القائظ وقد أجاعه وأظماه  
حتى يكاد يهلك فيلقيه على الأرض قد قيد وشدّت يده إلى ظهره ،  
ويعمد إلى الحجر الضخم الثقيل فيضعه على صدره ويقول : لستهلكنّ  
أو لسترفضنّ ما تابعت محمداً عليه ؛ فلا يزيد بلالٌ عليّ أن يقول :  
« أحدٌ ! أحدٌ ! » . حتى مر أبو بكر رحمه الله بأمية ذات يوم  
وهو يصنع ببلال ذلك ، فرقّ أبو بكر ، وكان رقيقاً ، ونهى أمية  
فلم ينته ، فاشتري بلالاً وأعتقه . وسنّ أبو بكر رحمه الله هذه السنّة .  
فكان بينه وبين عمرو بن هشام صراع رائع حقّاً ، يغرى عمرو بن  
هشام سادة قريش بتعذيب من يسلم من رقيقهم ، ويعلم أبو بكر  
ذلك فيسعى في شراء هؤلاء الرقيق وإعتاقهم ليعبدوا الله أحراراً ،  
حتى أنفق في ذلك صفوة ماله وكان غنياً .

وقد رأى عمرو بن هشام أن تعذيب الرقيق يسوء محمداً وأصحابه ، ولكنه لا يمنع كلمة الله أن تنتشر ، ولا دين الله أن يظهر ، فأخذ يغري أشراف قريش بفتنة الأحرار من المسلمين وتعذيبهم ، حتى يرجعوا عن دينهم ، وحتى يكونوا مثلاً يخوفون بهم غيرهم من الناس . ولكن هذه الفتنة وإن شقت على محمد وعلى أصحابه لم تمنع كلمة الله أن تنتشر ، ولا دين الله أن يظهر . وجعلت الأمور تجري في مكة على هذا النحو ، يشتد عمرو بن هشام وأضرابه في إيذاء محمد وأصحابه والإغراء بهم ، فلا يزيد ذلك كلمة الله إلا انتشاراً ، ولا يزيد ذلك دين الله إلا ظهوراً . وقد عرف الناس في تاريخهم كله أن لن يُخدَمَ رأى ولا دين بمثل اضطهاد أصحابه وفتنتهم . . وقد كثر أصحاب محمد من الرجال والنساء ، من الأغنياء والفقراء ، من الأحرار والرقيق ، وقد اتلفوا حوله يلقاهم مصباحاً ومسياً ، فيدعوهم ويعلمهم ويبشرهم ، ويُنذِرهم ، يجتمعون حوله مخلصين له مصدقين لما جاء ، ويتفرقون عنه داعين إلى ما يدعو إليه من الخير ، ثم يعودون إليه وقد زاد عددهم الرجل أو الرجال . وعمرو بن هشام لا يزداد لذلك إلا غيظاً ، حتى ساء خلقه وقبحت سيرته واستهتر بالدعوة إلى الفتنة والإغراق فيها ، فعرف بين المسلمين بأبي جهل ، لأنه صورة للجهل والحماق والغضب الذي لا يُبقي على شيء . وكان أبو جهل مع ذلك جباناً رعيدياً إذا اتصلت أسبابه بأسباب محمد من قريب أو بعيد . كان يُبغض محمداً بغضاً مروعاً لم يعرف الناس مثله ، وكان

يخاف محمداً خوفاً يضحك منه أحب الناس له وأعطفهم عليه .  
 وكان أبو جهل على ذلك كله قد حرم التوفيق في كل ما كان  
 يأتي من الأمر ، لحكمة أرادها الله وأمرٍ قدره ؛ فكان يُقدم على  
 الأمر يظن أن فيه الإيذاء لمحمد والنيل منه والغض من قدره والصدء  
 عن سبيله ، فلا يكاد يأتي ما يأتي حتى ينقلب عمله خيراً لمحمد .  
 لقي محمداً ذات يوم فأفحش له بالقول وأذاه في نفسه إيذاء شديداً ،  
 وانصرف عنه رسول الله لم يقل له شيئاً : لأن الله قد أدبه بأن يأخذ  
 العفو ويأمر بالعرف ويُعرض عن الجاهلين . وشهدت ذلك مولاة  
 لعبد الله بن جدعان ، فأنبأت به حمزة بن عبد المطلب مَرَّجِعَهُ  
 من الصيد ، فَحَسَمَى حمزة لما سمع ، ومضى إلى المسجد حتى غَشِيَ  
 أبا جهل في ناد من أندية قريش فضربه بقوسه فشجه شجّة فاحشة .  
 وهمت مخزوم أن تغضب لفتاها ، فيقول أبو جهل لقومه مستخذيّاً:  
 « دعوا أبا عمارة فقد أفحشت لابن أخيه » . وينصرف حمزة من  
 ساعته فيأتي ابن أخيه محمداً فيسلم ويصبح أسد الله .  
 ولم يُنكب أبو جهل في تلك الأعوام بمثل نكبته في ابن أخته  
 حنتمة بنت هشام ؛ فقد كان عمر بن الخطاب فتى أروع  
 من فتیان قريش ، فيه شدة لم تعرف قريش مثلها إلا في خاله عمرو ،  
 وكان يمالي خاله ممالأة شديدة ، فيغري بالمسلمين ويشتد عليهم ،  
 حتى خرج ذات يوم متوشحاً سيفه يريد أن يبطش بمحمد نفسه ؛  
 ولكنه يعلم في طريقه إلى محمد أن الإسلام قد دخل داره ، وأن

أخته قد أسلمت ، فيعدل إلى أخته فيبطش بها حتى يسيل الدم من وجهها ؛ ثم تأخذه الرحمة فيرق لأخته ويلطف لها حتى تقرئه بعض ما كان يُتلى عندها من القرآن . فلا يكاد يقرؤه حتى يدخل الإيمان في قلبه ، وإذا هو يسعى إلى محمد فيسلم ، ثم ينصرف إلى خاله فيطرق عليه بابه . فإذا رآه خاله رحب به ترحيب المحب لابن أخته الممالي له على أعداء قريش . ولكن عمر يني خاله بأنه قد جاء يعلن إليه أنه قد شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فيرده أبو جهل أقبح رد ، ويضيق بما أصابه فيه أشد الضيق . وقد سبق النبأ بإسلام عمر إلى المسجد ، فتعلم به أندية قريش فيروعها ما تعلم من ذلك . ويأتي عمر فينهض له القوم يساورونه ويساورهم ويقاتلونه ويقاتلهم ، حتى صلى وصلى بعده المسلمون جهاراً .

واشتد أمر المسلمين على قريش ، واشتد أمر قريش على المسلمين ، حتى أذن النبي لأصحابه في الهجرة ، فهاجر فريق منهم إلى أرض الحبشة حيث استطاعوا أن يعبدوا الله أحراراً ، وأقام الآخرون يدعون إلى الله بين أظهر قريش يلقون في ذلك من الشدة والعنت ما يلقون . وخلا أبو جهل إلى صديقه أبو مرة ذات ليلة يتساقيان البغض والحسد لمحمد كما كانا يصنعان ، ويستقصيان ما بلغت بهما خصومتها لمحمد وأصحابه ، فيقول أبو جهل لصاحبه : « أحلف باللات والعزى ما بلغنا من ابن عبدالمطلب وأصحابه شيئاً ، نفتنهم في أنفسهم وأجسادهم وأموالهم فلا تزداد دعوتهم إلا انتشاراً ، ولا يزداد أمرهم إلا ظهوراً . إن أتباع محمد ليكثر من بين

أظهرنا ؛ وهذا دينهم قد خرج من مكة فاستقر في أرض الحبشة ، ووجد أصحاب محمد هنالك عزاً ومنعةً وجواراً .

قال أبو مرة وهو يقدم القدح إلى عمرو : « اشرب أبا الحكم ورئتُ بك زنادى ! لقد أبليت في جهاد محمد أحسن البلاء ، ولكن قومك لا يبلغون من نصرك وتأييدك ما ينبغي أن يبلغوا . إنهم يخافون الحرب ، ولو قد ثاروا بمحمد فقتلوه لكفوا أنفسهم شراً عظيماً . واكن أبا طالب يقوم دون محمد ومعه فتيان بنى هاشم فتكره قريش أن تُسفك دماؤها بأيديها . إنهم يُبقون على محمد ، وليأتين يوم يقتلهم فيه محمد تقتيلاً إلا أن يسبقوا إليه بالموت » .

وغدا أبو جهل على قومه ثائراً ثورة لم يعرفوا منه مثلها ، حتى أحفظهم وكاد يستخف أحلامهم ويُخرجهم عن أطوارهم ، لولا أن قالت مشيخة قريش : « على رسلكم أيها الناس ! لا تعجلوا على قومكم حتى تُعذروا فيهم . لنسعين إلى أبي طالب فنسمع منه ونقول له ، لعله أن يُسلم إلينا ابن أخيه أو أن يكفه عنا ؛ فإن لم نظفر منه بإحدى الحصلتين رأينا فيه وفي بنى هاشم رأينا » .

قال أبو جهل : « يا لآلخزى ! يا لآلعجز ! أقسم بالللات والعزى لتعودن من عند أبي طالب كما تذهبون إليه لم تأخذوا منه شيئاً . ويا لكم ! اقتلوا محمداً وافجئوا بموته أبا طالب ؛ فإنه إما أن يخاف كثرتكم وقوتكم فيقبل منكم ديتته ، وإما أن ينهض لحربكم فما أيسر ما تردونه وقومه إلى الصواب » .

ولكن شيوخ قريش لم يسمعوا له ، ونهضوا فمشوا إلى أبي طالب  
ومشوا معهم أبو جهل لا لشيء إلا ليشهد إخفاقهم فيما يسعون إليه . وقد  
انتهى القوم إلى أبي طالب ، فقالوا له وسمعوا منه ، وطلبوا إليه أن يدعو  
محمدًا فيكلموه ففعل . وجاء محمد فسمع منهم ولم يقبل مما عرضوا عليه  
شيئاً . ثم دعاهم إلى الله ، ووعدهم شرف الدنيا والآخرة إن صدقوه ،  
وأنذرهم خزي الدنيا والآخرة إن كذبوه ، وطلب إليهم أن يقولوها كلمة  
واحدة تدين لهم بها العرب والعجم .

قال أبو جهل : « ما هي ؟ نقولها والله وعشراً أمثالها » . قال محمد :  
« تقولون لا إله إلا الله » . فنفرق القوم وهم يقولون : « أجعل الآلهة إلهاً  
واحداً إن هذا لشيءٌ عجاب » . وانصرف أبو جهل ولم يشمت بقومه قط  
كما شمت بهم هذه المرة ، فهو يستهزئ بذوى الأحلام والأسنان وأصحاب  
الرأى والمشورة ، يقول : « ما رأيت كاليوم رجلاً واحداً يرد الملائم من  
قريش خائبين مستخزين . فأما وقد بلغ بكم العجز ما أرى وانتهى بكم  
الجبين إلى ما ترونه فلا كفينكم محمدًا ، فإن أمر محمد لا يُعالج بالقول  
والسفارة ، ولا بالاحتجاج والجدال ، وإنما يُعالجُ بشيء واحد هو قتل  
محمد ، ولأقتلنه من الغد بين أيديكم وأنتم ترون ! ولأقتلنه وهو يصلي  
لإله هذا الذي يريد أن نعبده مكان آلهتنا . لآخذن حجراً ضخماً ثقيلًا  
فلأشدخن به رأسه إذا سجد ، فإذا فرغت منه فقوموا دوني إن شئتم ،  
أو أسلموني لبني عبد مناف إن خفتم الحرب » . يقول الملائم من قريش  
وقد أحفظهم ما رأوا وما سمعوا : « لا والله ما نُسلمك لأحد أبداً » .



ثم غدت قريش إلى أنديتها لم يتخلف من أشرافها أحد لما شاع  
فيهم من وعيد أبي جهل . وغدا أبو جهل وقد أخذ حجراً ضخماً ثقيلاً ،  
فجلس إلى قومه يتحدث وينتظر مقدم النبي . وأقبل رسول الله كعادته  
وطوّف بالكعبة ثم قام يصلي ، وقد جعل الكعبة بينه وبين الشام ، وقام  
أبو جهل فاستدبره ومعه الحجر لا يكاد يحمله لثقله ، حتى إذا سجد  
رسول الله دنا أبو جهل منه متباطئاً ، ولكنه لم يكد يبلغه حتى عاد منهزماً  
وسقط الحجر من يده والنبي ساجد لم يرفع رأسه من السجود . وتضاحكت  
قريش حين رأت أبا جهل يعود إليها مهزوماً مدحوراً قد ظهر في وجهه  
الخزي والانكسار . فلما رأى منهم ذلك قال : « ويلكم ! قوموا إليه إن  
شتم فاصنعوا به ما أردت أن أصنع ، والله لتسردنّ عنه كما رددت » .  
قالوا : « وماذا ردك أبا الحكم ؟ » . قال : « رأيت والله بينه وبينى  
فحلاً ما رأيت مثل رأسه ولا مثل أنيابه قط . ولو أقدمت على ما كنت  
مقدماً عليه لأكلني » . وأنبئ رسول الله بالحبر فقال باسم : « ذاك  
جبريل . ولو قد أقدم على ما كان يريد لأخذه » .

وخلا أبو جهل إلى صديقه أبي مرة حول زقهما ذاك ؛ فقال أبو جهل  
لصاحبه في شيء من الخزي واللوم : « ما أراك أغنيت عنى شيئاً صباح  
اليوم . إنك لها هنا تغريني وتحرضني وتيسر على الأمر وتمنيني الأمانى  
حتى إذا جدّ الجدّ نظرت فلم أجدك ، ونخليت بينى وبين الهزيمة  
والخزي ، وأضحكت منى من كنت أستهزئ بهم من شباب قريش  
وشيوخها جميعاً » .

قال أبو مُرّة وهو يملأ له القدح : « اشربُ أبا الحكم على بغض محمد ؛ فقد علمت أن رجلا واحداً لن يبلغ منه شيئاً ، وأن رجلين اثنين لن يبلغا منه شيئاً ، وأن رجالا كثيرين لن يبلغوا منه شيئاً حتى تُجمع قريش كلها على قتله ، فيومئذ تبلغ قريش ما تريد . فإلى هذه الغاية فاسع منذ اليوم » .

ولم يقصر أبو جهل في السعي إلى غايته تلك التي رسمها له حليفه الأثيم ، وإن كان قد أمسك أياماً عن الإمام بأندية قريش ، كان خجلاً مستخدماً من انهزامه ذلك عن محمد ، ومن قصة الفحل التي تحدث بها إلى قومه ، فأظهروا التصديق ولكنهم ظنوا بشجاعته الظنون ، وأخذوا يتعابثون به وبقصة الفحل كلما أحدث لهم منه ذكراً . وتريد شقوة أبي جهل ذات يوم أن يدخل المسجد أعرابي ، فيقف على بعض أنديةهم يستعين بهم على سيد من سادات قريش قد اشترى منه إبلاً ثم التوى عليه بثمنها لا يؤديه إليه ، فإذا سئل الأعرابي عن هذا السيد من يكون قال : هو أبو الحكم عمرو بن هشام ، فيتضحك القوم ويقول بعضهم للأعرابي : أتري إلى هذا الرجل الوسيم الصبيح قد جلس من البيت غير بعيد ! إنه وحده الذي يستطيع أن يُنصفك من عمرو بن هشام ، فاذهب إليه فستجد منه عوناً وتأيداً حتى ترضى . وكان هذا الرجل الوسيم الصبيح محمداً رسول الله ، فيذهب إليه الأعرابي والقوم مُغرقون في الضحك قد سخرُوا منه وخيل إليهم أنهم قد سخرُوا من رسول الله . وأقبل الأعرابي على محمد (صلعم) فاستعانه واستنصفه . وينظر الملاً من قريش ، فإذا

محمد قد قام ، وإذا هو يمضي والأعرابي يتبعه ، فيقولون لأحدهم  
اتبعهما وعدُّ إلينا من أمرهما بما يكون . ومضى محمد والأعرابي وراءه  
ورسول قريش يرقبهما من بعيد . حتى إذا بلغ محمد دار أبي جهل طرق  
الباب ، فخرج إليه عمرو بن هشام ووجهه ممتقع ما فيه قطرة دم . قال  
محمد : « أدُّ إلى هذا الرجل حقه » . قال أبو جهل : « نعم ! لا تبرح حتى  
يرضى » . ودخل داره ثم عاد فأدى إلى الرجل ما له وانصرف راضياً ،  
فعاد إلى ندى قريش يُثنى عليهم ويقول : صنع الله لكم ! لقد أنصفتني  
صاحبكم وما تركني حتى أدى أبو الحكم إلىّ حتى . فتعجب قريش  
ويقول بعضهم لبعض : إنه والله الفحل الذي رآه أبو الحكم منذ حين .  
حتى إذا لقوا أبا جهل فيما بعدُ سألوه فينبئهم : « إنه الفحل كان يسعى  
بين يدي محمد ، ولو قد التويت بحق هذا الأعرابي لما أنظرني » .

على أن أبا جهل جد في سعيه ، وجدّ النكير بين المسلمين والمشركين  
واشتد نعي محمد على قومه وعيبه لأهلهم ، وأنزل الله من القرآن آيات  
وسوراً كانت تدمغ قريشاً وتؤذي ما كانت تعتز به من الصلف  
والكبرياء أشد الإيذاء . وقد حاول الملأ من قريش أن يُعطوا محمداً  
الرضا فلم يقبل منهم إلا الإيمان ، ولم يستطيعوا أن يعطوه الإيمان .  
وحاول الملأ من قريش أن يخذلوا أبا طالب عن ابن أخيه فلم يزيدوه  
إلا جدّاً في نصره وحمايته ، حتى استطار الشرّ وعظم الخطب ، ولم يبق بد  
لقريش من أن تسمع لمشورة أبي جهل وتصير إلى ما كان يريد .  
وقد صارت قريش إلى ما أراد أبو جهل وحليفه أبو مرة ، فاجتمع

الملا منهم وكتبوا صحيفتهم تلك يقطعون فيها رحم بني هاشم ويحظرون فيها على قريش أن يكون بينهم وبين بني هاشم بيع أو شراء أو صهر أو تواصل ما . وانحاز بنو هاشم مع أبي طالب إلى شيعتهم فحُضِرُوا فيه ، حتى اشتد عليهم الجهد وعظم عليهم البلاء ، وحتى جاع صبيبتهم فما ينامون الليل ، ولكنهم مع ذلك صبروا للمحنة كراماً واحتملوا أعزّة شُماً . منهم من كان يؤمن محمد فهو يصبر طاعةً لله وجهاداً في سبيله . ومنهم من كان على جاهليته فهو يصبر عصبيةً للحسب والنسب ، وإباء للضميم ، وبغضاً لسوء القالة . ولم يقض أبو جهل أياماً كانت أحب إليه من هذه الأيام ؛ فقد كان سعيداً بظلم بني هاشم ناعماً بما يلقون من جهد ، قد وجهه قومه إلى حيث يريد فاتبعوه ، واتبعوه جميعاً لم يكذب يخالف عن أمره منهم أحد .

ورضى أبو مرة كل الرضا ، وكان يقول له وهو يساقبه البغض : « إنك لتدنو من الغاية يا أبا الحكم . فأنتم أولاء قد كدتم تُجمعون على قطيعة محمد وبني هاشم ، وليس بينكم وبين الإجماع على حربه وحرهم إلا خطرات قصار » .

ولكن أبا طالب يغدو ذات يوم فيدخل المسجد ويطوف بالبيت ، ثم يقف على ناد من أنديتهم فيقول : « يا معشر قريش ! إن ابن أخي قد أنبأني بشيء سأنبئكم به ، فإن كان قد صدقني فكفوا عما أنتم فيه من ظلمنا وقطيعتنا ، وإن كان قد كذبني دفعته إليكم فقتلتموه وعادت العافية إلى قريش » .

قالوا : « أنصفتنا والله يا أبا طالب . فماذا أنباك ابن أخيك ؟ » .

قال : « أنبأني بأن صحيفتكم تلك التي تعاهدتم فيها على ظلمنا وقطيعتنا وعلقتموها في جوف الكعبة قد أعدت عليها الأَرْضَةَ فحقت كل شيء فيها إلا اسم الله ، فاعمدوا إلى صحيفتكم هذه فانظروا فيها » . وعمدت قريش إلى الصحيفة وهي لا تشك في أن أبا طالب قد عُرِّ عن نفسه . ولكن القوم ينظرون إلى الصحيفة فإذا محمد لم يقل لعمه إلا الحق ، وإذا الصحيفة قد مُحِي كل شيء فيها إلا اسم الله فإنه لم يمسه سوء . فسقط في أيدي قريش ، وأخذ الملائة يتلاومون على ما تعجلوا به من وعد أبي طالب بالنصفة ، وأخذ بعضهم مع ذلك يقول : « لا والله لا نكذب الشيخ ولا نُخلفه وعدنا . ولقد علمنا أن هذه الصحيفة كانت شؤماً ، لقد شلت يد كاتبها . ولا والله ما جرَّت علينا القطيعة إلا شراً . كيف نأكل ونشرب وننام وننعم بالطيبات ، وإخواننا جياع قد بلغ بهم الضر كل مبلغ ؟ ! » .

واجتهد أبو جهل في أن يجمع قريشاً على القطيعة ويمضي بها فيما أحب من إخلاف الوعد ونكث العهد فلم يفلح ، وإنما انتصر عليه أولو الحلم والمرؤءة من قومه ، فرُفِع الحصار عن بني هاشم ، واستخذى أبو جهل وحليفه أبو مِرَّة ، وعادا يلتمسان العزاء عند زِقهما ذلك الروى بنار تُشبه الحمر أو خمر تشبه النار .

على أن الحوادث ردت إلى أبي جهل صلفه وخيلاءه ، وإلى أبي مرة شيئاً من أمل وفضلا من رجاء . فقد مات أبو طالب ، ومات بعده خديجة بقليل ، وفقد محمد رداً الذي كان يلوذ به ، كما فقد سكنه الذي كان يأوى إليه ، وأدركته الشدة حين كان يلقي الناس فيطمع فيه سفهاؤهم ويهزأ منه حلماؤهم . وأدركته الشدة حين كان يأوى إلى بيته فلا يجد فيه ما كان يجد عند خديجة من الرحمة والعطف والعزاء . وهم عمه أبو لهب أن يقوم منه مقام أبي طالب فيحميه من الأذى ويُجيره من الظلم والبغى . ولكن أبا جهل عرف كيف يردّ أبا لهب عن همه ذلك ، وجاءه فقال له : « سل ابن أخيك عن أبيك عبد المطلب أين هو ؟ » . فلما سأل أبو لهب محمداً : « أين عبد المطلب ؟ » أجابه : « بين قومه » . فخرج الرجل راضياً لا يرى بجواب ابن أخيه بأساً . ولكن أبا جهل ضحك له ضحكة الشيطان وقال : « فإنه يزعم أن عبد المطلب وقومه في النار » . فرجع أبو لهب إلى ابن أخيه يسأله : « أحق ما أنبئتُ به من أنك تقول إن عبد المطلب في النار ؟ » قال رسول الله : « نعم ! وكل من مات على جاهليته فهو في النار » . قال أبو لهب : « لا جوار لك عندي » . ثم

خرج إلى قريش ، فقال : « اصنعوا بصاحبكم ما تريدون فإنني قد رفعت عنه حمايتي وجواري » .

منذ ذلك اليوم بلغت الفتنة أقصاها ، وانتهت المحنة إلى غايتها ، وعرف رسول الله أن ليس له بمكة أمن ، فخرج يلتمس الأمن في الطائف عند ثقيف ، فردّوه أشنع ردّ وأقبحه ، فعاد إلى مكة محزوناً مكلوماً ، واثقاً بالله مع ذلك أعظم ثقة وأقواها . على أنه لم يستطع أن يدخل مكة حتى أرسل إلى مطعم بن عدى فاستجاره فأجاره مطعم ، ودخل مكة آمناً . ولكن أيّ أمنٍ هذا الذي هو مدين به لرجل من غير رهطه الأذنين ! .

وفي تلك الأعوام طغت قريش وبغت ، وأسرف أبو جهل في فرجه ومرحه . وجعل محمد يترقب الموسم يعرض نفسه على قبائل العرب يسألهم أن يحموه ويمنعوه حتى يؤدي رسالات ربه فلا يجد عندهم غناء ، حتى استجاب له الأوس والخزرج ، فأذن للمسلمين في الهجرة إلى يثرب ، وأخذوا يخرجون من مكة أرسالا . هنالك تنبه أبو جهل وما كان غافلا ، فجدّ في تحريض قريش وتأليبها لتمنع المسلمين من الهجرة . ولكن لله أمراً هو بالغه ، وقدراً هو مجريه ؛ فقد هاجر أكثر المسلمين ، وأقام محمد بمكة ينتظر إذن الله له في الهجرة ، ومعه صاحبه أبو بكر وابن عمه عليّ . وقد علمت قريش وعلم أبو جهل أنها القوة والمنعة لمحمد إن هاجر إلى يثرب ، وأنها الحرب على مكة ومن فيها إن استطاع محمد أن يأوى إلى الأنصار .

وهنا بذل أبو جهل أقصى جهده وغاية ما يملك من قوة ، وآزره حليفه أبو مرة فأحسن مؤازرته . واجتمعت قريش في دار نَدْوَتِهَا تتشاور في أمر محمد ، وحضر اجتماعهم أبو مرة ظاهراً لهم في زيِّه ذلك الذي كان يراه فيه أبو جهل . فلما جعل القوم يديرون رأيهم بينهم أخذ أبو مرة يردّ على كل متكلم كلامه ، حتى قال أبو جهل مقالته فأبسدها أبو مرة أشدّ التأييد . ولم لا ! لقد كانت مقالة أبو جهل تُبلغه الغاية التي كان يسعى إليها . رأى أبو جهل أن يُستدب لقتل محمد فتي جلدٌ من كل قبيلة من قبائل قريش ، ثم إذا اجتمع هؤلاء الفتيان عدواً على محمد فضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد ، فإذا فعلوا ذلك ذهب دمه بين القبائل ، ولم يعرف بنو عبد مناف عند من يطلبون بدمه . ولكن كيد أبي جهل وأبي مرة لم يُغن عنهما من الله شيئاً ؛ فقد خرج محمد على هؤلاء الفتيان يتلو آيات من القرآن ، ويضع التراب على رؤوسهم ، وُغشيتْ أبصارهم فهم لا يرونه ، وارتدوا عما أرادوا خائبين ، كما ارتدّ أبو جهل خائباً عن كل ما أراد .



على أن مكة نخلصت لأبي جهل وحليفه أبي مرة حيناً من الدهر حين هاجر منها محمد وأصحابه . فلم يُعبد الله فيها إلا سرّاً ، وخفّت فيها صوت الحق إلى حين ، وظهر فيها بغى قريش وكبرياؤها كعهدهما قبل أن يُشرق في مكة نور الإسلام . ولكن من بقي من شيوخ قريش وذوى أحلامها كانوا يظنون السوء وينتظرون المكروه ، ولا يشكّون في أن ستكون بينهم وبين أصحاب محمد خطوب . وقد أخذت هذه الخطوب تتتابع قليلاً قليلاً ، حتى كان الخطب الأكبر يوم بدر .

هنالك نذب رسول الله أصحابه للخروج إلى تجارة قريش مَرَجِعِهَا من الشام ، لعل الله أن ينفلهم إياها . فخرجوا ، حتى إذا كانوا في بعض الطريق عرف أبو سفيان مكانهم فأرسل يستنفر قريشاً لحماية العير ، ونفرت قريش لم يكذب يتخلف أحد من أشرافها . وساحل أبو سفيان بتجارته فأحرزها وأمن عليها من محمد وأصحابه ، وأرسل إلى قريش يأمرهم بالرجوع إلى مكة وينبئهم أن قد أمنت العير . ولكن أبا جهل يأبى إلا أن يبلى بلاءه الأخير ، فيقسم لا يرجع حتى تأتي بدرأ فئاكل ونشرب ونطرب ونطعم الناس ، ويعرف العرب ذلك فنسرد هيبتنا في

نفوسهم . وقد استمعت له قريش لا تظن أن عليها بذلك بأساً . حتى إذا بلغوا بدرأ والتقى الجمعان ، عرفت قريش أنها الحرب ، ونظرت قريش فإذا محمد وأصحابه لا يكادون يتجاوزون ثلاثمائة إلا قليلاً . ولكن قريشاً تنظر فترى قوماً مشاة يريدون أن يُحملوا ، حفاة يريدون أن ينتعلوا ، جياً يريدون أن يأكلوا ، عراً يريدون أن يكتسوا ، لا يحميهم ولا يمنعهم إلا سيوفهم ، فيشفق أشراف قريش من هذه البلايا تحمل المنايا . ويسعى عتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام في قبائل قريش يحبون إليهم السلم ويدعونهم إلى القفول . ولكن ذلك يبلغ أبا جهل عن عتبة فيقول : « انتفخ والله سحره<sup>(١)</sup> » . ويبلغ ذلك عتبة فيقول : « سيعلم ابن الحنظلية أين انتفخ سحره » ثم يدعو بسلاحه ويكون هو وأخوه شيبة وابنه الوليد أول من يخرج إلى القتال ، فيقتلون جميعاً . ويزحف القوم بعضهم على بعض وقد سقى أبو مرة نديمه وحليفه كأسه الأخيرة من خمر كأنها النار أو نار كأنها الحمر ، وزين له أن النصر قريب فخرج أبو جهل يرتجز :

ما تنقم الحرب العوانُ مني      بازلُ عامين حديثُ سني

لمثل هذا ولدني أمي

ولكن أبا جهل لا يكاد يقوم حتى يرى هولاً لم ير مثله قط ، وما كان يقدر أنه سيراه آخر الدهر . يرى سخائب بين السماء والأرض

( ١ ) السحر : الرثة . ويكنى بانتفاخ السحر عن الجبن ، فيقال انتفخ سحر فلان

إذا مل وجبن .

قد أظلم لها الجو ، ومرت كأنها العواصف ، ثم هبطت منها أشخاص  
 قد لبسوا العمام وألقوا فضلها على ظهورهم ، وركبوا الخيل مسومة ،  
 وهم يضربون من المشركين الأعناق ويقطعون منهم كل بنان . وينظر  
 أبو جهل عن يمين وشمال ، وينظر أبو جهل وراءه يلتمس حليفه ونديمه  
 أبا مرة ، فإذا هو قد ذاب كما يذوب الملح . هنالك يذهب الغرور  
 كله عن عمرو بن هشام ، ولا يبقى في نفسه إلا حفاظ الرجل العربي  
 وكبرياؤه . هو بين اثنتين : إن شاء لوى عنان فرسه فطارت به إلى  
 حيث الأمن ، وإلى حيث السيادة ، وإلى حيث أبو مرة وخمره وكيده ،  
 وإلى حيث العار ، وإن شاء مضى أمامه فأحس الألم ساعة ثم مضى  
 كما يمضي الناس منذ أول الدهر . ولا والله لا تضحك مني قريش ،  
 ولا تحدثني بحديث الفحل ، ولا تقول قريش إني ما رأيت محمداً إلا  
 ملئت منه رعباً ووليت فراراً . ثم يُقحم فرسه بين الصفوف ، وإذا هو  
 صريع قد قطعت إحدى ساقيه والدم ينزف منه نزفاً شديداً ، ولكنه  
 مستيقظ يقظة لم يعرفها قط ، يرى كل شيء ، يرى أصحاب محمد  
 يأخذون ظهور قريش برماحهم ، ويرى رجلاً قد أقبل يسعى حتى  
 وطئ صدره بقدميه . من يكون هذا الرجل ؟ إني أعرفه ! لقد فتنته  
 بمكة فتنة شديدة ! إنه الهذلي ابن مسعود راعي الغنم !

ثم يرتفع صوت أبي جهل متحدثاً إلى ابن مسعود رضي الله عنه  
 فيقول : « لقد ارتقيت مُرْتَقِي صعباً يا راعي الغنم » . يقول ابن مسعود :  
 « وهل أخزأك الله يا عدو الله ! » . قال أبو جهل : « وبم أخزاني ! وأى

عار على فتي قتلتموه ! ولكن أنبئني لمن العاقبة ؟ » . قال ابن مسعود :  
 « لله ولرسوله وللمسلمين » ، ثم أهوى إليه فاحتز رأسه وحمله إلى النبي .  
 وبعد قليل أتى قتلى بدر من المشركين في القليب ، ووقف عليهم  
 رسول الله يقول : « يا معشر قريش ! رأيتم ما وعدكم ربكم حقاً ! فإني  
 رأيت ما وعدني ربي حقاً » . يقول المسلمون : « أتكلم الموتى يا رسول  
 الله ؟ » . فيقول صلى الله عليه وسلم : « والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم  
 ولكنهم لا ينطقون » .

أشرف خالد بن الوليد رحمه الله على بدء الزحف العام يوم اليرموك وكان مشرق الوجه مبهج النفس ، ولكن شيئاً من القلق كان يظهر في عينيه اللتين كانتا تمتدان في الأفق كأنما تريدان أن تبلغا ما وراء الجيشين الملتحمين ، ثم تنحرفان إلى يمين مرة وإلى شمال مرة أخرى ، كأنما تريدان أن تتعجلا عواقب الموقعة لتعودا بها إلى نفس القائد العظيم الذي لم يعرف إلا الانتصار ، والذي كان شديد الشوق إلى أن يتبين الموقعة قبل أن تم وقبل أن تأتيه بها رسله وعيوناه .

وكان خالد بن الوليد رحمه الله ينظر إلى هذين الجيشين العظيمين وقد سعى كل منهما إلى صاحبه في أناة ورزانة وثقل ، حتى لَيْسُخِيل إلى من كان يراها أنهما الجبال المتقابلة يسعى بعضها إلى بعض في مهل وبطء ، ثم لا يزال بها السعى البطيء حتى تستحيل الأناة عجلة والمهل سرعة ، وحتى يرى الرائي كأنما قد زُلزل كل شيء ، فمادت الأرض ، واضطربت السماء ، وماج الجو ، واختلط كل شيء اختلاطاً هائلاً غريباً .

وكان خالد يذكر ما ألف من الحرب في بلاد العرب ، وما ألف من الغزوات التي شهدها . وكان يذكر ما كان الناس يتحدثون به عن

هول هذه المواقع ، فيبتسم ابتسامة فيها العجب وفيها الرضا . وأكبر الظن أنه كان يوازن بين تلك المواقع اليسيرة وبين هذه الموقعة الهائلة التي لم ير عربي مثلها قط . فقد كانت أكبر جيوش العرب حين يحارب بعضهم بعضاً لا يكاد يتجاوز أحدها الألف أو الآلاف . فلما زحف النبي على مكة بعشرة آلاف من المسلمين أكبرت العرب ذلك وهابته هيبة شديدة . ولم تكد قریش ترى مَقدَمَ هذا الجيش حتى استحالت كبرياؤها فأصبحت تواضعاً وطاعة ، وإذا النبي يسأل قومه : « ما تظنون أنى فاعلٌ بكم؟ » . فلا يدرون كيف يجيبون . فإذا عرفوا أنه العفو قالوا : « أخ كريم وابن أخ كريم » .

ولما بلغ جيش النبي يوم حنين عشرين أو ثلاث عشرات من الألوف ظنت العرب أن الجيوش لن تبلغ مثل هذا العدد آخر الدهر . وهذا خالد يقود جيشاً للمسلمين يبلغ العشرات الكثيرة من الألوف إلى جيش من الروم يبلغ العشرات الكثيرة من الألوف .

وقد تغيرت الحرب فلم تصبح كراً وفرّاً ومبارزة ومناجزة ، وإنما هي زحف الجبال إلى الجبال ، واختلاط الأرض بالسماء . فلما ملأ خالد رحمه الله عينيه من هذا المنظر الرهيب عاد إلى مجلسه في سرادق الأمير ، وقد ذكر أن عظيماً من عظماء الروم قد انحاز إليه ، وأنه سيلقاه ويسأله عن شأنه . ولم يكذ يستقر في مجلسه حتى أذن للعظيم الرومي ، فأدخل عليه ، وإذا شيخ جليل قد تقدمت به السن لولا بقية من نشاط وفضل من قوة ، وإذا هو يحيي خالداً تحية الإسلام في عربية فصيحة يلتوى

بها لسانه بعض الشيء . فإرد عليه خالد تحيته بمثلها . ثم يسأله : « أتتكلم العربية أيها الشيخ أم هي تحيتنا تعلمتها لتلقانا بها لقاء حسناً ؟ » . قال الشيخ : « أصلح الله الأمير ! فإن لي بالعربية عهداً ، وما أظننا نحتاج إلى ترجمان » . فأجلسه خالد إلى جانبه محتفياً به مقبلاً عليه ، ثم أشار إلى من حوله فانصرفوا ، والتفت إلى الشيخ كأنه ينتظر أن يبدأ بالحديث . قال الشيخ : « أصلح الله الأمير ! إنك لم تخلُ إلى رجل من الروم قد أقبل يسعى إليك فيما يسعى فيه الساسة الذين يخالفون عن رؤسائهم وساداتهم إلى العدو ليدلوه على عوراتهم ، ويُظهروه على ما دبروا من الكيد لرؤسائهم والانحياز إلى المغيرين ، إنما تخلو إلى مسلم قد شهد فجر الإسلام حين انبثق في البطحاء من أرض الحرم ، فأمن به حين استيقن أنه الحق قد جاء من عند الله . ثم فرّ بما علم من ذلك فهاجر من مكة إلى وطنه من بلاد الروم يهبي قومه لمثل هذا اليوم الذي نحن فيه . وقد مضت أعوام وأعوام وأنا أستقصي الأنباء وأتلقط الأخبار وأعلم ما يحدث في مكة وفي يثرب من الخطوب . حتى إذا كانت وقعة مؤتة علمت أن الشمس قد أخذت تبلغ أرضنا ، وأن نور الله قد أخذ يُشرق في آفاقنا . ثم ها أنتم هؤلاء قد أقبلتم مظفرين ، فجئت لألقاك بالبشرى ، ولأنبئتك بأن لا بأس عليكم بعد هذه الموقعة ، فلن يثبت لكم العدو في مدينة أو قرية أو مكان ما في هذه الأرض ولا في غيرها مما يجاورها من الشام ومصر ، ولن تجدوا من الناس بعد انهزام الجيرش عنكم إلا مودة ومعونة وحسن لقاء . فاقدّموا عليهم كما تقدّمون على الصديق لا كما تقدّمون على

العدو ، فسيدخلون في دين الله أفواجاً وستُخْلِصُ لكم نفوس الذين يستمسكون بدين آبائهم .

قال خالد : « ألم تُنبئني أنك شهدت فجر الإسلام حين انبثق بمكة ؟ ! » .

قال الشيخ : « نعم ! وكنت ثاني اثنين كانا يرقبان مطلع الفجر ؛ فأما أحدنا فأقام بمكة ومات فيها . وأما الآخر فأقبل إلى هذه الأرض يبشر الناس بمطلع الفجر . »

قال خالد : « فمن ذاك الذي مات بمكة ؟ » . قال الشيخ : « ابن عمك ورقة بن نوفل . »

قال خالد : « وأنت من تكون ؟ » . قال الشيخ : « أنا من أكون ! لست أدري أيدلك اسمي على شيء ! ولكن أباك كان يعرفني حق المعرفة ويُبغضني أشد البغض ، وابن عمك كان يعرفني حق المعرفة ويحبني أشد الحب . »

قال خالد : « أى أبناء عمي ؟ » . قال الشيخ : « عمرو بن هشام بن المغيرة ، كنا نسميه أبا الحكم . » قال خالد : « ثم سميناه بعد ذلك أبا جهل . » قال الشيخ : « وقد صرعه البغي والحسد يوم بدر . »

قال خالد : « نعم ! صرعه البغي والحسد ؛ صرعه البغي والحسد وغرور الشيطان . » وسمع خالد هائعة<sup>(١)</sup> خارج السرادق ، فسكت كأنما

( ١ ) الهائعة هنا : الضجة والأصوات الكثيرة . وأما الهيمة فالصوت الذي تفرع منه وتخافه من عدو .



يريد أن يتبين ما سمع ، وإذا قوم يريدون أن يقتحموا باب الأمير والحجائب  
 يذودونهم عن ذلك . فيضرب خالد إحدى يديه بالأخرى ويدخل نفر  
 من المسلمين وقد احتملوا بينهم رجلاً جريحاً قد أشرف على الموت ولكن  
 فيه رمقاً ، وهم يقولون : ابن عمك أيها الأمير عكرمة بن أبي جهل .  
 فيغشى وجه خالد حزن لا يلبث أن تطرده ابتسامة حلوة ، ويشير إليهم  
 أن قدّموا الجريح ؛ فإذا وضعوه قريباً منه أقبل عليه فوضع رأسه على  
 فخذه وجعل يُمِرُّ يده على جبهته إمراراً خفيفاً وهو يقول : « أسمعني  
 يا عكرمة ؟ » فيشير الجريح بطرفه « أن نعم » . يقول خالد : « زعم ابن  
 حنتمة أننا لا نُستشهد ، أبشر بالجنة يا عكرمة ! » . ثم يلتفت إلى الشيخ  
 ويقول : « أما أبوه فقد صرعه الحسد والبغى ، وأما هو فقد صرعه الجهاد  
 في ذات الله » . وإذا الشيخ قد وقف رافعاً يديه إلى السماء وهو يتلو :  
 ( وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ  
 يُرْزَقُونَ ) .

قال خالد : « وقد حفظت من القرآن شيئاً أيها الشيخ ؟ » . قال  
 الشيخ : « نعم ! حفظت منه شيئاً » . قال خالد : « ولكنك لم تنبئني  
 من أنت ؟ » . قال الشيخ وقد استعبر : « لو استطاع هذا الفتي أن يراني  
 لعرف أني نسطاس ، ولكنه يرى الآن وجوهاً خيراً من وجه نسطاس ،  
 ويسمع أصواتاً أعذب من صوت نسطاس : يرى وجوه الملائكة  
 ويسمعهم يقولون له ولأمثاله الذين يُصرعون الآن في ذات الله وهم  
 يفتحون لهم أبواب الجنة : « سلامٌ عليكم طبتُم فادخلوها خالد بن » .

*[The text on this page is extremely faint and illegible, appearing to be a handwritten document.]*

سیدالشہداء

المستألف

خلا الأمير إلى سُمَّاره حين تقدّم الليل . . . وسكنت حركة الأحياء  
والأشياء ، وارتفعت في السماء أضواء الدور في المدينة وأضواء القصور  
من حولها ، وانحدرت إلى الأرض أشعة النجوم رفيقة رفيقة مضطربة .  
وكان الأمير على غير عادته كثيباً كاسف البال ، مؤثراً للصمت مُعرضاً  
عن أصحابه ، لا يكاد يسمع لما يدور حوله من الحديث . فلما سأله في  
ذلك آثر أصحابه عنده قال الأمير : « ألم تر إلى الناس حين كنا نُعشيهم  
كيف كان إقبالهم على طعامهم فاتراً بطيئاً ، وكيف كان حديثهم فيما  
بينهم خافتاً خفياً ، وكيف كان يستأثر بهم ويسيطر عليهم ذهول غريب  
يجعل حركاتهم آلية لا تصدر عن رأى ولا إرادة ، وإنما تصدر عن  
عادة وغريزة ! لقد خيل إلى أن قد فُرق بينهم وبين أنفسهم ، فكأنما  
كانت أنفسهم في السماء وأجسامهم في الأرض . ولقد عرفت هؤلاء  
الناس وعرفوني ، ولقد بلوتهم وبلوتني ، وما أذكر أنهم أخذوني بما  
لا أحب ، وما أذكر أنى سرت فيهم بما لا يرضون من سيرة الأمراء » .  
قال صاحب الأمير : « فإن الأمير أعزه الله يعلم أن هؤلاء الناس  
قد شغلوا اليوم عن أنفسهم بآبائهم وأجدادهم ، وشغلوا عن يومهم الحاضر  
وغدهم المقبل بأمسهم القريب » . قال الأمير : « وما ذلك ؟ » . قال

صاحبه : « فإن أصحابك قد رفعوا إليك من غير شك قصة هذه القبور التي نُبِشت ، وقصة هذه الآية التي ظهرت » .

قال الأمير : « فإن أصحابي لم يرفعوا إليّ من ذلك شيئاً ، وإنما هو أمر جاء من دمشق ، ومضينا في إنفاذه اجتهاداً للناس ونصحاً لهم وإيثاراً لهم بالرئى والحصب والعافية . وما أعرف أن أحداً منهم أنكر من هذا الأمر شيئاً ، أو قال فيه بغير ما نقول ، أو أشار فيه بغير ما أمر أمير المؤمنين » .

قال صاحب الأمير : « أما والله لولا أن الأمر قد سبق بذلك منذ العام الماضي حين لم تكن والياً على هذه المدينة وحين كان أمرها إلى من لا نحب أن نتحدث إليه أو نشير عليه ، لقد كان لنا في ذلك رأى غير ما رأى ، ولقد كنا خليقين أن نشير على أمير المؤمنين بغير ما تقدم به في أمر هذه القبور . إنها قبور الشهداء ؛ إنها قبور الذين صرعوا في الله يوم أحد ؛ وإن كثرتهم لمن الأنصار . وقد أراد الله أن يُدْفَنُوا حيث صرعوا . وقد أنبئنا أن جماعة من الأنصار هموا بنقل موتاهم إلى المدينة ليُدْفَنُوا فيها ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ونهى عنه وأمر بهؤلاء الشهداء فرُدُّوا إلى مصارعهم ودُفِنُوا حيث أراد الله أن يدفنوا ورسول الله قائم يصلى عليهم ويشهد دفنهم ، وكأنما كان يستودعهم هذه الأرض التي طهرتها دماؤهم الذكية حتى يكون اليوم الذي يُنشرون فيه من قبورهم ليلقوا جزاء الشهداء الصديقين . فلو قد سئلنا في ذلك لأجبنا . ولو قد استُشِرْنَا في ذلك لرأينا لأمر المؤمنين غير ما رأى له هؤلاء الشباب من فتیان قريش .

فإن من الخير أن يُجرى أمير المؤمنين لأهل المدينة هذه العين تحمل  
إليهم الرّىّ والحصب ، ولكن مما يؤذى أهل المدينة أن تُنبش قبور  
آبائهم وأجدادهم من الشهداء ، وأن يحولوا عن أرض قسمها لهم الله  
ورسوله .

قال الأمير : « فتراهم قد سخطوا على ذلك وضاقوا به وأنكروه ؟ » .  
قال صاحب الأمير : « ما أشك في ذلك . ولكن الله عز وجل قد  
أراد بهم وبأمير المؤمنين خيراً ، فأظهر لهم هذه الآية التي صرفتهم عن  
الدنيا إلى الدين ، وعن التفكير في اليوم والغد إلى التفكير في أمس وفي  
يوم يروونه بعيداً ويراه الله عز وجل قريباً » .

قال الأمير : « فإني لا أفهم عنك ما تقول منذ الليلة ! » ؛ قال  
صاحبه : « فإن أصحابك إذا لم يُنبشوك بالحال التي وجدوا عليها أجسام  
الشهداء » . قال الأمير : « لم ينبشني أحد بشيء » . قال صاحبه :  
« فإن أجسام الشهداء قد وُجدت رطاباً كشأنها يوم دُفنت . ولقد  
كانت تُحمل من مكان إلى مكان فتنتشى وتضطرب ، رخصة كأنما  
هي مغرقة في النوم لم يُلمّ بها الموت . وأكثر من ذلك أن المسحاة  
أصابت رجل سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب فجرى منها دم زكىٌّ  
كما يجري دم أحدنا حين يصيبه الجرح اليسير ، وقد مضى على مصرع  
هؤلاء الشهداء أكثر من أربعين عاماً ، وقد رأى الناس ذلك وأحسوه ،  
وتأثرت به نفوسهم ، واضطربت له قلوبهم ، وازداد له إيمانهم ،  
فهم بين الحزن لما كان من تحويل هؤلاء الشهداء عن قبورهم ،

والإعجاب بما كان من هذه الآية ، وقد صرفهم هذا الإعجاب عن إظهار ما كان خليقاً أن يملأ قلوبهم من سخط وإنكار . فلا تنصق بما رأيت من وجومهم وذهولهم ؛ فإن بعض هذا كان خليقاً أن يضطرهم إلى الوجوم والذهول .

وكان في القوم شيخ قد تقدمت به السن وظهرت عليه الكِبَرَةُ والمهَرَمُ ، وقد جلس في آخر المجلس مُطَرَقاً ممنعاً في الصمت والسكون كأنه قطعة من صخر . فلما انتهى سَمَرُ الأمير من حديثه إلى هذا الموضع ، رفع هذا الشيخ رأسه وقال في صوت هادئ رزين يكاد يضطرب شيئاً ، وإن عينيه الغائرتين الضئيلتين لتَبْضُضَانَ بوشل من الدمع شديد التأثير في النفوس - وأى شيء أبلغ من بكاء الشيوخ !! - قال هذا الشيخ في صوته الهادئ الرزين : « رحم الله حمزة ! إن كان لسيد الشهداء حقاً ، وإن كانت حياته لموضع العبرة الصادقة والموعظة البالغة . كان إسلامه عنيفاً ، وكان بلاؤه في الإسلام عنيفاً ، وكان مصرعه في الله عنيفاً ، وكان ما ترك من حزن عليه ووجد به وحب له عنيفاً أيضاً . وماذا تقولون في أنه لم يبلغ حزن من قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغه الحزن على حمزة حين رآه صريعاً قد مثل به المشركون تلك المسئلة المنكرة ! لقد حدثنا من رآه قائماً ينظر إلى هذا المشهد الفظيع . فيأخذ الحزن من قلبه الكريم الكبير كل مأخذ حتى يُخرجه عن طوره ويدفعه إلى الثورة ، وإن كان لأبعد الناس عن الثورة ، وإن كان لألزم الناس للوقار . لقد ثارت لهذا المشهد البشع نفسه الهادئة الرضيئة ،



فإذا هو يوعد وينذر، وإذا هو يقسم لئن أظهره الله على قريش لَيُؤَمِّسَنَّ بِقَتْلِهِمْ كما مثلوا بعمه ، وإذا غَضِبُ هذه النفس الهادئة الرضية يشيع في نفوس أصحابه كما تشيع النار في الحطب الجزل ، فيقسمون لئن أظهرهم الله على قريش لَيُؤَمِّسَنَّ بِقَتْلِهِمْ مُثْلَةً لم تعرفها العرب قط . ولكن الله عز وجل كان يريد برسوله وبعبادته غير ما أراد لهم الغضب ، وإذا هو يؤدبهم بأدب غير هذا الأدب العتيق الذي يقوم على الحفيظة والحمية والثأر ، وإذا هو يُنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات الكريمة : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ وَإِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » . فيثوب إلى القلب الكريم ما فارقه من العفو ، ويعود إلى النفس الكبيرة ما ندد عنها من الصبر ، ويكفر النبي عن يمينه ، ويُرد المسلمون إلى العفو والصبر والحلم والأناة ، ويُظهر الله رسوله وعباده على الذين قتلوا حمزة وأصحابه الشهداء ومثلوا بهم ، فلا يلقون منهم إلا العفو والبر ، وإلا الرحمة والعطف ، وإلا المودة والإحسان . وكذلك يقوم أمر هذه الأمة على الصبر والمغفرة والصفح الجميل .

ثم أطرق الشيخ إطراقةً غير قصيرة ، وأمعن في صمت عميق ، وأمعن السمار مثله في صمت عميق أيضاً ، كأنما حضر مجلسهم روح قوى أخذ عليهم أمرهم واضطرهم إلى هذه التروية المتصلة التي قطعها الشيخ حين رفع رأسه وقال في صوته الهادئ الرزين : « نعم ! رحم الله حمزة !

لقد كانت حياته عنفاً كلها ، ولكنها لم تُعقب إلا مودة ورحمة . أترون إلى أخته صفيّة وقد بلغها مصرعُ العنيف ، فأقبلت تسعى لتراه وتحمل ثوبين لتلفه فيهما ، ويُسفق رسول الله عليها من هذا المشهد ، فيأمر ابنها الزبير أن يردّها ، ولكنها تأتي ؛ فقد بلغها أنه صرع ، وبلغها أنه مُثل به ، وقد رضيت بذلك واطمأنت إليه ، فذلك في الله قليل . أخت عنيقة لأخ عنيف ، عنيقة بنفسها قبل أن تعسف بالناس ، ولكنها أخت رحيمة لأخ رحيم . أترون إليها وقد أقبلت فرأت أخاها ، وتنظر فترى جهد المسلمين وفقدهم وعجزهم عن تكفين موتاهم ، فتردّ عن أخيها أحد الثوبين ليكفن المسلمون به شهيداً من شهدائهم ، وترضى لأخيها بعد أن صرع هذا المصرع ومُثل به هذه المثلة أن يكفن في ثوب واحد لا يلفّ جسمه كله ، إن ستر رأسه أظهر رجله ، وإن ستر رجله أظهر رأسه . وإذا النبي يأمر بأن يستر الثوب رأسه وأن تغطي رجلاه بأوراق الشجر .

« لقد كان حمزة عم النبي وأخاه في الرضاعة ، وقد اجتمع مع النبي من جهتيه ، من جهة أبيه ومن جهة أمه ؛ فقد كانت أمه هالة بنت عم آمنة . ولقد كان النبي به رفيقاً وعليه شفيقاً وبولده برّاً . فأى عجب في أن يبلغ مصرع حمزة بالنبي صلى الله عليه وسلم طور الجزع الذي لم يألفه قلبه الكريم ، فيغضب ويثور ويُنذر ويوعد ، حتى إذا ردّه الله عن الغضب والثورة وعن الإيعاد والنذير عاد إلى المدينة وقد أقر الله في قلبه حزناً قوياً مقبياً ، قوامه الرحمة والحب . يمر ببني عبد الأشهل ،

فيسمع بكاء النساء على شهداء الأنصار ، فيقول هذه الكلمة البالغة التي لا أعرف أروع منها في تصوير الرحمة والحزن معاً : « لكن حمزة لا بواكى له !

وتبلغ هذه الكلمة آذان الأنصار وتنفذ إلى قلوبهم وتستقر فيها ، وتملؤها حباً لحمزة وحزناً عليه ، وإيثاراً للنبي ومشاركة له فيما يجد ، وإذا هم يأمرون نساءهم أن يذهبن إلى بيت النبي فيبكين عمه وأسده وصفيته وأخاه . وقد فعلن ، وتلقاهن نساء النبي فبكين ، ورضيت نفس النبي لذلك ، وامتلات له حناناً ووداً . ولكن الله يأبى على نبيه وعلى عباده حتى هذا الإغراق في الحزن ، وإذا النبي يصرف هؤلاء النساء رفيقاً بهن داعياً لهن ، فإذا أصبح صعد المنبر فهى عن إعلان البكاء أشد ما يكون النهى . ولكن كلمته قد استقرت في نفوس الأنصار ، وقد نفذت إلى قلوب الأنصاريات خاصة ، وقد توارثتها وتوارثن التأثير بها ، فما يموت من الأنصار أحد وما تبكى امرأة أنصارية على أحد إلا بدأت بحمزة فبكت عليه وذكرته بالخير ، ثم ثنت بصاحبها فسفحت عليه دموع الحب والحزن . وما أرى إلا أن هذا سيظل دأب الأنصاريات إلى آخر الدهر . أترون إلى العنف كيف يُعقب الرحمة ، وإلى الشدة كيف تُعقب اللين !!

« رحم الله حمزة ! لقد كانت حياته كلها عنفاً ، ولقد أصبحت آثاره كلها رحمةً وليناً . أتعرفون كيف أسلم حمزة ؟ لقد أسلم إسلام الفتيان أولى البأس والشدة وذوى الحزم والقوة أولئك الذين يأنفون الضيم ،

ويأبون الحسف ، ويغضبون للولى ويكرهون أن يؤخذوا بما لا يحبون .  
ولولا أن الله يكره مثل هذا التعبير لقلت إن إسلامه كان إسلام الحميئة  
والحفيفة . غضب لابن أخيه غضبة عربية قرشية ، وانتقم لابن أخيه  
انتقاماً عربياً قرشياً ، وسلك الله به إلى الإسلام أقرب الطرق وأدناها  
إلى قلبه القوي العنيف . كان فتى من فتیان قريش ، فيه عنفها ،  
وفيه شدتها ، وفيه صلفها ، وفيه أنفها ، وفيه حرصها ، وفيه إثارة لهذه  
الذات التي يؤثرها أصحاب المروءة والرجولة الكاملة . كان صاحب صيد  
وقنص ، يخرج للذته هذه من آخر الليل ويعود موفوراً مبتهجاً مع  
الضحى ، فلا يُلم بأهله حتى يذهب إلى المسجد ، فيقف على أندية  
قريش مسلماً متحدثاً ، ثم يطوف بالكعبة ثم ينصرف إلى داره وقد رضى  
عن نفسه وأرضى الناس عنها . وقد أقبل ذات يوم فأنبأته امرأة نبأ عظيم  
تغيرت له حياته كلها . كانت هذه المرأة مولاة لعبد الله بن جدعان ،  
وأكبر ظنى أنها كانت صاحبة دُعابة وغزل . وأكبر ظنى أن أبا جهل  
حين وقف إليها إنما وقف مداعباً مغازلاً طامعاً منها في شيء مريب .

« ويمرّ النبي صلى الله عليه وسلم فتمتلىء نفس أبي جهل غيظاً لمرآه على  
ما كان يُضمّر له من بغض وقل . وإنه لنى موقفه هذا المريب الذى  
لا يحسن بالأشراف من قريش إذ أخذ يؤذى النبي في نفسه بأشنع  
القول وأبشعه . ولكن الله قد أدب رسوله فأحسن تأديبه ، أمره بأن  
يأخذ العفو ويأمر بالعرف ويعرض عن الجاهلين ، فيمر بأبي جهل  
ويسمع منه وينصرف عنه معرضاً كريماً لا يُجيبه ولا يلتفت إليه .

ويقع هذا كله من نفس المرأة أشد المواقع وأبلغها . وأكبر ظنى أنها صدقت بعد ذلك عن أبي جهل صدوقاً وصرفته عن نفسها صرفاً عنيفاً . ومضى أبو جهل خزياناً حرجلاً ، حتى بلغ نادياً من أنديّة قريش فجلس مهموماً مخذولاً . . .

« ويقبل حمزة من صيده متوشحاً قوسه مبهجاً بما أصاب من لذة وما أنفق من نشاط ، فيمر بهذه المرأة في طريقه إلى المسجد ، وإذا هي تقفه ، وإذا هي تُنبئه بما رأت وما سمعت ، فيسمع منها ويمضى دون أن يجيبها ودون أن يلوى على شيء ، قد أضرم الله في قلبه نار الغضب هذه التي تطهر النفوس من الإثم وتزيل عنها الحوب وتردها إلى الحياة مرة ثانية نقية ناصعة كما برأها الله وقبل أن تعلق بها حبال الشيطان .

« ويمضى حمزة لا يلوى على شيء ، تتأجج في قلبه هذه النار المقدسة حتى يبلغ المسجد ، ويرى أبا جهل في ناديه فيقصد قصده ، حتى إذا انتهى إليه قام وراءه ثم ضرب رأسه بالقوس فشجه شجة بالغة ، ثم أعلن إسلامه وتحدي قريشاً وطلب إليها أن تردّه إن استطاعت عن هذا الإسلام . ويتواثب بنو مخزوم وقد غضبوا لأبي جهل ، فهم يريدون أن يمنعوه وأن يبطشوا بحمزة . ولكن أبا جهل يخذلهم ويردهم إلى الدعة والهدوء ، ويقول لهم : ” دعوا أبا عمارة ! فوالله لقد سببت ابن أخيه سبباً موجعاً “ . يكفهم عنه أبو جهل فرقاً وخزيماً وإشفاقاً أن يتكشف الحق ويظهر ما خفي من موقفه المريب ، وإن زعمت بنو مخزوم أنه إنما كفهم عنه إثارةً للعافية وإنصافاً من نفسه .

قال الأمير وهو يبتسم : « امض في حديثك أيها الشيخ فإننا نعرف بغضك لبني مخزوم » .

قال الشيخ : « في أي حديث تريد أن أمضي أيها الأمير ؟ لقد كان إسلام حمزة عزاً للنبي وأصحابه ، كف عنه كثيراً من أذى قريش . ولقد كان حمزة من هؤلاء المسلمين الذين عاشوا في مكة أعزّة أقوياء يجهرون بإسلامهم ولا يخافتون به والذين هاجروا من مكة في غير تحفظ ولا استخفاء . والله لم يُعزّر به الإسلام في مكة وحدها وإنما أعزّه به في المدينة . فلحمزة عقد النبي أول لواء في الإسلام ، وأفعال حمزة في بدر ما تعلم أيها الأمير ، وصرعى حمزة يوم بدر من تعلم أيها الأمير . ولو قد استشارنا معاوية قبل أن يحول شهداءنا عن مقابرهم التي احتفرها لهم الله ورسوله لقلنا له إنا نؤثر الظماً والجدب وسوء الحال على أن يُحوّل هؤلاء الشهداء أو تُنبش قبورهم ، ولقلنا له : إن بين هؤلاء الشهداء سيدهم حمزة ابن عبد المطلب قاتل شيبه بن ربيعة وعتبة بن ربيعة ، الذي صرعه وحشى وبقرت بطنه ولا كت كبده هند ! » .

وكان الشيخ حين انتهى إلى هذا الموضع من حديثه قد استحال استحالة كاملة ، فانحسر عنه ضعف الشيخوخة وارتفع صوته وثبت ولم يضطرب ، وأصبح كأنه النمر قد جرى فيه غضب وهياج وأخذت عيناه تقدحان شرراً ، وخيل إلى من حوله أنه قد عاد إلى شبابه حين كان من شجعان الأنصار وأبطالهم المقدمين يوم البأس .

قال الأمير وهو يبتسم ويملك نفسه : « حسبك أيها الشيخ ! لقد

بدأ أمر حمزة بالعنف ، وانتهى إلى الرحمة واللين ، وابتدأت حديثك ليناً رقيقاً ، وهأنت ذا تنتهى إلى العنف وتحبى ما حطّ الله عنا من حمية الجاهلية وعصبيتها !

« رحم الله حمزة ! فما ينبغي أن يثير ذكره شرّاً ، وما ينبغي أن يثير ذكره إلا المودة والرحمة والنصح للمسلمين ولأمير المؤمنين . وما يدريك ! لعل هؤلاء الشهداء أنفسهم لو استشيروا لأشاروا على أمير المؤمنين بأن يحملهم بعد موتهم هذه التضحية في سبيل المسلمين ! فهل كانت حياتهم إلا تضحية في سبيل الله ورسوله والمسلمين ! » .





## ذواجننا حین

مجلس

أقبلت تسمى رويداً رويداً مثل ما يسعى النسيم العليل ، لا يمسّ  
الأرض وقع خطاها ، فهي كالروح سرى في الفضاء . نشر الليل  
عليها جناحاً فهي سرّ في ضمير الظلام . وهبّت للروض بعض شذاها ،  
فجازاها ببناء جميل ، ومضى ينشر منه عبيراً مستثيراً كامنات الشجون .  
فإذا الجداول نشوان يُبدي من هواه ما طواه الزمان . ردت الذكرى  
عليه أساه ، ودعا الشوق إليه الحنين ؛ فهو طوراً شاحب قد براه من قديم  
الوجد مثل الهزال . صحب الأيام يشكو إليها بثه لو أسعدته الشكاة .  
وهو طوراً صاخبٌ قد عراه من طريف الحب مثل الجنون . جاش حتى  
أضحك الأرض منه عن رياض بهجة للعيون ، ونفوس العاشقين كُرات  
يعبث اليأس بها والرجاء ، كحياة الدهر تأتي عليها ظلمة الليل وضوء النهار .  
ولبث الشيخ مطرقاً تنغى في نفسه الكئيبة هذه الخواطر الحزينة التي  
تريد أن تبتمم فلا تجد إلى الابتسام سبيلاً ، ويخفق قلبه بهذه المعاني  
الشاحبة التي تريد أن تُشرق فلا تكاد تدنو من النور حتى يُلقمى  
بينها وبينه ستار رقيق من الظلمة يُدنياها منه ويُسنيها عنه ، ويغريها به  
ويزهدها فيه . ولم يكن يدري عنمن كانت تتحدث هذه الخواطر في  
نفسه المحزونة . ولم يكن يعلم إلى من كانت تشير هذه المعاني القائمة

في قلبه السقيم . وإنما أنفق يوماً بغيضاً مريضاً تتابعت عليه فيه الحموم ، وتواترت عليه فيه الأحزان ، وضافت عليه به الحياة . يوماً من هذه الأيام التي تُظلم على النفوس أشدّ الإظلام وإن صحا فيها الجو واعتدل فيها الإقليم ، وترقرق فيها ضوء الشمس يحمل على نفوس الغافلين لذة وبهجة وجمالاً . يوماً من هذه الأيام التي يشرق فيها وجه الطبيعة ، ويبسم فيها ثغر الحياة ، وتكاد النفوس الحرة تُقبل فيها على الأمل والعمل ، لولا أن طائفاً من السر يصدُر عن بعض النفوس الماهرة الماكرة ، فيحوّل إشراق الطبيعة ظلمة واكتئاباً ، ويردّ ابتسام الحياة إلى عبوس وتقطيب . والله قد امتحن أختيار الناس بأشرارهم ، وابتلى علماء الناس بجهالمهم ، وسلط على إخلاص المخلصين نفاق المنافقين ، وعلى جدّ أصحاب الجد والعمل كيد أصحاب الكيد والعجز . يطهر بهذه المحنة قلوبهم ، ويصنّف بهذه الفتنة نفوسهم ، ويبلو بهذه التجربة قدرتهم على الصبر ، وثباتهم للخطب ، ونفاذهم من المكروه ، وحسن استعدادهم للتضحية في سبيل ما يؤمنون به من رأى ، وما يسمعون إليه من خير ، وما يدفعون إليه من إصلاح .

وكان الشيخ قد استقبل يومه نشيطاً ، يريد أن يعمل كما تعود أن يستقبل أيامه ، مندفعاً إلى ما يُسرّ له من ألوان النشاط . ولكنه لم يكد يستقبل الضحى حتى جاءته الأنباء عن يمين وعن شمال بأن مُحبّاً تنجمع في الجو غير بعيدة ، وقد أخذ بعضها يركب بعضاً ، وجعلت ريح هوجاء حمقاء تجمعها وتدفعها ، تريد أن تسوقها إليه وتصبّ شرها

عليه ، فلم يحفل بذلك ولم يأبه له ؛ وأراد أن يمضى فيما كان بسبيله ، ولكن الأنباء تأتي بأن سحباً أخرى تتجمع ويركب بعضها بعضاً ، وبأن كيداً يكاد ، وشرّاً يراد ، وألواناً من المكر يهيا بعضها سرّاً ، ويهيا بعضها إعلاناً . وما هي إلا أن أقبل عليه المقبلون ، منهم من يُنذر ، ومنهم من يرثى ، ومنهم من يواسى ، حتى ضاق بهم جميعاً وبما يتحدثون عنه ويخوضون فيه . فانصرف إلى نفسه ، ولكنه لم يلبث أن ضاق بها . وانصرف إلى أهله ، ولكنه لم يلبث أن نبا عنهم . وانصرف إلى كتبه ، ولكنه لم يلبث أن زهد فيها . فهجر المدينة والتمس العزلة في مكان بعيد في طرف من أطراف الريف ، وقد قامت فيه شجرات خضر ملتفة الأغصان ، على جدول من الماء هادئ صافي الأديم ، يداعب النسيم صفحاته في رفق ، فيثير عليها أمواجاً صغاراً توشك أن تكون حباباً .

هنالك جلس الشيخ مع الأصيل ، وهنالك انصرف الشيخ عن نفسه وعن الناس ، وعن المدينة وأهل المدينة ، وعن الأعداء وما كانوا يأترون ، وعن الأصدقاء وما كانوا يدبّرون ، وفرغ لشجراته الخضر وجدوله الصافي ، وهذا النسيم العليل الفاتر يداعب أوراق الشجر وصفحة الجدول ، وضوء الشمس الحزينة المتهالكة يتبعها حزناً متهاكاً في طريقها إلى الغروب ، وهذه الطير الكثيرة ، قد أقامت على غصونها مترجحة في أناة وهدوء ، متغنية في شيء يُشبه الحزن والأسى كأنما كانت تودّع النهار كارهة للوداع ، وتستقبل الليل ضيقاً باستقباله .

وإذا نفس الشيخ تمتزج بهذه الأشجار الحضر ، وهذا الجدول الصافي ، وهذا النسيم الفاتر ، وهذا الضوء الشاحب ، وهذه الطير البائسة اليائسة . وإذا هذه الحواطر الحزينة تلم بنفسه ، وتخفق بقلبه ، وتبلع لسانه فيوشك أن يتحرك بها لولا أنه يُبغض أصوات الناس ، ويبغض صوت نفسه أيضاً ، فيسمع لهذه الحواطر تتحدث إلى نفسه وتبلغها من غير طريق الأذن . ويمضي في ذلك وقتاً لا يعرف أكان طويلاً أم كان قصيراً ، وقد نسي كل شيء ، ونفذ من كل شيء ، وخلا إلى غير شيء ، إن جاز أن يخلو الناس إلى غير شيء .

وها هو ذا يُفريق من حاله تلك التي لم تكن نوماً ولا يقظة ، والتي لم تكن غيباً ولا شهادة ، لا يدري كيف دفع إلى هذه الحال ، ولا يدري كيف خرج من هذه الحال . وأكبر الظن أن الصمت المتصل من حوله قد دعاه إلى نفسه أو دعا نفسه إليه ، فثاب الشيخ إلى نفسه أو ثابت نفس الشيخ إليه . وأكبر الظن أن هذه الحواطر الحزينة التي أطالت التردد بين نفسه وقلبه ، وأطالت الغناء في دخيابة ضميره ، قد دعت إليه هذه الصورة الغريبة الحميلة التي رآها ماثلة أمامه على الضفة المواجهة له من ضفتي الجدول ، يترقرق على وجهها الرائع البارغ غشاء رقيق هادئ من ضوء القمر ، الذي قام في مكانه من السماء يرسل أشعته المطمئنة في أناة وريث إلى الأرض ، كأنما يريد أن يداعب الأرض وما عليها بأشعته تلك مداعبة الساخر الماكر الذي لا يحفل بأحد ، ولا يحفل بشيء .

والغريب أن الشيخ لم ينكر هذه الصورة التي كانت ماثلة أمامه ولم يعرفها ، ولم يَضُقْ بمكانها منه ولم تنبسط نفسه لها ، وإنما نظر إليها فأطال النظر ، كأنما كان ينتظر زيارتها له وإمامها به . ونظر إليها دون أن يوجهَ إليها حديثاً ، كأنما كان ينتظر منها أن تبدأه هي بالحديث . وقد فعلتْ ؛ فهذا صوت حلو فائن رقيق يصل إلى الشيخ وقد مازجه همس الجدول الذي كانت أمواجه تصطفق كأنما تحمل النسيم سرّاً إلى الليل ، وإذا هذا الصوت الحلو الفائن يقع في نفس الشيخ موقع الماء من ذى الغلة الصادى ، فيردّ إليه حياته ونشاطه ، ويذكره بيومه المظلم وليلته المشرقة .

وإذا هو يسمع الصورة تسأله : « ما هذا الصمت الذى أنت مغرق فيه ؟ ! لقد دعوتنى إلى نفسك فأطلت الدعاء . وهأنا ذى أسعى إليك وألمّ بك وأقف منك غير بعيد ، فلا تحفل بى ولا تأبّه لى ، ولا توجه إلى حديثاً ولا تسألنى عن شىء . فقيم دعوتنى إذا ؟ وفيم تكلفتُ السعى إليك ؟ وفيم تجشمت في ذلك ظلمة الليل ؟ ! » .

قال الشيخ في هدوء ودعة : « أنا دعوتك يا ابنتى ؟ ! ومن تكونين ؟ »  
قالت : « فنّ هذه التى أقبلت تسعى رويداً رويداً ، مثل ما يسعى النسيم العليل ؟ »

قال الشيخ : « لا أدرى يا ابنتى ؛ لم أدعُ أحداً ولم أتحدث إلى أحد وإنما هى خواطر كانت تضطرب بها نفسى ، ومعان كان يخفق بها قلبى » .  
قالت الصورة : « فقلّ لى دعوت نفسى إليك ، أو لى دفعت نفسى

إليك ، أو إن مُقامك هذا بين هذه الشجرات الخضر ، وهذا الجدول النقي ، وهذه الطير النائمة ، وهذا الضوء الهادئ الذى ينحدر من القمر ، قد أعجبني فأقبلت أشاركك فى هذه العزلة ، وأتحدث إليك فى بعض ما يكون فيه الحديث . قال الشيخ : « ولكن من تكوينين ؟ »

قالت الصورة : « أحريص أنت على أن تعرفنى ؟ فقل لى أنا العزلة التى يفرغ إليها المكروب إذا ضاق بالأحياء والأشياء . وقل لى أنا الوحدة التى يفرّ إليها الإنسان من نفسه وأهله ، ومن الأعداء والأصدقاء ، ومن الخير والشر . وقل لى أنا الحرية التى يجدها الإنسان الفرد حين يفر من الجماعة إلى حيث يستطيع أن يفكر آمناً ناعم النفس رضى البال . وقل لى أنا العزلة والوحدة والحرية جميعاً قد ائتلف منها شخصى ، وتكونت منها نفسى . وقل - إن شئت - لى أنا الهجرة التى يفرغ إليها الناس حين يخافون على عقائدهم ، وحين يَضيقون بنفاق المنافقين وكيد الكائدين ، وحين يحسون أن لا مقام لهم فى هذه الدار أو تلك فيفرون منها إلى هذه الدار أو تلك . أنا الهجرة التى قد وُكِّلت بالأخيار إذا ضاقوا بالأشرار ، أو أسبهم أثناء المحنة وأسلبهم عن الفتنة ، وأصحابهم حين يخفون عن أوطانهم إلى أوطان أخرى ، فأونسهم فى الطريق ، وأردّ عنهم غوائل السفر ، وأتلقاهم فى مهاجرهم ، فأحجب إليهم أوطانهم الجديدة وأسلبهم عن أوطانهم القديمة ، وأفتح لهم أبواب الأمل ، وأمهد لهم سبل العمل ، وأنتهى بهم إلى ما هم أهل له من الفوز . قل لى أنا الهجرة التى تغناها شاعركم القديم حين قال :



وأصرف وجهي عن بلاد غداً بها لساني معقولاً وقلبي مقفلاً  
 وإن صريح الحزم والرأى لا مرؤ إذا بلغت الشمس أن يتحوّلاً  
 قال الشيخ : « لقد أذكرني بهذين البيتين من شعر أبي تمام  
 يا ابنتي وما كنت لهما ناسياً ولا عنهما غافلاً . ولكني لا أريد الهجرة  
 ولا أجد إليها سبيلاً لو أردتها . »

قالت : « فإنك لا تريد إلا الهجرة ، ولا تجد عن الهجرة مُنصرفاً .  
 ألم تهاجر إلى هذا المكان منذ الليلة ؟ ألا تهاجر إلى نفسك بين حين  
 وحين ، حين تضيق ببيتك التي تحيا فيها وتشقى بها ؟ فإني أونس  
 وحشتك حين تهاجر إلى نفسك في المدينة ، كما أونس وحشتك الآن  
 حين هاجرت إلى هذه الشجرات الخضر ، وهذا الجدول الناصع ، وهذه  
 الفضة المذابة التي تترقرق بين الأرض والسماء كأنما تحمل إلى نفسك  
 الثائرة رسالة الأمن والطمأنينة والهدوء والصفح عن الآثمين والإعراض  
 عن الجاهلين . استمع لي وافهم عني ؛ فكم صحبتُ من أخيار ضاقوا  
 بالحياة وضائق الحياة بهم ، فأنست وحشتهم ، وفرجت كربتهم ،  
 ولزمتهم رفيقة بهم عطوفاً عليهم حتى أبلغتهم مأمهم . وإني لأعرف  
 من أخبارهم وآثارهم ما هو خليق - إن قصصتُ بعضه عليك - أن  
 يسلى عنك الهم ، ويسرّي عنك الحزن ، ويعصمك من الشك ،  
 ويثبتك على اليقين ، ويمضي بك إلى الوجه الذي يسرك الله له ، حتى  
 تخرج من هذه الحياة وقد رضيت عن ضميرك ورضى ضميرك عنك  
 مهما يكن رأى الناس فيك .

« لقد صحبت فتى من قريش فيما مضى من سالف الدهر ما أنسيت صحبته قط . أردت أن أونسه فكان هو مؤنساً لى . وأردت أن أسلى عنه الهمم ، فلم أجد فى نفسه همماً أسليه عنه . إنما أقبل على محبباً لى مشغوفاً بى مؤثراً أباى على كل شىء . ولقد أبعدت به السفر ، ولقد أطلت عليه الغربية ، فما أشفق من سفر غير قاصد ، وما ضاق بغربة غير منقضية ، وإنما هاجر كلفاً بالهجرة ، مؤثراً لها على اليسير والعسير من الفتنة .

« كانت نفسه حلوة هادئة ، فأبت أن تمزج حلوة الإيمان بمرارة الفتنة ، وأن تخلط هدوء اليقين بعنف الجدال فيه . كان من السابقين لى الإسلام . رأى ابن عمه يدعو فاستجاب له عن حب وصدق ويقين . ومضى على الوفاء لما أقبل عليه من هذا الدين الجديد ، يؤثر التقوى الخالصة والإيمان الهادئ المطمئن على كل شىء . فلما اضطرب الأمر من حوله ورأى اضطهاد قريش للمسلمين ، ورأى ثبات المسلمين للمحنة وإلحاح قريش عليهم فيها ، صبر كما صبروا ، واحتمل كما احتملوا ، ولقى فى ذات الله مثل ما لقوا ، حتى إذا أذن الله للمسلمين فى أن يفرّوا بإيمانهم لى حيث الأمن والهدوء - إن أرادوا - هاجر من مكة تاركاً وطناً أحبه وعشيرة آثرها ، وحياة نعم بما لى فيها من ضروب الشدة واللين . هاجر فيمن هاجر من أصحاب ابن عمه لى أرض بعيدة نائية .

« صحبتته فى سفره ذاك ، ورأيته يتجشم مع أصحابه أهوال البر والبحر فاراً بدينه من الفتنة ، مؤثراً أن يعبد الله فى دعة ، وأن ينشر دينه فى هدوء وسلم . ولقد وأطال المقام ، وأحبّ الغربية حتى ألفها أو كاد يالفها .

ولكني كنت ألزمه وأهون عليه من مشقة الغربية ما قد يكون عليه عسيراً . حتى إذا أذن الله لنبيه في الهجرة ، واستقرت أمور الإسلام في المدينة ، وأظهر الله دينه على كثير من بيئات الشرك والكفر ، جعلت أغرى صديقي بالانتقال من غربة إلى غربة ، والالتجاء من وطن جديد إلى وطن جديد ، وما بلغت منه الرضا بذلك إلا حين استوثق من أنه لن يفارقني ولن يقصّي عني ، ولكنه سيظل مهاجراً .

« سينتقل من هجرة الحبشة إلى هجرة المدينة حيث يستطيع أن يعبد الله آمناً راضياً مطمئناً في ظل ابن عمه وبين أصحابه وذوى قرابته ، وحيث يستطيع أن يُبلى في ذات الإسلام كما أبلى غيره من المسلمين ، وأن يحتمل من أعباء الجهاد مثل ما احتملوا .

« لقد صحبته مرتحلاً إلى الحبشة ، فصحبت مؤمناً يفرّ بإيمانه إلى الطمأنينة وفي نفسه حسرات . ولقد صحبته في عودته إلى المدينة ، فصحبت مؤمناً يعود بإيمانه إلى مستقر الهدى ومشرق النور ، وإن في قلبه لجدوة تضطرم شوقاً إلى ابن عمه ، وطموحاً إلى الأخذ بحظه من أنقال الجهاد . »

ثم سكت الصوت الهاديّ الحلو قليلاً ، ومضى الجدول يتغنى شكاته المتصلة ، ومضى النسيم يداعب الجدول مترقياً به ، ويحرك الأغصان خفة ، فيسمع لها وله حفيف وهفيف يمتزجان بشكاة الغدير ، فيبعثان أنغاماً عذبة ، كأنما كانت صلاة حلوة على روح ذلك المهاجر الكريم . ثم ارتفع الصوت الحلو في أناة وهو يقول : « لقد رأيتك حين بلغ المدينة

وكان ابن عمه عائداً إليها ، وقد فتح الله عليه ما فتح من حصون خيبر وثبت أمره ، وأعلى كلمته ، وإذا ابن عمه يلتزمه ويقبل بين عينيه ويقول : " ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً : بفتح خيبر ، أم بعودة جعفر " .  
 « ولكن صحبتي له لم تنته ، وإنما لزمته في مهاجره الجديد ، ونعمت بلزومي أياه بما كنت أرى وبما كان الناس يرون من بره بالضعفاء ، ورفقه بالمساكين ، ورحمته للبائسين ، وإيثاره أصحاب العوز على نفسه وعلى أهله ، بما كان الله يتيح له ولهم من الكثير والقليل ، حتى كناه ابن عمه بهذه الكنية الحلو " أبي المساكين " .

« ثم صحبتته إلى رحلته الكبرى ، صحبتته حين جهز النبي جيشه إلى مؤتة ، وكان في نفسه شيء حين أمر ابن عمه عليه زيد بن حارثة . وقد كلم النبي في ذلك ، فقال النبي له في صوت يملؤه الحب والحنان والإشفاق : " امضه فإنك لا تدري أي ذلك خير " .

« لقد عرفت دخيلة نفسه ، وسمعت نجوى ضميره بعد هذا الحديث إنما كان الشوق إلى حسن البلاء واحتمال أثقال الجهاد هو الذي دعاه إلى أن يعاتب النبي في تقديم زيد عليه . كان يؤثر زيدا والمسلمين ، ويريد أن يقدم عليهم نفسه إلى المكروه . فلما رده النبي عن ذلك كانت نفسه تتأذى مخافة أن تُنظن به الأثرة ، وما أراد إلا الإيثار . وكانت نفسه تتحرق شوقاً إلى أن يلقي من الأذى في سبيل الله مثل ما لقي زيد وأصحاب زيد . ولقد رأيت حين تقدم زيد فقاتل حتى قُتل وأن له أن يأخذ الراية ، وكان على فرس له ، فينزل عن فرسه ويعقره

ويكون أول عاقر في الإسلام ، ويتقدم بالراية فيقاتل حتى تُقطع يده ،  
وحتى تأخذه السيوف والرماح والسهام ، وحتى يُصرع كما كان يريد  
أن يصرع شهيداً . ولولا ما أنبا النبي به مما صار إليه من نعمة الله عليه ،  
لما تعزيت عن الحزن الذي ملأ نفسه لمصرعه . ولكن كيف السبيل  
إلى الحزن على الشهداء الذين لا يكادون يموتون حتى يُردوا إلى الحياة  
وإذا هم أحياء عند ربهم يرزقون !! كيف السبيل إلى الحزن على شهيد  
لم يدركه الموت حتى رُفع إلى السماء ، وأنبا النبي بأن الله قد عوضه من يديه  
جناحين مخصوبين بالدماء يطير بهما في الجنة فيتبوا منها حيث يشاء .  
« وكم من أحاديث لأولئك النفر من أصحاب محمد الذين هاجروا قبله  
والذين هاجروا معه ، والذين هاجروا بعده ، لو قصصتها عليك أيها  
الشيخ لمحت من نفسك كل موجدة ، ولنقيت قلبك من كل حفيظة ،  
ولأقررت في نفسك أنى أحق بحبك ومودتك !! » .

قال الشيخ : « حسبك ! فقد بلغت من ذلك ما تريد » .

قالت : « فادعني إذا أحسست ألماً أو كرباً ، فلن تجد مثلي  
صديقاً رفيقاً » .

وأخذ اصطفاق الجدول يرتفع شيئاً ، ويرتفع معه حفيف النسيم  
وحفيف الغصون ، وغناء متقطع ضئيل ينبعث من أجواف الطير النائمة ،  
وهذا سهم وردى نحيل ينفذ في جوف الليل قليلاً ، ولا يكاد يتقدم حتى  
يتسع شيئاً فشيئاً ، وحتى ينهزم الليل أمامه مضطرباً مروعاً ، وهذه  
الصورة تحيي الشيخ في صوت ضئيل نحيل يبعد عنه شيئاً فشيئاً حتى

ينقطع . وهذه أصوات ترتفع متجاوبة حول الشيخ تأتيه من بعيد ، من هذه القرى الكثيرة المنبثة في الريف . وهذا الشيخ ينظر من حوله فيرى آية النهار المبصرة جادة في محو آية الليل المظلمة ، فينهض متثاقلا وقد غسلت هذه الليلة نفسه من أوضاع المدينة ، واستقبل الحياة كأنه ولد لساعته . وما هو ذا يمضي نحو المدينة هادئاً رزيناً ، وإنّ نفسه لتتغنى :

« أقبلت تسعى رويداً رويداً مثل ما يسعى النسيم العليل ! »

## حدیثِ عدّاس

تصحح روحه أحياناً بواقع منبوية حتى تتلخخ كاليه من جود حسن  
عند شوق الكثرة ليلته في كل يوم من الدنيا بغير من جوده حتى  
أنه تبارك المبرور من الأذى من أوقات الضيق واليأس من الأذى  
عند هذه الحالة فهو من أوقات الضيق واليأس من الأذى  
تصاحبه روحه من الأذى من أوقات الضيق واليأس من الأذى  
والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب



قال عتبةُ بن ربيعة لأخيه شيبَةَ : « انظر إلى هذا الرجل المقبل على حائطنا<sup>(١)</sup> ومن ورائه السفهاء والعبيد قد أغروا به وُسَلطوا عليه ، فهم يؤذونه بالسنتهم ، وهم يؤذونه بما يحصبونه من الحصى والأحجار ؛ ألا تُثبته<sup>(٢)</sup> ؟ » . قال شيبَةَ وقد نظر وأطال : « بلى ! والله إنى لأعرفه كما تعرفه ، وإن قلبي ليرق له كما يرق له قلبك ، وإن نفسي لتثور غضباً له كما تثور نفسك . ولقد هممت وما زلت أنزع نفسي أن أفزع إلى نصره وجواره وحمايته من حلماء ثقيف وسفهاها ، لولما بينه وبين قومنا ، ولولا أنى أعلم أننا إن فعلنا كان لنا مع قومنا أمر عظيم ونخطب جليل » . قال عتبة : « وارضمتاه لابن عمنا من قومنا ! ثم وارضمتاه لقومنا من أنفسهم ؛ ما كنت أحسب أن يبلغ الأمر بقريش أن يذلّ عزيزها ونحن شاهدان ، وأن يجترئ حتى من أحياء العرب وإن كان ثقيفاً ، على أن يسوءوا رجلاً من قريش وإن كان مُستضعفاً مهيناً ، فكيف بابن عبد المطلب وابن أخى حمزة والعباس ! ! » .

وكان هذان الرجلان من أشرف قريش ، قد ذهبا إلى بستان لهما في الطائف يصلحان من أمره وأمرهما ، ويهيئان لتجارتهما ، يجمعان

(١) الحائط : البستان .

(٢) ثبته : تعرفه حق المعرفة .

ما تُنفذه ثقيف من تجار قريش إلى اليمن في رحلتها إلى اليمن ، وإلى  
 الشام في رحلتها إلى الشام . وكانا قد أقاما في الطائف أياماً ، وأقبل في  
 أثناء ذلك النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على ثقيف يلتمس عندهم  
 النصر والعون والحوار ، بعد أن تنكرت له مكة بطاحها وظواهرها ،  
 وبعد أن تنكر له الناس حتى أقربهم إليه وأدناهم منه ، وبعد أن فقد  
 عمه الذي كان يمنعه ويقوم دونه ، وبعد أن فقد زوجه التي كانت ترعاه  
 وتكأؤه وتحوطه بالرحمة والحب والحنان . وكان قد لزم داره بعد هاتين  
 الكارثتين ، لا يكاد يبرحها خائفاً محزوناً ، حتى أقبل عليه عمه أبو لهب  
 فأمنه وأعلن إليه أنه يقوم من حمايته بما كان يقوم به أبو طالب ، فسرى  
 عن النبي الكريم شيئاً واستأنف الخروج من داره والذهاب إلى المسجد  
 والاضطراب في مكة . ولكن قوماً من قريش ألقوا على أبي لهب حتى  
 غيرهه على ابن أخيه ، فاسترد جواره وحمايته ، وعاد إلى مثل ما كان  
 عليه قبل أن يموت أبو طالب . فلما ضاقت مكة بنحير أبنائها خرج إلى  
 الطائف يلتمس جوار ثقيف ، فأقام فيهم ما شاء الله أن يقيم ، يسعى  
 عند هذا ويلطف لذاك ، وكلهم يردّه وكلهم يمتنع عليه . وكان مقامه  
 فيهم قد أخافهم وثقل عليهم وأثار في نفوسهم إشفاقاً أن يصيب مدينتهم  
 ما أصاب مكة من اضطراب الأمر وانتفاض الضعفاء على الأقوياء ،  
 واستجابة قوم لهذا الرجل الذي أنكره قومه ولم تره مدينته إلا ما يكره  
 فتقدموا إليه في الرحيل عنهم . ولم يكذب يفعل حتى أغروا به سفلة الناس  
 وسفهاءهم ، فتبعوه يؤذونه بالقول والفعل حتى ألقوه ضعيفاً مكدوداً

وكتيباً محزوناً إلى حائط هذين القرشيين . وأقبل النبي وقوراً هادياً  
الخطا مطمئن النفس ، تظهر على وجهه الكريم آيات الضعف وآيات  
القوة ، وآيات الحزن وآيات الرجاء .

ضعف مصدره الجهد والعناء . وقوة مصدرها الحزم والعزم . وحزن  
مصدره الرحمة لهؤلاء الذين يدعوهم إلى الخير فيبغونه بالسوء ، ويرشداهم  
إلى النجاح فيريدونه بالمكروه . ورجاء مصدره الثقة بأن الله لم يختره  
لرسالته ليخذه قبل أن يتم أمره ويعلى كلمته ويظهر دينه على الدين كله ،  
وبأن الله لا يصيبه بما يصيبه به من المكروه إلا امتحاناً لقلبه ، وابتلاء  
لنفسه ، وتمحيصاً لطبعه .

أقبل هادئاً والناس من ورائه مضطربون ، مستأنياً والناس من  
ورائه مسرعون ، حتى انتهى إلى ظل من ظلال البستان ، فجلس متعباً  
مكدوداً ، والقرشيان ينظران إليه ويرقان له ويعطفان عليه وينازعان  
نفسيهما إلى نصره ومعونته ، وقد كادا يفعلان لولا أن ذكرا قريشاً ، ولولا  
أن ذكر عتبة بن ربيعة صهره أبا سفيان ، وقدّر ما يلقاه وما يلقاه أخوه  
من قريش إن منح محمداً معونة أو نصراً . ولكنهما رأيا ابن عمهما  
يأوى إلى ظلالهما مكروباً محزوناً ، فلم يملكا أن يمتنعا من أن ينالاه  
بأيسر الخير وأهون البر ، فيدعوان عدّاساً (عبداً من عبدهما) ويأمرانه  
أن يحمل إلى هذا الرجل الضعيف المكدود شيئاً من عنب البستان  
ليصيب منه . ويمضى العبد منفذاً أمرهما . ولكنهما لا يستطيعان أن  
ينصرفا عن مكانهما ولا أن يحولا بصرهما عن ابن عمهما ، وقد أهينت

فيه قریش كلها لولا أن قریشاً قد احتفظت بأحلامها . فهما ينظران  
 ويرثيان ويعمل الأسي في قلبيهما . والعبد يسعى بالطبق إلى هذا  
 الرجل المحزون ، حتى إذا انتهى إليه أقبل الرجل على العنب يريد أن  
 يصيب منه والعبد قائم منه غير بعيد . ولكن القرشيين ينظران فيريان عجباً :  
 يريان كأن حديثاً قصيراً قد دار بين الرجل وبين هذا العبد ، ثم يريان  
 العبد وقد أكبّ على هذا الرجل الحزين يقبل رأسه ويديه ورجليه باكباً  
 مستعبراً مندفعاً في حديث لا يكاد ينتضي ، مظهراً من التكرمة والإجلال  
 لهذا الرجل ما لم يتعود أن يظهره لأحد من سيديه . فيقول أحد القرشيين :  
 « ويحك ! لقد أفسد علينا ابن عمنا هذا العبد ! وما أرى إلا أن ثقيفاً  
 معذورون إن خافوا منه على عبيدهم وضعفائهم وأقويائهم أيضاً ما خفنا  
 نحن منه على العبيد والضعفاء والأقوياء ! » . وهذا الرجل قد نهض وقوراً  
 هادئاً ، ومضى العبد معه شيئاً من الطريق ثم وقف يشيعه بطرفه حتى  
 غاب عن طرفه وعن طرف القرشيين .

هنالك عاد العبد إلى سيديه ، وفي وجهه آيات الكآبة والحزن ،  
 وفي وجهه مع ذلك آيات الطمأنينة والرضا ، ودموع تجرى من عينيه  
 لم يدريا أكانت دموع حزن وابتئاس ، أم كانت دموع غبطة وابتهاج .  
 يقول عتبة بن ربيعة للعبد رفيقاً به عطوفاً عليه : « ويحك  
 يا عدّاس ! إن لك مع هذا الرجل لشأناً ، فاقصص علينا بدء حديثك  
 فقد رأيناك حفيماً به متلطفاً له مكباً عليه ، تقبله باكباً مواسياً ثم  
 مرافقاً له تشيعه بشخصك ثم بطرفك » .

قال العبد : « نعم يا مولاي ! إن لي مع هذا الرجل لشأناً وحديثاً عجباً . وأحسب إلى أن أقص عليكما حديثي . ولكن أيّ حديثي تريدان ؟ أتريدان حديثي منذ اليوم ، أم تريدان حديثي القديم الذي مضت عليه أعوام طوال ، والذي دفعني إلى بلادكم هذه ، والذي اضطرني إلى ما أنا فيه من رقّ وإلى أن أعمل لكما بيدي في هذا البستان ، وما عملت لأحد قبلكما بيدي وما عملت لنفسي بيدي ، وإن كان الناس ليعملون لي كما أعمل لكما الآن ؟ » .

قال عتبة وقد ثارت في نفسه طبيعة العربي الذي أترف وفيه فضل من بدائة ، فهو مشغوف بالقصص ، كلف بغريب الحديث : « وإن لك لحديثاً قديماً بينه وبين حديثك هذا الحديد سبب ؟ » .

قال عدّاس « نعم » . قال عتبة : « فاقصص علينا حديثك » . وأخذ القرشيان مجلسهما استعداداً لسماع الحديث ، وهمّ العبد أن يبدأ حديثه قائماً ، ولكنهما أذنا له في الجلوس فجلس ، وأطرق وأغرق في صمت غير طويل ولكنه كان عميقاً ، ثم قال : « لقد انتهيت إلى هذا الرجل منذ حين ، فسمعته يقول كلاماً ما أعرف أن الناس يقولونه أو يقولون مثله في هذه الأرض . فلما سألته عن ذلك حدثني بحديث ما يعرفه إلا نبي . وكان حديثه هذا مني على ميعاد ، أو كنت أنا من حديثه هذا على ميعاد . لقد سألتني سؤالاً لم يسألني أحد منذ وطئت هذه البلاد . سألتني عن موطني الذي نزلت منه ، فأنبأته بما لا تعلمان وبما يحسن أن تعلماه الآن ، وهو أني رجل من أهل نينوى ، نشأت

في بيت من بيوت الأحرار الذين إن لم يُتَح لهم الملك والإمارة فقد  
 أتبعحت لهم الثروة والغنى . وكنت موفور الحظ من النعمة وحسن الحال  
 فارغاً لما يفرغ له أمثالي في تلك البلاد من تقسيم الوقت بين لذة الجسم  
 ولذة العقل ، أهو ماوسعني اللهو ، ثم أقرأ وأختلف إلى مجالس العلماء  
 والفلاسفة من القسس والرهبان ، فأسمع منهم وأتحدث إليهم وأخذ معهم  
 في ألوان من الجدل حول ما يختلف الناس فيه عندنا من أصول الدين والعلم .  
 وأنا لا تعلمان من أمرنا في تلك البلاد إلا قليلاً ، إنما تُعنيان ويُعني  
 قومكما بما تحملون إلينا من تجارة وما تصدرون به عنا من مال ، وما  
 تُصيبون في بلادنا من هذه اللذات اليسيرة . فأما ما دون ذلك فليس لكم به  
 علم وليس لكم عنه سؤال . ولو قد دخلتم في حياتنا وعرفتم دقائق أمرنا ،  
 لرأيتم أن في نفوسنا اضطراباً شديداً وغلياناً متصللاً وضيقاً بالسلطان ،  
 وتمرداً على النظام ، وإنكاراً لما ورثنا من عادة وشكاً فيما تلقينا من دين .  
 « ساءت فينا سيرة السلطان فنقمنا من نظام الحكم . وساءت فينا  
 سيرة القسس فشككنا في الدين . فأما العاجزون فقد أعطوا طاعة  
 ظاهرة وأضمرنا عصياناً خفياً وعكفوا على اللذات يستعينون بها على  
 احتمال الحياة . وأما الأقوياء وأولو العزم فقد فكروا وقدروا ، وجدوا  
 في التفكير والتقدير يلتمسون فرجاً من حرجٍ ومخرجاً من ضيق .  
 وكنت فيما رأيت من هؤلاء . فلما ضقت بالحياة في مدينتي ولم أجد  
 عند علمائها وقسسها شيئاً ، خرجت مسافراً إلى الشام أتمس في السياحة  
 تسلية وعلماً ، وأبتغي فيها ظفراً بالخير . ولست أقص عليكما رحلتي إلى

الشام ومنازل في طريق إليها ، واضطرابي في مدنها وقراها ، وبأسي  
 من قسستها وعلمائها ، وضيقى بسادتها وحكامها ، ولكنى انتهيت بعد  
 كثير من الاضطراب إلى دير من الأديار يقوم في آخر العمران وأول  
 الصحراء مما يلي بلادكم هذه . وأقمت في هذا الدير دهرًا ، راضياً عن  
 حياته الهادئة المطمئنة ، راضياً عن حياة أهله الآمنين الوادعين الأخيار ،  
 ناعم النفس بعشرتهم ، مستمتعاً بأحاديثهم . ولكنى سمعت من  
 أحاديثهم عجباً : رأيت لهم فيما بينهم أمراً يتحدثون عنه بالرمز ، ويومنون  
 إليه بالإشارة . ورأيت حديثهم هذا الرمزي يكثر ويشتد إمعانهم فيه  
 كلما مرت بديرهم قافلة من قوافلكم هذه التي تتردد على بلاد الروم .  
 رأيتهم يعرفون أبناء هذه القوافل قبل أن تصل إليهم ، فيتهيئون لها  
 ويستقبلونها ويكثرون من سؤالها ويظهرون الحفاوة بها ، ثم يخلو بعضهم  
 إلى بعض ، فيتبادلون بينهم أحاديث الرمز والإشارة والإيماء ، ويقول  
 بعضهم لبعض : لم يأت النبأ بعد ، أو يقول بعضهم لبعض : لقد  
 انقطع النبأ بعد أن جاءت بشائره . فلما كثر على منهم ذلك أزعجت أن  
 أعلم علمه ، فتلطفت لهم وتوسلت إليهم حتى عرفت أنهم ينتظرون  
 إصلاحاً دينياً ذا بال ، وأنهم قرءوا في كتبهم أن هذا الإصلاح  
 يأتيهم من قبل هذه البلاد ، وأنهم حسبوا وقد رآوا أن زمان هذا  
 الإصلاح قد أظلم الناس ، وأن أنبياء قد انتهت إليهم وأحاديث قد  
 نقلت لهم ، وكلها يدل على أن أوان هذا الإصلاح قد آن . قصوا على  
 من هذه الأنبياء والبشائر أطرافاً ، فلم أملك أن كلفت بالرحلة إلى بلادكم ،

وقلت : ما يمنعني أن أبعد في السفر ؛ وما يمنعني أن أتصل بقافلة من قوافلكم هذه فأبلغ معها هذه الأرض ، فأعلم من علمها . وأصيب من تجارتها ! ولعلی أظفر بما يتحرق إليه هؤلاء الرهبان شوقاً . وأنتما تعلمان كيف كان الاتفاق بيني وبين تلك القافلة التي أمتنتي على نفسي ومالي ، وضمنت لي أن أبلغ بلادكم هذه موفوراً فأصيب من تجارتها وأعود معها من قابل إلى الشام ، حتى إذا بعدنا عن بلاد الروم وانقطعت أسبابي من أسباب قيصر ، عدا أهل هذه القافلة على مالي فاحتجزوه ، ثم عدوا عليّ فاتخذوني وباعوني من صاحبكما ذلك الذي اشتريتماني منه قريباً من يثرب . « فهذا بدء حديثي أيها السيدان . وقد عملت في بستانكما أعواماً ، وكان الناس يتحدثون من حولي بهذه الأحداث التي تحدثت في مكة ، ويتناقلون من حولي أنباء هذا الرجل الذي ينكر الأوثان ويدعو إلى التوحيد ، ويريد أن يُنصف المظلوم من الظالم ، والعبد من السيد ، ويسوّي بين الضعيف والقوى . وكان الناس يتحدثون من حولي بما يلقي هذا الرجل في بلده من شر ، وما يُمتحنُ به أصحابه من ألوان الفتنة . وكنت كلما سمعت هذه الأحاديث هشتت لها ، وطابت بها نفسي ، وأحسست أن النبا الأعظم قريب . وكنت أقدر أن صاحب هذا النبا يجب أن يكون كإخوانه الذين سبقوه عالماً بدين الله داعياً إليه ، مخبراً عن أنباء الأولين بما لا يخبر به الناس . وكم وددت لو أتيت لي أن أنحدر إلى مكنكما هذه فأسأل صاحبكما وأسمع منه ، ولكن الرق في بلادكما شديد ؛ فنحن أرأف منكم بالرقيق وأعطف منكم



عليه . وقد لبثت في بستانكما هذا أسمع الأنبياء وأتمسها وأتحرق شوقاً إلى مصدرها ، حتى أقبل صاحبكما هذا منذ حين . ولقد رثيت له حين رأيته وأوشابُ الناس من حوله يؤذونه بألسنتهم وأيديهم . ولقد هممت أن أفزع لنصره والذود عنه ، وما كنت أعلم من أمره شيئاً ، ولكنها الرحمة عطفتنى عليه . ولقد هممت أن أستأذنكما في إيوائه وإيثاره بشيء من القيرى ، ولكنى رأيتهما تنظران وتتحدثان ولا تنشطان ، ثم أمرتمانى بالسعى إليه . فلما بلغته سمعت منه كلاماً ما سمعت مثله في هذه الأرض . فلما سألته عن ذلك سألتني عن موطنى ، فلما أنبأته به قال : " هذا موطن يونس نبي الله " . فما شككت في أنه صاحبي الذي أقبلت أتمس أنبائه .

قال عتبة : « ويحك يا عدّاس ! إن حديثك هذا لعجب ، ولكننا نخشى أن يفسد عليك صاحبنا دينك ، وإن دينك لخير مما يدعوا إليه » .

قال عدّاس : « مهلاً يا سيدى ؛ إن الذى يقول ما سمعت لا يدعوا إلى شر ولا يغرى بفساد ، ولا يأمر إلا بمعروف ، ولا يقول إلا حقاً » . قال شيبه :

« ويحك يا عدّاس ! لقد سمرك صاحبنا فيمن سحر . فإذا سمعت منه ؟ »

قال عدّاس : « بل لقد هدانى فيمن هدى . ولقد سمعته يناجى ربه بحديث ما سمعت أعذب منه ، لقد حفظت حديثه ، وإنك لتعلم ما أنا بالعربى ، وما حفظ أحاديثكم على بيسير » . قال عتبة : « فهات أعدّ علينا ما سمعت » .

قال : سمعته يقول : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين . أنت ربّ المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ! إلى بعيد يتجهمنى ، أو إلى عدو ملكته أمرى ! إن لم يكن بك

على غضبٍ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي  
 أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ،  
 أو تحل عليّ منخطك ، لك العتيبي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .  
 ولم يفرغ العبد من هذا الحديث حتى أغرق في بكاء هادئ ،  
 وأغرق سيده في وجوم عميق . ثم ثاب القوم جميعاً إلى أنفسهم ، ونظر  
 القرشيان أحدهما إلى الآخر نظرة المستخذي الأسف . ثم قال عتبة  
 لعدّاس : « أنت وما تشاء يا عدّاس من حب صاحبك وطاعته . ولكن  
 لا تنس أن لنا عليك حقاً وطاعة . وإنا حريصان على ألا نظهر من  
 أمرك شيئاً فتضطرنا فيك إلى ما نكره ، وتضطر قومنا فينا إلى ما نكره .  
 ومضت أعوام وحدثت أحداث ، ونظر العبد الشيخ ذات يوم فاذا  
 محمد صلى الله عليه وسلم قد ضرب عسكره حول الطائف يحاصر فيها  
 ثقيفاً ، وكان عدّاس قد انتقل من ملك ابني ربيعة بعد موتها إلى  
 الثقيبيين ، وإذا نفسه تنازعه إلى صاحبه ، وإذا هو يحرّض الرقيق  
 ويبث فيهم الدعوة إلى الخروج على ساداتهم واللحاق بجيش المحاصرين ،  
 وإذا نفر من الرقيق يجتمعون إليه ، وإذا هم يقتحمون الأسوار ويهبطون  
 إلى العسكر مسرعين ، وترميهم مقاتلة ثقيف بالنبل فتصرّع منهم جماعة  
 فيهم عدّاس ، قد مات قبل أن يبلغ صاحبه العظيم ، ويخلص سائرهم إلى  
 النبي فيهدبهم إلى الإسلام ويردّهم إلى الحرية ، وينصرف عن حصار  
 الطائف ، حتى إذا أسلمت ثقيف تكلمت في رقيتها أولئك وأرادت ردهم  
 إلى الطاعة ، فيقول النبي الكريم : « كلا ! هؤلاء عتقاء الله . »

مصعب بن عمير



كان غضب الشباب ، معتدل الخلق ، فاضر الوجه ، مشرق الجبين .  
 وكان عذب الصوت ، حلو الحديث ، لا تكاد تقع عليه العين حتى  
 تهواه النفس ، ولا يكاد صوته يقع في الأذن حتى يصبو إليه القلب .  
 وكان حسن الزمى معنياً بشبابه وشكله عناية ظاهرة ، لا يكاد يراه الراى  
 حتى يعلم أن له حظاً من نعمة ، وفضلاً من يسار . وكان طيب النشر ،  
 لا يمر بمجلس من مجالس قومه إلا قالوا هذا مصعب بن عمير مقبلاً !  
 يستدلون عليه بما يتقدم من بين يديه من عرف يتأرجح به الهواء . كان  
 أبواه يحبانه ويؤثرانه ، وكانت أمه خاصة تقف عليه حبها وحنانها ،  
 وتختصه بعنايتها ، وتحكمه في ثروتها الواسعة ومالها الكثير .

وكان لهذا كله أحدىثة قريش وهو موضوع أسمارها ، تُعجبُ بجماله  
 البارع ، وشبابه الرائع ، وحسن بزته ، وكثرة ماله ، حتى كان النبي صلى  
 الله عليه وسلم يتحدث عنه إلى أصحابه ، ويُعجب منه بما يُعجب منه الناس ؛  
 وكان سمح الخلق ، رضى النفس ، صافى الطبع ، مهذب المزاج ، فلم يكن  
 يكلفُ بما يكلف به فتیان قريش من الصيد والقنص ، ولم يكن يألف  
 ما كان يألفه كهول قريش وشيوخها من حديث المال والأعمال ، وإنما  
 كانت قصاراه حياة هادئة وادعة ، قواءها حسن العشرة وصفوا الحديث .

أقبل ذات يوم على المسجد في الضحى ، وكان فارغ البال ، راضياً  
 عن نفسه وعن الناس وعن كل شيء . وكان يتردد في جو مكة  
 نسيم بارد يبعث في الأجسام نشاطاً للحركة ، وفي النفوس ميلاً إلى هذا  
 التفكير الذى لا رزاة فيه ولا هدوء ، وإنما هو تفكير سريع ، أوضح  
 مظاهره الحديث والحوار . وكان قد لقي طائفتين من الرفاق الذين  
 خرجوا يدفعهم هذا النشاط إلى أن يلمسوا ما ينفقون فيه فضل ما  
 يجدون من قوة في الجسم والعقل . فأما إحداهما فكانت تهباً للصيد ،  
 وأما الأخرى فكانت تسعى إلى حانة من حانات اللهو عند رومى كان  
 يبيع في مكة نبيذ الشام . دعت إحدى الطائفتين إلى الصيد فنفر منه ،  
 ودعت الأخرى إلى الشراب فامتنع عليها . كان لا يحس من نفسه  
 حاجة إلى هذه اللذة الآثمة التى يجدها أصحاب الصيد فى سفك دماء  
 الحيوان البرىء ، وكان لا يجد راحة إلى هذا اللهو الذى يلعب فيه  
 عقل العاقل وحلم الحلیم بين الكؤوس والأقداح . وأعرض عن أولئك  
 وهؤلاء ، ومضى أمامه إلى المسجد كأنه آثر الاستماع إلى أندية قريش  
 وهم يتحدثون فيما يعرض لهم من الأعمال اليسيرة أو الخطيرة . على أنه  
 لم يكذب يبلغ المسجد ويتقدم فيه حتى سمع حواراً لا يخلو من عنف ،  
 فاستبشر ومضى نفسه ساعة قيامة خصبة . وما كان ألد الحوار يشترك فيه  
 شيوخ قريش إذا جدوا ! وما كان ألد الحوار يشترك فيه شيوخ قريش  
 إذا هزلوا أيضاً !

أقبل الفتى حتى دنا من أحد هذه الأندية ، فجلس غير بعيد واستمع

للقوم ، فإذا هم يختصمون في هذا الرجل الذي أحدث في مدينتهم حدثاً ليس منهم إلا كاره له ساخط عليه ؛ لأنه يغيّر ما ألفوا من دين ، وينكر ما ورثوا من سنة ، ويؤلب الفقراء على الأغنياء ، ويثير الضعفاء بالأقوياء ، ويجمع إليه أخلاطاً من الناس ، فيهم الحر البائس ، والرقيق اليائس ، فلا يكاد يتحدث إليهم حتى يزيل ما بينهم من فروق ، وإذا هم جميعاً إخوان قد زال ما في صدورهم من غلّ ، وصفا ما بينهم من صلة ، وإذا هم يد واحدة لو أذن لها صاحبها وخلي بينها وبين الحركة لأحدثت في المدينة شراً عظيماً . وهذا الرجل يجمع هؤلاء الناس إليه ، فيعظهم وعظاً غريباً لم يسمعوا مثله من كهانهم في مكة ، ولم يسمعوا مثله من وعاظ العرب في الأسواق . وهم يستمعون إليه فيسيغون ما يقول وكأنهم يشربونه شرباً ، وإذا هم يبتهجون له حيناً فتشرق وجوههم بشراً وتتوقد عيونهم أملاً ، وإذا هم يبتشون له حيناً آخر فتعبس الوجوه ، وتتقطب الجباه ، وتفيض الدموع حارة غزيرة حتى تبتل بها اللحى ، ويجهشون بالبكاء فإذا صدورهم تضطرب لشاة ما يأخذ القلوب فيها من الوجيب . ما أجهل ما يعدهم ويمنيهم ! وما أروع ما ينذرهم ويخوفهم ! وما أشد سلطانه على نفوسهم وأبلغ استنثاره بعقولهم ! ! ولئن خلى بين هذا الرجل وبين المستضعفين من قريش وأحلافها ومواليها ومن يُلمّ بمكة من شدّاذ الناس ليثورنّ بكل شيء ، وليغيّرُنّ كل شيء . والقوم يختصمون في ذلك خصومة تختلف عنفاً ورفقاً باختلاف أمزجتهم وطبائعهم ، فمنهم النائر الحاد

الذي يود لو أطلقت قريش يده فينهض إلى دار ابن أبي الأرقم هذه التي يجمع فيها محمد أصحابه إليه فيهدمها عليهم هدماً ، ولن يشق ذلك عليه إذا نهض معه نفر من فتيان مخزوم . ومنهم الشيخ الوقور الذي يذكر أمس ويفكر في غد ويكره لقريش أن يُغير بعضها على بعض ويبطش بعضها ببعض ، ويرى أن قريشاً إنمسا سادت العرب لأنها أقامت أمرها على الشورى ، وجعلت الفصل فيما يعرض لها من الشر لهذه الأندية التي تتألف من الملائ لا لبأس الأفراد والجماعات ، ولا لسطوة الرئيس الذي ينفرد بالسلطان . وهو ينصح باستصلاح هذا الرجل وتقريب الأمد بينه وبين قريش ، ولو تكلفت قريش في ذلك بعض المشقة وشيئاً من المال .

والفتى جالس غير بعيد يسمع رفق الرفيق ، وعنق العنيف ، ويود لو علم من أمر هذا الرجل الذي يختصم القوم فيه أكثر مما يقولون . فينهض متثاقلاً ، ويخرج من المسجد ويسلك طريقه إلى دار ابن أبي الأرقم على الصفا . ولو أن الفتى سأل نفسه وهو يقطع الطريق بين المسجد وبين هذه الدار التي استقرت فيها الدعوة الجديدة عن هذه القوة العنيفة التي دفعته مع الضحى إلى المسجد ، وصرفته عن رفاقه وهم يدعونهم إلى الصيد ، وصدفت به عن أصحابه وهم يرغبونه في الشراب ، وانتهت به إلى ندى قريش فأسمعت ما كان بينهم من خصومة وحوار ، ثم دفعته في هذه الطريق التي يسلكها الآن إلى حيث يتحدث محمد إلى أصحابه - لو أن الفتى سأل نفسه عن هذه القوة الغريبة التي تحكمت فيه ، واستأثرت به منذ أصبح ، لما وجد لسؤاله جواباً ، ولا عرف لهذه القوة



أصلاً ولا كنهاً . ولكنه لم يفكر في شيء ، ولم يسأل نفسه عن شيء ، وإنما يمضي في طريقه حتى يبلغ الدار ، فيطرق الباب طرقاتاً رفيقاً ، فإذا فُتح له دخل فحياً ثم جلس . والقوم ينظرون إليه فيعجبون لمنظره الرائع وزينه الحسن وشكله الجميل ، وتحيا في نفس كل واحد منهم أمنية خفية ، ولكنها قوية صادقة ، يودون جميعاً لو هدى الله هذا الفتى الوسيم الغنى إلى الإسلام ، فأصبح واحداً منهم ، وشاركهم فيما يستمتعون به من هذه النعمة الغضة الشاملة ، نعمة الإيمان بالله وبمحمد عبده ورسوله . إذاً لازدانت جماعة المسلمين ، ولاغتازت قريش . تحيا هذه الأمنية في نفوس القوم جميعاً في لحظة قصيرة كأنها خطف البرق ، وثبتت في نفوسهم وتقوى ، وإذا هي شعلة تتوقد بها هذه العيون التي تنظر إلى الفتى في حب ومودة ، وكأنها تدعو نفسه إلى أن تتصل بنفوسهم . ويحس الفتى وقع هذه الأبصار عليه وتفوذها إلى نفسه ، ولكنه صامت لا يقول شيئاً ولا يأتي شيئاً .

ثم يتصل حديث النبي مع أصحابه فينذر ويبشر ، ويقرأ القرآن . وما كاد القوم يسمعون صوت النبي حتى تتحول إليه عن الفتى أبصارهم وقلوبهم ، وإذا مُصعب كأنه لم يدخل عليهم منذ حين ، أعرضوا عنه ثم تسوه ، ولكنه هو لا يستطيع أن يُعرض عنهم ولا أن ينسأهم ، فهو يلحظ انصرافهم عنه ، وإقبالهم على صاحبهم . ثم لا يلبث أن ينصرف معهم عن نفسه ، ويُقبل معهم على هذا البشير النذير ، فيسمع ويعي ، ثم ينهض فيدنو من النبي ، ثم يبسط يده ويعلن دخوله في الدين الجديد .

وكم الفتي إسلامه دهرًا مخافة أن تفتنه قريش ، أو تنكره أمه ،  
 وكان لها محبًا وعليها شفيقًا ، وكان حريصًا على ألا يؤذيها ، ولعله كان  
 حريصًا أيضاً على ألا تنقطع معونتها له وبرها به ؛ فقد كان يجد من  
 هذا البر وتلك المعونة ما ينفع به نفراً من أصحابه وإخوانه في الدين .  
 ولكن عثمان بن طلحة رآه ذات يوم وهو يصلي ، فما أسرع ما سعى  
 به ، ودل عليه ! وما أسرع ما تنكرت قريش للفتي ! وما أسرع ما تنكر  
 له أبواه ! وما أسرع ما مسه الضرّ وثقل عليه احتمال الحياة ! هنالك أصبح  
 هذا الفتي السعيد كغيره من أصحابه فقيراً بائساً ، ولكنه كان كغيره من  
 أصحابه صبوراً جلدًا ، يجد في الإسلام عما يلقي عزاءً وتسلية . حتى إذا  
 اشتد الأمر بالمسلمين وأذن النبي لهم في الهجرة إلى بلاد الحبشة ،  
 هاجر معهم فأقام ما أقام ، واحتمل ما احتمل ، ثم عاد فأقام مع النبي  
 ولزمه . وضافت الأرض بالمسلمين مرة أخرى ، فكانت الهجرة الثانية  
 إلى بلاد الحبشة . فهاجر الفتي مرة أخرى ، وأقام في تلك البلاد  
 ما أقام ، واحتمل في تلك البلاد ما احتمل . وكان صبره عن لزوم  
 النبي لم يكن ميسوراً ، فأثر احتمال الأذى في نفسه بقرب النبي

على الأمن والسلامة بعيداً عنه . فعاد إلى مكة سيئ الحال قد مسه الضر واشتد به البؤس ، فرثت ثيابه حتى ما كانت تستر جسمه إلا في مشقة وبعد حيلة واسعة ، وغلظ جلده وتحدد وقد كان سبطاً رقيقاً . وأقبل ذات يوم على النبي وأصحابه . فلما رآه المسلمون نكسوا رؤوسهم وغضوا أبصارهم رحمةً له وحياء من العجز عن معونته . وسلم الفتى فرد النبي عليه السلام وأحسن عليه الثناء وهو يقول : « لقد رأيت هذا وما بمكة فتى من قريش أنعم عن أبيه نعيماً منه ، ثم أخرجه من ذلك الرغبة في الخير في حب الله ورسوله ! » .

ولزم الفتى مجلس النبي فأطال لزومه ، واستمع الفتى للنبي فأحسن الاستماع ، وحفظ الفتى عن النبي فأتقن الحفظ ، وإذا هو من فقهاء الصحابة وأشدهم بالدين علماً . ثم تكون العقبة الأولى ، ويكتب المسلمون من الأنصار للنبي في رجل من أصحابه يعلمهم القرآن ، ويفقههم في الدين ، فيرسل إليهم النبي مصعباً فيكون أول مبشر بالإسلام كلف نشر الدين خارج مكة .

ويوفق مصعب فيما كلف من الأمر ، فإذا الأنصار يُقبلون على الإسلام أفواجاً ، وإذا سماحة خلقه وعذوبة صوته وما يجري فيه من حلاوة الإيمان وشدة الاقتناع ، كل ذلك يجلبه إلى الناس ويعطفهم عليه . ولا يكاد يدنو موسم الحج حتى يشخص مصعب في سبعين من الأنصار هم أهل العقبة الثانية . وبلغ الفتى مكة ، فلم يفكر في أمه ولا في أهله ، وإنما مضى قدماً حتى انتهى إلى النبي ، فخلا إليه وأطال عنده

المقام يُعلمه علم المدينة وينبئه بأخبارها ، والنبي عن ذلك راض وبه مسرور . ويطيل المقام عند النبي ، وتعلم أمه بمقدمه ، فتبعث إليه من يلومه في هذا الذي تراه عقوقاً ، ولكنه مع ذلك لا يفكر في لقاءها حتى يفرغ من أمره عند النبي . فإذا زارها بعد ذلك لامته في إبطائه عنها ولامته في دينه ، واستعانت عليه بدموعها . وما أقوى الدموع عوناً للأمهات ! ولكن مصعباً قد صبر للشر كله ، فليصبر لدموع أمه أيضاً . وإذا هو يعظها ويدعوها إلى الإسلام ، فتأبى عليه وتنذره أن تفتنه عن دينه ، فيلقى نذيراً بنذير وشرّاً بشر ، ويعلن لئن حاول أحد فتنته ليجرّصن ، على قتل من يعرض له ؛ فتدعه أمه ، وينقطع لنبيه بعد ذلك فيقيم معه ؛ حتى إذا تهيأ النبي للهجرة تقدم مصعب إلى المدينة فانتظره فيها .

ويحمل مصعباً لواء النبي في وقعة بدر فيعود به ظافراً منصوراً .  
ويلقى مصعب في المدينة من الجهد والفقر ما يلقاه غيره من فقراء  
المسلمين ، فيحتمل ذلك راضياً به باسماء له . حتى إذا كانت وقعة أحد  
تقدم مصعب باللواء بين يدي النبي حتى يجد موقفه من ميدان القتال  
فيثبت فيه . وتشتد صدمة قريش للمسلمين فينكشون ويتفرقون عن  
لوائهم . ولكن مصعباً أثبت قدمه في الأرض ، فهو لا يزول ولا يميل .  
ويقبل عليه ابن قميئة ( فارس من فرسان قريش ) فيضرب يده بالسيف  
فيقطعها ويسقط اللواء ، فيأخذه مصعب بيده الأخرى ويحنا<sup>(١)</sup> عليه .  
ويكره عليه ابن قميئة فيقطع يده الأخرى ، ولكن قدم مصعب ثابتة  
وهو لا يزول ولا يميل ، وما زال اللواء مرفوعاً قد ضم عليه مصعب  
عضديه . ويكره ابن قميئة مرة ثالثة فينفذ الرمح في صدر مصعب ،  
ويسقط مصعب ويسقط معه اللواء فيلتقاه أخوه أبو الروم . وما يزال  
اللواء مرفوعاً حتى يبلغ المدينة<sup>(٢)</sup> .

(١) يحنا عليه : يكب عليه ليقه .

(٢) طبقات ابن سعد طبع ليدن جزء ٣ قسم أول صفحة ٨٣ .

وقد انجلت قريش منتصرة عن ميدان القتال ، وثاب المسلمون إلى الشهداء يوارونهم في قبورهم ، فإذا مصعب قد خثر على وجهه . ويهم المسلمون بدفنه فلا يجدون له كفنًا ، إنما هو ثوب رث قصير ، إن أخفى رأسه أظهر رجله ، وإن أخفى رجله أظهر رأسه ، والنبي صلى الله عليه وسلم يرى فيتلو قول الله عز وجل : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

ثم يأمر أن يغطي أعلاه بالثوب وأن يلف أسفله برطب الكلا ، ثم يقول : « إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة » . ثم يقبل على الناس فيقول : « أيها الناس زوروهم وأتوهم وسلموا عليهم ، فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم مسلم إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه السلام » (١) .

(١) طبقات ابن سعد طبع ليدن جزء ٣ قسم ١ صفحة ٨٥ .

طرد الياسن





لم يذكروا في تلك الليلة ماضيهم الحلو وحاضرهم المرّ ، ولم يتحدثوا  
عن أوطانهم تلك النائية التي كانوا ينعمون فيها بلذات الحياة ،  
ويستمتعون فيها بخفض العيش ، ويسيرون فيها سيرة الأحرار ، لا يعرفون  
لأحد غير قيصر وعماله عليهم سلطاناً ، وقد يعرف لهم غيرهم كثيراً من  
السلطان والبأس ، وقد يقدم إليهم غيرهم كثيراً من آيات الطاعة  
والإذعان . ولم يسمروا بهذه الأحاديث التي تعودوا أن يسمروا بها إذا  
فرغوا من أعمالهم وانصرفوا إلى راحتهم ولقي بعضهم بعضاً حين ينتضي  
النهار ويتقدم الليل ، والتي كانوا يستعيدون بها حياتهم تلك الجميلة  
المشرقة ، ويستحضرون بها مواطن لذاتهم ونعيمهم ، هناك حيث  
لا يشتد القيظ حتى ينضج الحلود ويصهر الأجسام ، وحيث لا تقع  
العين على الجبال الجرد والوهاد المقفرة ، وحيث لا تضيق الأرض  
بالناس ولا يضيق الناس بالأرض ، وحيث يستقبل الناس أيامهم  
راضين باسمين ، ويستقبلون لياليهم لاهين عابثين . كلا ! ولم يسمروا  
في تلك الليلة بما كانوا يسمرون به من ذكر الفاتنات المفتونات اللاتي  
كن يحولن حياتهم أحلاماً ، ويجعلن جدّهم لعباً ، ويسرّين عنهم كل  
همّ ، ويغرين بهم كل نعيم ، يخلبنهم باللفظ واللحظ ، ويعذبنهم

بالدّل والتهيه ، ويُسعدنهم بالقرب والوصل ... كلا ! ولم يسمروا في تلك الليلة بأحاديث قيصر وقصره ، ولا بأنباء الحاكم وحاشيته ، ولا بقصص الحرب بين الفرس والروم . وأين هم الآن من قيصر وقسطنطينيته ! ! وأين هم الآن من تلك الثغور الباسمة القوية التي كانت تبسم لأهلها كأنها الجنات ، وتعبس لأعدائها كأنها الجحيم ! وأين هم الآن من الفرس والروم ! وأين تكون مكة من ميادين الحرب بين الفرس والروم ! كلا ! ولم يسمروا في تلك الليلة بما كانوا يسمرون به أحياناً من أحاديث ساداتهم ومواليهم ، ومما كان يتصل بينهم من التنافس والجهاد ، ومما كان يُدبّر بينهم من الكيد والمكر ، ومما كان يجتمع لهم من الغنى والثراء ، ومما كان يُلمّ بهم من الحوادث والخطوب . كلا ! ولم يسمروا في تلك الليلة بما كانوا يسمرون به أحياناً من أحاديث هذه القوافل التي تفصل من مكة إلى الشام ، فتمضي معها نفوسهم تسايروها في تلك الطرق البغيضة التي يذكرون طولها وثقلها حين قطعوها عُناةً أذلاء ، يساقون إلى مكة عبيداً أرقاء ، والتي كانت تعود إلى مكة قافلة من الشام تحمل من أرض قيصر أنباء مختلطة وأحاديث مشوهة مضطربة ، ولكنهم كانوا يتلقفونها ثم يتناولونها بالتأليف والتصنيف ، وبالتحليل والترتيب ، حتى يكوّنوا منها شيئاً مستقيماً أو كالمستقيم ، ثم يتخذون منه علماً بأمور أوطانهم تلك التي لم يبق لهم إليها سبيل .

كلا ! لم يسمروا في تلك الليلة بشيء من هذا ؛ لأن أحاديث مكة شغلهم عن كل هذا . وما لها لا تشغلهم وصاحبهم لسياس قد اشترك

فيها وأثار كثيراً منها !! وها هو ذا قد اتخذ مكانه بينهم كثيراً كاسف  
البال ، محزوناً بآدى الحزن ، قد اضطربت نفسه أشد اضطراب ، وهو  
يتحدث إليهم في صوت متقطع مظلم كأنما أسبغ الحزن والندم واليأس  
عليه ظلمة كثيفة متراكمة لا تنكشف عن شيء . وما له لا يكتب  
ولا يبتسئ ! وما له لا يحزن ولا يندم ! وما له لا يفرح ولا يجزع ، وقد  
سفكت يده المسيحية دماً بريئاً ولما ينتصف النهار !!

وكان هؤلاء النفر جماعة من نصارى الروم دفعوا إلى بعض أطراف  
الصحراء ، وعدت عليهم بعض القوافل فاتخذتهم تجارة ، وتقلبت بهم  
أحوال الرق حتى انتهوا إلى ملك جماعة من سادة قريش . وكان  
لسياس أنقاهم ضميراً ، وأصفاهم قلباً ، وأعظمهم حظاً من الدين . وكان  
لهذا كله أصبرهم على ما ألم به من كرب ، وأحسنهم احتمالاً لما سلط  
عليه من محنة ، وأعظمهم رضاً بهذه النكبة التي كان ينظر إليها على  
أنها اختبار له ، وابتلاء لإيمانه ، وامتحان لثقتة ، وهبة لنفسه لتحيا  
حياة السعداء إذا انقضت إقامتها في هذا العالم الشقي البغيض . ولكنه  
أظهر في تلك الليلة غير ما تعود أن يظهر لأصحابه من الجملد والصبر ،  
ومن الإباء والاحتمال . وهم يعزونه ويرفقتون به في العزاء . وهم يلومونه  
ويعنفون عليه في اللوم . وهم يأتون نفسه من جميع أنحاء يريدون أن  
يصرفوها عن هذا الحزن العميق ، وأن يصرفوا عنها بعض الهم الثقيل ،  
ولكنهم لا يبلغون منه شيئاً ولا يزيدونه إلا إغراقاً في الحزن وغلواً  
في اليأس . وربما بلغوا بأحاديثهم قرارة نفسه فأثاروها ودفعوه إلى

الحديث ، فإذا هو يتكلم بكلام تقطعه العبرات وتبلله الدموع .  
 وكان لسياس ملكاً لصفوان بن أمية ، وكان قد أنفذ في ذلك اليوم  
 أمره في أسير من أسرى الأنصار يقال له زيد بن الدثنة ، دفعه إليه  
 صفوان وأمره أن يخرج به من الحرم ، حتى إذا بلغ به التنعيم قتله ثم  
 عاد . ولم يكن مثل هذا العمل يحسب إلى لسياس ، ولكنه لم يكن  
 خليقاً أن يدفعه إلى مثل هذا اليأس المهلك ، لولا أنه عرف من أمر أسيره  
 وصريعه ومن أمر أصحابه ما عرف ، ولولا أنه رأى من أمر زيد ما رأى ؛  
 وسمع من أمر حبيب ما سمع ، وانتهت إليه أحاديث أولئك الذين أدركهم  
 الموت قبل أن يحملهم إلى مكة ويبيعهم لقريش غدر الغادرين من  
 هذيل . ولكنه عرف ما عرف ، ورأى ما رأى ، وسمع ما سمع ، فذكر  
 أموراً كان يقرؤها في الكتب ، وأحياناً كان يهلع لها حين يسمع  
 أنباءها من الوعاظ .

ذكر أولئك الشهداء الذين قُتلوا في المسيحية تفتيلاً ، والذين  
 امتحنوا بما كتب الله عليهم من ضروب المحن وفنون الكيد ، فلم تضعف  
 نفوسهم ، ولم تهين عزائمهم ، ولم يفرطوا في دينهم ، ولم يجد الشك  
 إلى نفوسهم سبيلاً .

ذكر أولئك الشهداء الذين أقاموا مجد المسيحية على أشلائهم ،  
 وغذوه بدماهم ، وقووه بضعفهم ، وأعزوه بما احتملوا في سبيله من  
 الذل ، وأبندوه بما لقوه في سبيله من الأذى والآلام . ذكر أولئك  
 الشهداء الذين كان يكبرهم ويجلهم ، ويرى أنهم شفعاؤه وشفعاء أمثاله

عند الله ، وأنهم قدوته الصالحة وأسوته الحسنة ومثله الأعلى ، وأنه أسعد الناس لو استطاع أن يظفر ببعض ما ظفروا به من عذاب الدنيا ونعيم الآخرة ، ومن ذل الدنيا وعز الآخرة ، ومن هذا الموت الهين السريع الذي تتبعه حياة باقية سعيدة متصلة لا حدة لما فيها من نعيم . ذكر هؤلاء الشهداء ، وذكر أنه لم يزد حين أطاع أمر مولاه صفوان على أن قتل واحداً منهم ، واقرن ذلك الإثم الذي اقرنه الظالمون الذين اضطهدوا الشهداء وفتنوهم ، ثم قدّم موهم قربانا إلى آلتهم وأوثانهم في الزمن القديم . هنالك اضطربت نفسه اضطراباً ، وزلزل قلبه زلزالا ، ورأى حياته كلها وقد استحالت إلى شر منكر ، ورأى ما قدّم من الخير وقد استحال إلى فساد ، ورأى ما احتمل من الآلام وقد أصبح هباء . وهنالك ملك الندم عليه أمره ، وملأ اليأس عليه قلبه ، وعجز أصحابه عن أن يمسوا نفسه بما كانوا يقدّمون إليه من تسليه أو عزاء . على أنه لم يكن يحس في نفسه شيئاً من الموجدة على مولاه صفوان ، ولم يكن يضمّر له شيئاً من البغض ، إنما كانت موجدته كلها وحقدته كله قسمة بين نفسه وبين امرأة من قريش ، هي سلافة بنت سعيد بن سهم زوج طلحة بن عبد الله بن عبد العزى .

كان واجداً على نفسه أشد الموجدة ، مبغضاً لها أشد البغض ؛ لأنها أتمت بقتل هذا الرجل الشهيد . وكان حائقاً على سلافة حاقداً عليها ، لأنها هي أصل هذا الشر ، ومصدر هذا الإثم ، ومنشأ هذا البلاء . وكان يقول لأصحابه : « لولا أن هذه المرأة الآثمة نذرت ما نذرت ،

وَأَذَاعَتْ مَا أَذَاعَتْ فِي أَهْلِ الْبَادِيَةِ ، لَسَمَا دُفِعَ صَفْوَانٌ إِلَى مَا دُفِعَ إِلَيْهِ ،  
 وَمَا ظَفَرَ صَفْوَانٌ بِمَا ظَفَرَ بِهِ ، وَمَا اشْتَرَى أُسِيرَهُ ، وَمَا أَنْفَذَتْ أَمْرَهُ فِيهِ .  
 قَالَتْ أَصْحَابُهَا : « وَمَا نَذَرُ سُلَافَةَ ! وَمَاذَا أَذَاعَتْ فِي الْأَعْرَابِ ؟ » .  
 قَالَ : « أَتَذَكُرُونَ يَوْمَ حَشَدَتْ قَرِيشٌ لِحَرْبِ صَاحِبِهَا فِي يَثْرِبٍ كَيْفَ  
 كَانَ أَشْرَافُ مَكَّةَ مُوتَوْرِينَ يَأْكُلُ قُلُوبَهُمُ الْغَيْظَ ، وَتَمَلُّوا نَفْسَهُمُ الْحَفِيظَةَ ،  
 وَتَضَطَّرَبَ أَمَامَهُمْ أَشْبَاحُ الْحَزْمِيِّ ! يَذَكُرُونَ هَزِيمَتَهُمْ حِينَ لَسَقُوا صَاحِبَهُمْ  
 لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فَفَعَلَ بِهِمُ الْأَفَاعِيلُ ، وَتَرَكَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ صَرْعَسَى لَمْ يَثُوبُوا إِلَى  
 أَهْلِهِمْ وَلَمْ يَسْتَمْتَعُوا بِتِجَارَتِهِمْ تِلْكَ الرَّابِحَةَ الَّتِي أَنْقَذَهَا أَبُو سَفْيَانَ .  
 وَيَشْفَقُونَ أَنْ يَتْرَأَى لَهُمُ الْمَوْتُ فَلَا يَثْبُتُوا لَهُ وَلَا يَقْدِرُوا عَلَى النَّظَرِ إِلَيْهِ  
 فَيَفِرُوا مِنْهُزِمِينَ ، كَمَا فَرَوْا مِنْ قَبْلِ ، وَيَتْرَكُوا صَرْعَسَى مِنْ أَشْرَافِهِمْ كَمَا  
 تَرَكَوا مِثْلَهُمْ مِنْ قَبْلِ . هُنَالِكَ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى أَنْ يَتَّقُوا بِالنِّسَاءِ وَيَتَّقُوا بَيْنَ  
 الْحَزِيمَةِ وَالْعَارِ ، فَاخْتَارُوا مِنْهُمْ أَعْلَاهُنْ قَدْرًا وَأَرْفَعَهُنْ شَأْنًا وَأَنْبَهَهُنْ  
 ذِكْرًا وَأَقْدَرَهُنْ عَلَى دَفْعِ الرِّجَالِ إِلَى غَمْرَاتِ الْمَوْتِ . وَكَانَتْ سُلَافَةَ بَيْنَ  
 هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ ، خَرَجَتْ مَعَ زَوْجِهَا وَبَنِيهَا الثَّلَاثَةَ ، وَعَادَتْ مَعَ الْمُنْتَصِرِينَ  
 أَيْمًا تُكَلِّي قَدْ فَقَدَتْ زَوْجَهَا وَفَقَدَتْ بَنِيهَا . » .

ثُمَّ سَكَتَ لِسِيَّاسٍ كَأَنَّمَا يَسْتَحْضِرُ هَوْلًا يَرُوعُ النَّفْسُ وَيَخْلَعُ  
 الْقُلُوبَ . ثُمَّ عَادَ إِلَى حَدِيثِهِ فِي صَوْتٍ هَادِيٍّ بَعِيدٍ فَقَالَ : « إِنْ كَانَتْ  
 لَوْقَعَةٌ مَرُوعَةٌ حَقًّا تِلْكَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ يَثْرِبِ ! لَقَدْ عَادَتْ قَرِيشٌ  
 تَتَحَدَّثُ بِالْأَعَاجِبِ . لَقَدْ عَادَتْ تَتَحَدَّثُ بِالْإِخْوَانِ بِسَعْيِ بَعْضِهِمْ إِلَى  
 بَعْضٍ بِالْمَوْتِ . لَقَدْ عَادَتْ تَتَحَدَّثُ بِالْأَمْهَاتِ يَدْفَعْنَ أَبْنَاءَهُنَّ إِلَى أَنْ

يقتل الرجل منهم أخاه . لقد عادت تتحدث بأمر مُصعب بن عُمير وقد قُتل ابنها مصعب ، فما كانت لتُظهر عليه حزناً أو جزعاً لأنه كان من خصم قريش وأصحاب محمد . لقد عادت قريش منتصرة تتحدث بأمر سُلَافة هذه وقد فقدت زوجها وتلقت ابنيها أحدهما بعد صاحبه يبلغها وقد أصابه السهم ، فتضع رأسه على حجرها وتسأله : يا بُني من أصابك؟ فيقول ما أدري ، ولكني سمعت قائلاً يقول : أخذها وأنا ابن الأفلح ، ثم أصابني السهم . يقول ذلك ثم يجود بنفسه بين ذراعيها . هنالك نذرت سُلَافة : لئن قدرت على قاتل ابنيها لتشربن في قحف رأسه الحمر . وهنالك أذاعت في أهل البادية وأعراب الحجاز أن من جاءها برأس ابن الأفلح هذا فله مائة من الإبل . هذا أصل الشر ، وهذا مصدر البلاء .

قال قائل : « وأى شيء لا يفعله الأعراب في سبيل جزور فضلاً عن عشرة من الإبل ! فضلاً عن مائة من الإبل ! ؟ » . قال لسياس : « والغدر أيسر ما يفعله الأعراب ليبلغوا أيسر من هذا المال . »  
 « أقبل جماعة من هذيل على صاحب يثرب ، فزعموا له أنهم قد آمنوا به وأسلموا له ، وأن دينه قد فشا فيهم ، وسألوه أن يرسل معهم من يفقههم في الدين ويعلمهم شرائعه ، يُظهرون الإخلاص ويضمرون الغدر ، لا يبتغون إلا أن يظفروا بنفر من أهل يثرب يبيعونهم من قريش لتصيب بهم ناراً وليصيبوا بهم مالاً . ويريد الله لأمر قضاه أن يختار نبي يثرب ستة من أصحابه ، وأن يؤمر عليهم عاصم بن ثابت بن الأفلح

الذي كانت تبتغيه سلافة ، وأن يرسل هؤلاء النفر من أصحابه مع أولئك الغادرين . فما هي إلا أن يقرَّبوا من مكة حتى يظهر الخفيّ ويصرّح الشرّ ويتبين الغدر ، وإذا الذين كانوا يعلنون إيمانهم يستصرخون فيأتيهم الصريخ من هذيل ، وإذا أصحاب محمد يرون الغدر فينحازون إلى الجبل . ويعاهدهم أعداؤهم على ألا يقتلوهم ولا يمسونهم بأذى إن هم ألقوا بأيديهم . فأما عاصم واثنان من أصحابه فيقسمون لا ينزلون على عهد كافر أبداً ، ويقاتلون حتى يُقتلوا . وأما الآخرون فيحبون الحياة ويلينون لها فيستأسرون ؛ ولا يكادون يفعلون حتى يروا الغدر ، فيأبى أحدهم أن يتبع الغادرين وإذا هو مقتول . ويبقى الآخرون أسيرين ، يُحملان إلى مكة ويباعان فيها . فيشتري أحدهما صفوان ويأمرني به فأتّم له ما قدّره من نعيم ، ويتم لي ما قدّرت لي من شقاء .

ثم يجهد لسبب البكاء ويغرق فيه حيناً ، ثم يعود إلى حديثه في صوته ذلك الهاديّ البعيد فيقول : « لقد عرفت ورأيت من أنباء هؤلاء الناس ما لم أكن أقدر أن أعرف أو أرى . ولولا أن الشقاء مقضى علىّ ومقدور لي ، لكان فيما عرفت قبل أن أقترف الإثم صارفٌ لي عن اقترافه . وماذا كنت أخاف لو عصيت صفوان ولم أسفك هذا الدم الحرام !! وأيهما أهون علىّ وأيهما كان خليقاً أن أوثره : الموت بيد صفوان أم الشقاء الأبديّ الذي دفعت إليه ؟

« لقد فرحت هذيل بمقتل عاصم بن ثابت ، وقالت : مائة من الإبل تدفعها إلينا القرشية حين نأتيها بهذا الرأس ! ثم أقبلوا إليه يريدون



أن يحتزوا رأسه . ولكن ماذا سمعتُ وماذا تسمعون ؛ هذه 'ظلة' من الدبّر<sup>(١)</sup> تقوم دونه فتحميه وتمنعهم أن يصلوا إليه . فيقول بعضهم لبعض دعوه حتى يأتي الليل ، فستنصرف عنه هذه الدبّر ، وسيخلص لنا رأسه . حتى إذا كان الليل هموا أن يسعوا إليه ليحتزوا رأسه . ولكن ما سمعتُ وماذا تسمعون !! لم يبلغوه ولم يمسه ، وإنما أقبل السيل فاحتمله ، ومضى به إلى حيث لا تبلغه يد . ولقد حدثت أن هذا الرجل كان قد نذر ألا يمسه كافرًا ولا يمسه كافر . ولقد حدثت أنه لما امتنع على القوم فقاتلهم وقتلوه ، رفع صوته ضارعا إلى ربه وهو يقول : « اللهم إني قد حيت دينك أول النهار فاحم لحمي آخر النهار » . ولما بكى لسياس عند هذا الحديث لم يبك وحده ، وإنما بكى معه أصحابه جميعا بكاء طويلا . حتى إذا تكففت<sup>(٢)</sup> عبّرتة وهدأ عنهم البكاء مضى في صمته . ولكنهم ألحوا عليه أن يتم ما بدأ من الحديث . فقال : « وبم تريدون أن أتحدث إليكم ؟ لقد كنت أقرأ أخبار شهدائنا وأسمع أحاديثهم ، فأرهبها وأكبرها وأخافها وأرغب فيها ، وأودّ لو أني حييت في تلك الأيام التي كانت ترخص فيها الحياة ويغلو فيها الإيمان ، وأودّ لو أني كنت واحداً من هؤلاء الناس الذين باعوا نفوسهم من الله ؛ فقد أتيج لي اليوم أن أعيش في بيثة الشهداء وأن أراهم وأتحدث إليهم وأن أسمع منهم ، ولكنني لم أبع نفسي من الله ، وإنما بعثها من الشيطان ، ولم أسفك دمي في سبيل الله ، وإنما سفكت دم شهيد كريم .

( ١ ) الدبر هنا : جماعة النحل والزنابير ( ٢ ) تكففت عبرته . ارتدت .

« ولقد سمعت أبا سفيان زعيم قريش يسأله : " أيجب أن يقوم محمد مقامه هذا وأن يكون هو آمناً بين أهله؟! " فيجيبه : " والله ما أحب أن تصيب محمداً شوكة تؤذيه وأنا آمن بين أهلي " . فيقول أبو سفيان لمن حضر من أشرف قريش : " ما رأيت أحداً يحب أحداً كما يحب هؤلاء الناس أصحابهم " . ثم تمتد يدي الآئمة إلى هذه الحياة الطاهرة فتطفي سراجها ، وإلى هذا الدم الزكي فتسفكه على الأرض مخافة من غضب صفوان . يا للهول ! لقد كنت أحسب أن صفوان لم يملك إلا جسمي وأن نفسي ما زالت حرة ؛ فقد علمت الآن أني رقيق حقاً . وقد علمت الآن أن سلطان السادة على الأرقاء قد يتجاوز الأجسام إلى النفوس . وقد علمت الآن أن الرجل الذي يرضى بالرق ولا يموت دون الحرية إنما يقتل نفسه قتلاً . لقد قتلت نفسي يوم آثرت الحياة وقبلت أن أكون سلعةً في يد أولئك التجار . »

قال رجل من أصحابه : « وإن كان صديقك هذا شهيداً كريماً — وما أراه إلا كذلك — فإن رفيقه الذي قتله بنو الحارث بن عامر لم يكن أقل منه كرامة . ولعل مصرعه أن يكون أشد من مصرع صاحبه ترويعاً للنفس وتمزيقاً للقلب . لم يبسطوا عليه بالشر يد مولى من مواليهم أو عبد من عبيدهم ، وإنما كانوا ظمأً إلى دمه ، حراساً على أن يحمدوا جذوته بأيديهم . خرج به جمعهم إلى التنعيم ، فلما أرادوا قتله استأذنهم في أن يتقرب إلى ربه بالصلاة قبل أن يخطو آخر خطواته في الحياة ؛ فأذنوا له ، فصلى ركعتين ثم قال لهم : لولا أني أخاف أن تظنوا بي الجزع لزدت .

ثم ينهض إليه أحدهم فيقتله ويعودون عنه وإنهم ليتحدثون عن أخلاقه  
 وخصاله بما كان خليقاً أن يصرفهم عن قتله ، لولا أن قلوبهم قست فهي  
 كالخجارة أو أشد قسوة . لقد كانوا يقولون : إنهم جعلوا سجنه عند  
 امرأة منهم ، وإن هذه المرأة كانت تتحدث إليهم عن أمره بالأعاجيب .  
 كانت تراه مغلولاً يأكل من الفاكهة والتمر ما ليس لأهل مكة عهد به  
 في مثل هذا الوقت ، لا تدري كيف سيق إليه ؛ ولقد أنبأهم أنه حين  
 أظله اليوم الذي كان يراد قتله فيه طلب إليها موسى يتبهاً بها للموت ،  
 فأرسلتها إليه مع طفل صغير يدرج ، ثم لم تلبث أن راعها ما فعلت وأن  
 امتلأ قلبها رعباً وأن قالت لنفسها : ما يمنع هذا الأسير أن يقتل هذا  
 الصبي فينار لنفسه قبل أن يدركه الموت !! وأقبلت عليه مسرعة ،  
 فإذا هو قد أجلس الطفل على فخذه وهو يداعبه ويلاعبه ، وأكبر الظن  
 أنه كان يودع فيه طفلاً له بعيداً . فلما رأى المرأة مقبلةً وقد أخذها  
 الروع ابتسم لها ابتسامة الحزن ، ونظر إلى الطفل نظرة الحب ، وقال  
 للمرأة : أشفقت على هذا الصبي من الغدر ؟ ليس الغدر من أخلاقنا .  
 « أفئتل هذا الرجل كان خليقاً أن تقدمه قريش فتقتله لو أن قريشاً  
 تعرف الحق ، أو تقدر الخير ، أو ترجو لله وقاراً ، أو تحس في قلوبها أثراً  
 من آثار الرحمة والبر !! » .

قال قائل منهم : « ما أرى إلا أن لهؤلاء الناس من أهل يثرب شأناً .  
 فلو أنهم يُقيمون أمرهم على شيء من باطل هذه الحياة الدنيا لما استقبلوه  
 بهذا الحزم ، ولما احتملوا في سبيله هذه الأهوال ، ولما رخصت عليهم

نفوسهم ودمائهم وأموالهم وأهلهم إلى هذا الحد . والله إنى لأسمع ما يقال وأرى ما يحدث ، فلا أشك في أن أهل هذه الأرض يستقبلون عصراً كذلك العصر الذى استقبله أهل بلادنا حين انبعث فيهم رسل المسيح : هذا الإيمان الذى زين في بعض القلوب حتى زهدتها في كل شيء ، هذا اليقين الذى سيطر على بعض النفوس حتى هوّن عليها كل شيء ، هذه المعجزات التى تساق إلى الناس فى يسر وسداجة وما كانوا ينتظرونها ولا يرجونها فلا تغرهم ولا تطغيهم ولا تدفعهم إلى أسر ولا بطر .

« كل هذا دليل واضح على أن السماء لم تقرب من الأرض قربها فى هذه الأيام ، وعلى أن أخبار السماء لم تتصل بالأرض اتصالها فى هذه الأيام ، وعلى أن الله يريد بالناس شيئاً لم تكن تقدر أنه كائن ولكن أوانه قد آن . أما إنى لاحق بهؤلاء الناس إن استطعت إلى ذلك سبيلاً . »  
قال آخرون : « ما أيسر ذلك وما أيسره ! وأنى لمثلنا أن يفات من سادة قريش ، وإن من حول مكة من أهل البادية لأرصداً على من أقبل من يثرب أو قصد إليها من الأحرار ، فكيف بالرقيق ! » .

قال لسياس وهو ينتحب : « فكروا فى ذلك ودبروا ، وتهاؤوا لذلك واستعدوا ؛ فأنتم أهل هذه الكرامة إن كان الله قد قضاها لكم . أما أنا فقد كتب على الشقاء ، وما أرى أن بحار الأرض لو سلطت على التنعيم تستطيع أن تغسل هذا الدم الزكى الذى سفكته هذه اليد الآثمة . »  
ثم قام عنهم يعدو مشتدّاً فى العدو ، فلم يروا له بعد ذلك أثراً ولم يسمعوا عنه بعد ذلك خبراً .

## نزىل حصن



قال عمير بن عبد الله السلمى لمحمد بن نصر الكلابى : « إن الله فيما يأتى من الأمر لحكمة بالغة ، يفهمها الناس حيناً ويقصرون عن فهمها فى كثير من الأحيان . وإن الرجل الرشيق خليق أن يتعظ بما فهم ، وألا يُبلح فى تأويل ما لم يفهم ، وأن يطمئن قلبه إلى أن حكمة الله بالغة ، وإلى أن قضاءه مُنته إلى الخير دائماً » .

قال محمد بن نصر لصاحبه : « هو ذاك ، وما أظن أن أحداً منا ينكر ذلك أو يمارى فيه ، فما تحدثك به ؟ وما هذا التفكير العميق الذى أرى آثاره بادية فى وجهك ؟ » .

وكان هذان الرجلان من فتيان قيس ، شديدى البأس ، قد ملأ قلبهما إيمان قوى بالله ، وحفاظ قوى للعرب ، واعتزاز قوى بالنفس ، وحب قوى للجهاد . وكانا قد مضيا مع الصائفة غازيين ، حتى بلغا ثغراً من ثغور الروم ، فأمعنا فى الغزو ولقيا فيه من الجهد والشدة واحتملا فيه من المشقة والبلاء شيئاً عظيماً ، لم يزدما إلا إيماناً على إيمان ، وحفاظاً إلى حفاظ ، وحباً للجهاد إلى حبهم القديم للجهاد . وكان الله عز وجل قد قضى لهما أن يعودا من هذه الغزوة موفورين ، فلما بلغا مآمنهما مع الجيش من بلاد المسلمين ندرا لئن مد الله حياتهما حتى ينقضى الشتاء وتستأنف الصائفة من قابل غارتها على بلاد الروم ، ليكونن لهما فى هذه

الغارة بلاء ، وليضعن كل واحد منهما نفسه في مقدمة الجيش المغير .  
 وكانا قد أزمعا من أجل ذلك ألا يُبعدا في الرجوع إلى موطنهما ، وأن  
 يُنفقا فصل الشتاء في مدينة من مدن المسلمين المنبثة في الشام ، والتي  
 ترابط فيها الجنود ، قد قُسمت بينها تقسيماً ، ووُزعت عليها توزيعاً . ولم  
 يكونا من أصحاب الديوان في جند من أجناد الشام ، وإنما كانا رجلين  
 قد باعا أنفسهما من الله وتطوعاً في الجهاد ، وأقبلا يبتغيان المثوبة ،  
 فلحقا بالصائفة فيمن يلحق بها من المتطوعين ، ولم يصرفهما عن  
 حمص أنها لم تكن للمضربية داراً . وما يريدان إلى المضربية أو إلى  
 اليمنية وهما إنما يمرّان بهذه المدينة مروراً ومنتظران أن ينقضى فصل من  
 فصول العام ويُقبل فصل آخر ليستأنفا نشاطهما وليقبلا على ما يبتغيان  
 من ثواب الله مجاهدين ! !

فلما استقر بهما المقام في حمص أياماً وأسابيع ، أخذوا يدوران فيها  
 ويتعرفان بعض أمرها ، ويسمعان إلى ما كان يجري على السنة أهلها  
 من بعض الحديث . وقلما كان أحدهما يخرج منفرداً ، إنما كانا في أكثر  
 أوقاتها متلازمين ، كأنّ ما دفعهما إلى الهجرة من أوطانها قد جمع بين  
 نفسيهما في الجهد والبأس ، كما جمع بين نفسيهما في الرخاء واللين !  
 فقلما كانا يفترقان أثناء الغارة على اختلاف الأحوال وتباين الخطوب  
 التي كانت تعرض للجيش وتلمّ بالمغيرين . وهما الآن لا يفترقان أو  
 لا يكادان يفترقان ، وقد أظلهما الأمن وضمنتهما سلم لا يخافان معها  
 شدة ولا بأساً ولا فراقاً .



ولكنهما في هذا اليوم لم يكادا يفتلان من صلاة الغداة حتى فرقت  
 بينهما حركة الناس وازدحامهم مسرعين ، كأن هناك أمراً ذا بال  
 يروعههم ويدفعهم إلى أن يشهدوا مشهداً يجب أن يشهده الناس . وقد  
 دُفع محمد بن نصر مع المزدحمين وأسرع مع المسرعين ، لم يكن له في ذلك  
 رأى أوّل الأمر ، ولكنه لم يلبث أن حمد ما أدركه من ذلك ، ففضى مع  
 الماضين مختاراً لا كارهاً ، وحرّص على أن ينتهي إلى حيث كانوا  
 يريدون أن ينتهوا . وقد سمع ما سمع ، ورأى ما رأى ، وامتلأ قلبه  
 بالعظات والعبر ، وُشغل عقله بالتفكير المتصل العميق . حتى إذا تفرّق  
 الناس وكلهم يملأ نفسه العجب عاد إلى صاحبه يحدثه بما سمع ، ويحدثه  
 بما رأى ، ويبدأ حديثه بهذا الكلام الذي أوجزته لك آنفاً .

فلما سأله صاحبه عما به قال : « لقد شهدت اليوم أمراً عظيماً :  
 شهدت جنازة رجل ملأ قلوب الناس حباً وبغضاً ، ورضاً وخطأً ، وأثار  
 في نفوسهم كثيراً من الحفيظة بل حفيظة لا تنهى ، وأثار في نفوس  
 الناس كذلك إعجاباً وإكباراً ، وأطلق ألسنة الناس بالذم الشنيع ،  
 وأطلق ألسنة الناس بالثناء الكثير ، ورسم على وجوه الناس آثار  
 الموجدة المنكرة ، ورسم على وجوه الناس كذلك آثار الاعتراف  
 بالجميل ، ورسم على وجوههم بين ذلك ابتسامات فيها سخرية وازدراء ،  
 وفيها عطف وإشفاق . ثم رأيت الناس يعودون من تشييعه إلى قبره  
 وإن الحيرة لتملأ قلوبهم ، وإن الشك ليضطرب في نفوس كثير منهم ،  
 وإنهم على هذا كله ليقولون فيما بينهم مثل ما كنت أقوله لك منذ

حين ، وإنيهم على هذا كله ليظهرون الثقة بحكمة الله البالغة والاطمئنان إلى عفوه الذي ينال به من يشاء .

قال عمير بن عبد الله : « ما رأيت كالיום رجلاً يُؤثر التلميح على التصريح ، ويقصد إلى الغموض دون الوضوح . فحدثني بحديثك - لا أبالك - ولا تُطل ، فما تعودت منك إطالة ولا إملالاً » .

قال محمد بن نصر : « فالله يعلم ما آثرت تلميحاً ولا اجتنبت تصريحاً ولا قصدت إلى غموض ولا تنكبت وضوحاً ، وإنما أصور لك نفسى كما أجدها . وما أدري كيف أتحدث إليك بهذا الحديث ، وما أعرف من أين أخذه : أخذه من مبتدئه أم أخذه من منتهاه ، أم أخذه مما بين ذلك ؛ فإن كل موضع منه تملؤه العبرة والعظة ، وتظهر فيه هذه الروعة التي تتأثر لها القلوب وتفكر فيها العقول . إنه رجل لم يعرف الناس من أول أمره إلا أنه كان عبداً حبشياً لسيد من سادات قريش في مكة وهو جبير بن مطعم . وكانوا يرونه فتى شديد البأس عظيم الأيد ، شجاعاً جريئاً ، يعمل لسيدته فيما يعمل فيه الرقيق . ولو أن الرق لم يعرض له لكان خليقاً أن يسود في بلده وبين قومه هؤلاء السود . ولكن الرق عرض له كما عرض لكثير من أشراف الروم والفرس ، فألقاه إلى هذا الحى من قريش ، وفرض عليه ما يفرض على الأرقاء من الخنوع والخضوع ومن الذلة والهوان ، ومن العمل فيما لا يعمل فيه أصحاب النجدة والمروءة من الناس . وكان هذا الفتى ضيقاً بحياته أشد الضيق ، منكرأ لها أعظم الإنكار ، جامعاً حين يتاح له الجموح ، شامساً حين يتهبأ

له الشموس ، لا يُغنى بُغضه للرق وطمعه في الحرية مهما يكلفه ذلك من غضب سادته وزجرهم ، وإعناتهم له وإلحاحهم عليه بالإعنات . وكانت قريش قد لقيت من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه جهداً شديداً يوم بدر ، وفقدت جماعة من ساداتها وأشرفها ، وذاقت الهزيمة المنكرة ، وذاقت فقد الأحياء ، وذاقت هذا الذل الذي يكره العرب أن يذوقوه ، ذلّ الموتور الذي لم يُدرك وتره . وكانت قريش تتجهز لإدراك الوتر والأخذ بالثأر ، وشفاء حزازات النفوس ، وإرضاء قتلاها من أهل الحفير . وكان جبير بن مطعم قد فقد عمه طعيم بن عدي يوم بدر ، وكان حريصاً على أن يثار به وينتقم له من قاتله . ولم يكن قاتله إلا حمزة بن عبد المطلب عم النبي ، وأسد الله وشجاع قريش ، وحامل لواء المسلمين لأوّل ما عُقد اللواء .

قال عمير بن عبد الله : « فإنك إنما تتحدث عن وحشي ، فما خطبه ؟ وما الصلة بينه وبين هذا الرجل الذي شهدت جنازته منذ اليوم ؟ » . قال محمد بن نصر : « فإن هذا الرجل الذي شهدت جنازته منذ اليوم هو وحشي نفسه » .

قال عمير : « ليتني عرفت مكانه من هذه المدينة حين أقبلت إليها ، إذا لسعيت إليه ، ولسمعت منه ، ولسألته عن بلائه ذلك المنكر » . قال محمد بن نصر : « وكذلك قلت لنفسى أنا منذ حين ، ولكني رأيت من رآه ، وسمعت ممن سمع منه . ولقد رأى من رآه رجلاً كان خليقاً أن يُرعى ، وإن الذين سمعوا منه ليتحدثون من أمره بالأعاجيب .

قال له سيده حين أجمعت قريش أمرها : إني أرى شوقك إلى الحرية  
 وكلفك بها ، وإسرافك في الجموح ، وامتناعك عما لا ينبغي  
 لملك أن يمتنع عنه من الطاعة والإذعان لمواليه . وإني أعرض عليك  
 هذه الحرية التي تهواها . فإن شئت فأدّ ثمنها ، وما أظنك تفعل . قال  
 العبد : « فقد شئتُ أن أودّي إليك ثمن هذه الحرية لو أني أستطيع  
 أن أبلغه في جو السماء أو في أقصى الأرض » ، قال جبير : « فإنه أدنى  
 إليك من ذلك ، إنه في يثرب ، فاذهب مع قريش في حربها هذه التي  
 تتجهز لها ، ثم عدّ إلى بمقتل حمزة وأنت بعد ذلك طليق » .

قال العبد : « أما أني ذاهب مع قريش فعائد إليك بمقتل  
 صاحبك أو لاق من دون ذلك الموت ؛ فهو أهون عليّ وآثر عندي  
 من حياة الرقيق » .

ولقد سمع الناس منه حديثه عن ذلك البلاء المنكر الذي أبلاه  
 يوم أحد ، وما أرى إلا أنك تعرفه كما أعرفه ؛ فقد أخذ يرقب حمزة  
 وهو يقوم من المسلمين مقام الأسد يندود عن أشباله ، يهذّ الجيش  
 بسيفه هذا<sup>(١)</sup> ، والناس يرونه من بعيد كأنه الحمل الأورق<sup>(٢)</sup> ، فتمتلئ  
 قلوبهم لمنظره رعباً وينصرفون عن موقفه انصرفاً ، وهو يتحدّاهم  
 ويدعو فرسانهم ومغاويرهم . والعبد قائم قد استتر عنه بشجرة ينظر  
 إليه ويرتقب غفلته ، وحمزة لا يراه ولا يحس بمكانه . فلما أمكنته

( ١ ) الهذ : سرعة القطع .

( ٢ ) الورقة ( بالضم ) سواد في غبرة أو هي سواد في بياض كلون الرماد .

الفرصة هزّ حربته حتى رضى عنها ، ولم يكن له بغير الحربة من السلاح علم . فلما تهيأت له الرمية رمى ، وإذا الحربة تُصيب حمزة في مقتل فيختر صريعاً ، والعبد قائم مكانه لا يريم ، يرقب أسد الله صريعاً بعد أن كان يرقبه جاثلاً في الميدان . فلما استوثق من أن صريعه قد قضى ، أقبل يسعى إليه فانترع حربته ، ثم عاد إلى المعسكر فأقام فيه . لم يصنع قبل مقتل حمزة شيئاً ، ولم يصنع بعد مقتل حمزة شيئاً . وما يعنيه من أمر هذه الحرب بين قريش والأنصار ! وإنما أقبل يشتري حربته بمقتل هذا الرجل العظيم ، وقد ظفر بما أراد . فانتظر قفول قريش إلى مكة ، ولم يشهد ما كان من تمثيل هند وصاحباتها بعم النبي ، ولم يشهد ما كان من حزن النبي حين رأى عمه في منظر لم ير صلى الله عليه وسلم قط منظرأ أوجع له وأثقل عليه منه .

ولم يسمع العبد نذير النبي حين أقسم لئن أظفره الله على قريش ليمثان منهم بسبعين مثلة لم تعرفها العرب قط . ولم يعلم العبد أن النبي قد ردّ عن ذلك ردّاً ، وأن الله قد أنزل في ذلك قرآناً ، وأن النبي قد تلا قول الله عز وجل : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوْ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ »

ولم يعلم العبد أن النبي قد اضطرّ إلى أن يكفر عن يمينه ، ثم لم يعلم العبد أن النبي قد عاد إلى المدينة محزوناً أسفاً ، فلما سمع نساء بني

عبد الأشهل يبكين قتلاهن قال: «ولكن حمزة لا بواكي له!» وسمع ذلك منه الأنصار ، فأرسلوا نساءهم يبكين حمزة عند بيت النبي ، وخرج نساء النبي فبكين معهن حتى ردّهن النبي داعياً لهن ، ثم أصبح فنهى عن البكاء . لم يعلم العبد من هذا شيئاً . وماذا يعنيه من هذا ! إنما كان يريد حرّيته وقد بلغها . وماذا صنع البائس بحرّيته ! ! لم يعد إلى بلده ، وكيف سبيل العودة إليها ! ! ولم يسد في مكة ، وكيف السبيل إلى السيادة فيها ! إنما عاش بين قريش حرّاً كالعبد ، وطليقاً كالأسير . نعم ! لم يعلم بشيء من هذا .

ولكنه علم ذات يوم أن جيوش المسلمين مقبلة على مكة ، ورأى ذات صباح جيوش المسلمين تدخل مكة ، واستيقن العبد أنه مقتول إن ظفر به المسلمون ، ففرّ وانطلق في الأرض يلتمس لنفسه مأمناً فلا يجده . هؤلاء المسلمون ينتصرون على العرب يوم حنين ، وهذه أرض العرب كلها تدعن للنبي ، فأين الملجأ من الله إلا إلى الله ! ! لقد أوى العبد إلى الطائف ، وقاوم فيها المسلمين ما قاومهم أهلها . ولكن وفد الطائف يتهيأ للسفر إلى المدينة ، وما هي إلا أيام حتى تدعن الطائف لما أذعنت له مكة . والآن يفكر العبد في مهاجرة البلاد العربية كلها . ولكن كيف السبيل إلى الهجرة ؟ لقد أخذت عليه سبيل الحبشة ، وأخذت عليه سبيل الروم ، وانبسط سلطان النبي على الشمال والجنوب . لقد كانت الهجرة ميسورة قبل الآن ، فأما الآن فقد تقطعت من دونها الأسباب .

هنالك يُلقى بعضُ الناس في نفس العبد أن النبي لم يقتل قطّ رجلاً جاءه مسلماً . وإن النبي يجالس بين أصحابه ذات يوم ، وإذا رجل قائم على رأسه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وينظر النبي فيرى العبد فيعرفه . ولكن الله قد عصم دمه بالإسلام . وما قتل النبي قطّ رجلاً جاءه مسلماً وإن كان قد قتل عمه حمزة . فيأمر النبي ذلك العبد أن يجلس ويحدثه كيف قتل عمه . وهذا العبد قد جلس ، وهو يعيد على النبي بلاءه المنكر ، وحديثه يملأ قلب النبي حزناً ولوعةً وأسى ، والعبد بين يديه ، لو أراد لأرضى حزنه ولوعته بمصرعه ، ولكن أنسى له ذلك وقد اعتصم العبد بالإسلام ! !

وقد آثر النبي أن يعفو ، وآثر أن يصبر . أليس قد عفا عن هند وقد مثلت بعمه ولا كت كبده ، وجدعت أنفه وأذنيه ! فما له لا يعفو عن عبد مامور ! ولكنه قال للعبد : « غيب وجهك عني » . فجعل العبد لا يرى رسول الله إلا تنكب طريقه واجتنب لقاءه .

وعاش وحشياً في المدينة حرّاً كالعبد ، وطيّقاً كالأسير ، وجعل الندم يحزّ في قلبه حزناً ، ويمزق فؤاده تمزيقاً ، ويؤرقه إذا جنّ الليل ، ويعذّبه إذا أقبل النهار .

ولكن العرب يرتدون ، ويذهب خالد بن الوليد لقتال مسيلمة ، وهذا العبد يذهب معه ليقا تل في سبيل الله بعد أن كان يصدّ عن سبيل الله . وهذا العبد يهزّ حربته ذات يوم كما هزّها يوم أحد ، ويتهباً لرميه كما تهباً يوم أحد ، ثم يُطلقها كما أطلقها يوم أحد ، وإذا هي تصيب

رجلاً فتصرعه ، وإذا الحربة التي قتلت حمزة قد شاركت في قتل  
 مسيلمة ، وإذا وحشيٌ قد قتل خير الناس ، وقتل شر الناس !  
 وقد عفا النبي عن قاتل عمه ، وعفا المسلمون عن قاتل أسد الإسلام .  
 ولكن نفس وحشي لم تعف عن وحشي ، ولكن دم مسيلمة لم يغسل  
 من نفسه دم حمزة !

وهذا العبد الحر يمضي مع جيوش المسلمين غازياً ، فيقاتل الروم  
 وينتصر مع المنتصرين ، ويستقر مع المستقرين في مدينة حمص هذه .  
 ولكن بلاءه أيام الردة ، وبلاءه أيام الفتح ، وما احتمل في هذا كله  
 من جهد ، وما ناضل في هذا كله عن الإسلام ، لم يغسل عن نفسه  
 دم حمزة ، ولم يبرى نفسه من الندم لمقتل حمزة . ولم يبلغ الإسلام من  
 قلب هذا الرجل ما بلغ من قلوب كثير من الناس فيمحو من قلبه  
 ما قدّم في جاهليته . وإذا هو يستعين على الندم بالخمير ، وإذا هو  
 يشرب ويسرف في الشرب ، وإذا هو يُضربُ في الشراب فلا يمنعه  
 الحدّ في معاودة الشراب . وإذا هو معروف في أهل حمص بما قدّم  
 من خير وشر . وإذا هو معروف في أهل حمص بسكره إذا سكر ،  
 وبصحوه إذا صحا . وإذا هو يسكر حتى يُصبح مخوفاً على من يدنو منه ،  
 ويصحو حتى يصبح عاقلاً حلو الحديث . والندم يُلحّ عليه حتى يُبغضه  
 إلى نفسه تبغيضاً ، ويصرفه عن الصحو صرفاً . وكلما مضت عليه الأيام  
 ازداد إمعاناً في الشراب ، والسن تتقدم به ، وجسمه يضعف شيئاً  
 فشيئاً ، وعقله يذهب قليلاً قليلاً ، والندم مائل مع ذلك في نفسه ،



ملمّ بداره ، يأخذه من كل وجه ، وهو لا يجد سبيلا إلى الفرار منه إلا إلى الشراب . وهو يُضرب في الشراب وقد ضعف وفنى فلا يحتمل الضرب فيموت . ونشهد جنازته اليوم .

أرأيت أنى لم أكن ملمحاً ولا مؤثراً للغموض حين كنت أحدثك بما كنت أحدثك به من هذه العواطف المختلفة التي كانت تثيرها جنازته في نفوس الناس ؟ .

قال عمير : « أشهد أن حكمة الله بالغة ، وأن الرجل الرشيق خليق أن يتعظ بما فهم من قضاء الله ، وأن يطمئن إلى عدل الله وعفوه إذا أشكلت عليه الأمور » .

قال محمد بن نصر : « فإني لا أعرف شيئاً يغسل عن النفس إثمها وينقيها من السيئات كهذا الذي نحن فيه من جهاد عدو الله ما وجدنا إلى هذا الجهاد سبيلا » .



## الوفاء والمر

بالتواضع

أقبل الفتى على أمه وعمه جذلان مبهجاً ، قد تألق وجهه بشراً ،  
ولكن الحزم والعزم ظهرا في عينيه الحادتين وفي صوته الممتلئ الهادئ  
الرزين . ولم يكن كعب قد أتم السابعة عشرة من عمره ، ولكنه كان  
قوى الجسم ، مرتفع القامة في السماء ، كثير الحركة ، عظيم النشاط ، في  
نفسه حزن دفين . يظهر في صوته إذا تحدث إلى الناس ، وفي خواطره  
التي كان يديرها في رأسه كثيبة قائمة ، ويخرجها إلى لداته وأترابه عابسة  
شاحبة لا حظاً فيها للرضا ولا للابتسام .

وكان لداته وأترابه يتحدثون عنه إذا لم يشهدهم ، فيذكرون  
التناقض بين حركته الدائمة ونشاطه ، وبين نفسه الحزينة وباله  
الكاسف ، ويقول بعضهم لبعض : ما نظن هذا النشاط المتصل  
والحركة العنيفة ، إلا وسيلة يتخذها كعب ليتسلى بها عن هذا الحزن  
الخبىء الذى لا يريد أن يُظهره ولا أن يبوح به ، والذى يحميه في أعماق  
ضميره كأنه حرم لا ينبغى لغيره أن يبلغه أو يظهر عليه .

وكانت أمه تجد مثل ما يجد أصحابه من الإشفاق عليه والرثاء له ،  
ومن إنكار هذا التناقض بين جسم مضطرب نشيط ونفس ساكنة  
هادئة حزينة . ولكنها كانت تعلم من أمر هذه النفس الهادئة الحزينة  
أكثر مما كان يعلم أصحاب الفتى .

وكانت تتحدث عن حزن الفتى واكتنابه إلى عمه الشيخ إذا  
 خلت إليه . وكان الشيخ يسمع لها ويصغى إليها ، ثم ينظر إلى وجهها  
 المشرق الذي يترقق فيه حزن رقيق ، تُخفي أصوله في نفسها نظرات  
 طويلة ، ثم يقول لها في هدوء متكلف وأناة مُصطنعة وصوت يكاد  
 يتفجّر فيه الغيظ المكظوم : « مهلاً مهلاً يا أسماء ! فإن الأوان لم يَبْنُ »  
 بهد . وكانت أسماء تسمع من الشيخ هذه الجملة التي يكررها كلما  
 تحدثت إليه في أمر الفتى ، فلا تزيد على أن تلزم الصمت ، وتقطع  
 الحديث ، وترسل دموعاً هادئة تنحدر على وجهها الجميل ، ثم تُسرع  
 إلى هذه الدموع فتكفكفها ، ثم تنصرف عن الشيخ ساعة ، ثم تعود  
 إليه مشرقة الوجه باسمّة الثغر ، كأنها لم تقل له شيئاً ولم تسمع منه شيئاً ،  
 وكان دموعها الغزار لم تغسل وجهها الجميل .

وكانت أسماء قد وصلت بابنها الصبي إلى هذه المدينة من مدن الشام  
 منذ أكثر من عشر سنين ، تحمله بين ذراعيها ، ولا تُخلى بينه وبين  
 الحركة الحرة إلا قليلاً لكثرة ما خافت عليه ، ولكثرة ما تعرّضت  
 وتعرّض معها له من الهول . فلما انتهت إلى المدينة تلقاها الشيخ فأحسن  
 لقاءها ، وسمع منها حديثها فأحسن له ألواناً مختلفة من العواطف : أحسن  
 الغيظ والحنق ، وأحسن الثورة والغضب ، وأحسن الرحمة والإشفاق ،  
 وأحسن البرّ والحنان ، وقال لامرأة أخيه آخر الأمر : « أقيمي يا أسماء  
 وادعي مطمئنة ، فقد بلغت مأمنك وانتهيت إلى دارك ، ولك على  
 ألا تجدى في هذه الديار إلا ما ترصنين ، وأن أقوم على هذا الصبي كما

كان أبوه يريد أن يقوم عليه ، لا أسألك في ذلك إلا أمرين : أن تفرغى للصبي حتى يتم رجلاً كامل الخلق موفور القوة ، ولك بعد ذلك أن تفرغى لنفسك ، فتلتصق الزواج وتستأنى الحياة ، وأن تكتفى على الصبي أمر أبيه فلا تُنبئيه منه بشيء حتى أودّك بأن الأوان قد آن .

قالت أسماء وقد شاع في صوتها من الأسى ما يُذيب القلوب :  
 « واحسرتاه ! وهل أستطيع أن أفرغ لشيء غير هذا الصبي الناشئ !  
 وغير ذكرى ذلك الشيخ الذي مضى ولم يترك مع ابنه إلا لوعة ما أراها تهدأ ، وحباً ما أراه ينجلى عن هذا القلب البائس ! لن أفكر إلا في هذا الصبي أعدّه ليكون لي خلفاً من أبيه . فأما الزواج فقد قضيت أربي منه . وأما الحياة فقد أخذت منها كل ما أعطتني ، فما أطمع منها في شيء ، وما أرجو منها خيراً . ولقد ودّعت حياة الزواج يوم ودّعت أبا كعب ، ففضي إلى الموقعة ، ومضيت إلى هذا الوجه من أرض الشام . ولقد أردت أن أطيل وداعه ، وأن أسترسل معه في بعض الحديث ، وأن أعاهده على الوفاء له ، وأن أقسم له على أني سأظلّ له زوجة إن قضى كما كنت له زوجة قبل أن يتعرض للموت . ولكنه لم يُرد أن يسمع لي ولا أن يُصغى إليّ ، ولا أن يُطيل موقف الوداع ، وإنما نظر إلى نظرة فيها الحب والغضب معاً ، ورفع ابنه فقبله بين عينيه ، ثم دفعه إلى في شيء من العنف ثم تحوّل عني . حتى إذا استقلت الإبل ودفعت في طريقها إلى الشام ، تلفت فإذا هو قد استدار وجعل يُتبعنا بصره وهو قائم لا يتحرك ولا يظهر على وجهه إلا هذا الغيظ المروع

الذى رأيتَه فأنكرته حين عاد إلى من ناديه آخر النهار . فلما أبى أن يسمع لى وبتلتنى قسى عاهدت نفسى وقد عجزت عن أن أعاهده ، وأقسمت لنفسى وقد عجزت عن أن أقسم له . ثم لاقيت فى الطريق ما تعلم من خطب ، وتعرضت لما تعلم من هول ؛ فلم تُبق الحوادث منى لحياة الزوجات شيئاً ، وإنما أبقت منى لحياة الأمهات كل شىء .

قال الشيخ : « وتكتمين على الصبى أمر أبيه حتى أوذناك بأن الأوان قد آن » . قالت : « ذلك لك ، وإن كنت لا أعرف كيف أجد السبيل إلى الكتمان » .

وأنفقت أسماء أعواماً وأعواماً ، تُنشئُ ابنها وتحذب عليه فى ذرّاً البرّ العنيف الماكر من شيوخ يهود فى الشام . حتى إذا تقدّمت السنّ بالفتى وعرف نفسه ونظر ، فلم يجد حوله إلا أمه وعمه سأل عن أبيه ، فأنبأته أمّه باسمه ومكانته من قومه ، وبأنه قد لقي مصرّعه فى بعض ما يلقى الناس فيه مصارعهم من الحوادث التى تعرض ، والخطوب التى تُلمّ هناك فى تلك الأرض البعيدة التى هاجر اليهود إليها بحريّتهم فيما مضى من سالف الدهر .

وجعل الفتى يسأل أمه ويلحّ فى السؤال يريد أن يعرف عن أبيه أكثر من ذلك فلم يجد منها إلا مداورة والتواء ، فلجأ إلى عمه فلم يجد عنده إلاّ مثل ما وجد عند أمّه من المداورة والمرأغة والالتواء . هنالك ارتاب الفتى وأثر الشكّ فى نفسه آثاراً عميقة . وهنالك تعقدت الأمور فى ضمير الفتى ، فأحسّ الخوف من هذا السرّ الذى تُخفيه عليه أمه



ويحجبه عنه عمه ، وأحسّ الكبرياء التي منعتها من الإلحاح في السؤال مخافة أن يعلم ما يَغضّ من نفسه أمام نفسه ، وأحسّ الإشفاق على هذه الأمّ الجميلة البرّة الحزينة أن يكون في إلحاحه عليها ما يؤذيها ، أو أن يكون في جوابها له ما يؤلّه . فعكف الفتي على نفسه ، وأسرّ الحزن في ضميره ، وجاهد الهمّ ما استطاع إلى جهاده سبيلاً ، فلم يقهر الهمّ ولكن الهمّ لم يقهره . وكانت الحركة الدائمة والنشاط المتصل وسيلته إلى هذا الجهاد ، فكان لا يُصبح إلا أسرع إلى الخروج من داره ، واضطرب فيما يضطرب فيه شباب العرب في هذه المدينة القائمة في طرف من أطراف الشام . صراعٌ وجلادٌ وخروج إلى الصحراء القريبة للصيد مرةً وبجرد الإبغال في الصحراء مرةً أخرى ، وحديثٌ إذا شقّ على الفتي وأترابه ما ينفقون وقتهم فيه من الحركة والاضطراب . ولكنه لم يستطع قط أن يمنح الحياة ابتسامة نقية من الشوائب ، كما لم يستطع قط أن يتلقى من الحياة ابتسامة بريئة من العبوس .

فلما كان ذلك اليوم أقبل الفتي على أمه وعمه جذلانَ فرحاً يتألق وجهه بشراً ولا يفارقه مع ذلك حزنه العميق . ولم يكذ يراها حتى قال لهما في صوت متقطع قد امتزج فيه الأمل باليأس : « تهباً للرحلة ، فليست هذه المدينة لكما بدار منذ اليوم » .

فوجمت الأم ولم تُحَرّ جواباً ، وتماسك الشيخ ونظر إلى ابن أخيه نظرتة الطويلة العابسة الماكرة ، وقال في هدوء متكلف : « وما ذاك ؟ » . قال الفتي : « ذاك أن جيوش هذه الصابئة من أصحاب محمد قد دنت

من أرضنا ، وأن نائب قيصر يستعدّ للقائها ، وقد هيا جيوش الروم وأذن في أهل الشام من العرب بالنفير العام . وما أرى إلا أن هذه المدينة ستكون موضعاً للصراع بيننا وبين هذه الصابئة .

قال الشيخ وهو محتفظ بهدوئه المتكلف : « وما نحن وهذا الصراع يا بني ؟ نصارى ومسلمون يقتتلون ، سترتحل وسنخلى بينهم وبين ما يملأ قلوبهم من الحقد والبغض » . قال الفتى : « سترتحلان ! أما أنا فمقيم » . قالت أسماء : « أما أنت فمقيم ! وما تريد أن تصنع في دار الحرب ؟ وكيف تمدر أنا سترتحل من دونك ؟ » .

قال الفتى : « سترتحلان لأنكما لاتقدران على الحرب ، وليس لكما فيها أرب ، وسأبقى أنا لأنى أقدر على الحرب ، ولأن لى فيها أرباً » . قالت أسماء : « لك فى الحرب أرب ! وما هو ؟ » . قال الفتى : « هو أن أجد فيها من الجدد ما يشغلنى عن نفسى ويصرفنى عن همى . فإن لقيت فيها الموت فسأستريح من حياة لم أجد فيها إلا عناء وحزناً » .

وتحطم صوت الفتى وجرت دموعه على خديّه ، فنهضت إليه أمه تضمه إليها وتمزج دمعها بدمعه ، وثبت الشيخ فى مكانه هادئاً ينظر إلى الفتى وأمّه نظرتة تلك الطويلة العابسة الماكرة ، ثم انفرجت شفتاه عن هذه الجملة التى قالها وهو ينهض متثاقلاً : « لقد آن الأوان يا أسماء ! » .

وانصرف الشيخ وترك الفتى واجماً ، وأمه تنازع شيئاً من حيرة طارئة . ولكن لم يمض إلا قليلٌ حتى ثاب الفتى إلى نفسه ، وخلصت الأم من حيرتها ، فنظرت إلى ابنها نظرةً فيها كثير من الحنان ، وفيها كثير من الوجد ، وفيها كثير من الغيظ الدفين . ثم أخذت بيد ابنها فأجلسته وجلست إلى جانبه ، ثم أحاطت عنقه بذراعها وضمته إليها ، ثم قالت : « فأنت إذا تريد أن تحارب يا بُنى ؟ » . قال الفتى : « نعم ! » قالت الأم : « من تريد أن تحارب ؟ » . قال الفتى : « أريد أن أحارب هذه الصابئة التي تُغير على أرض قيصر ، وتريد أن تُجلينا عنها أو أن نتخذنا لها عبيداً وخداماً » .

قالت الأم : « فإنك لن تفعل من هذا شيئاً يا بُنى إلا أن تكون ابناً عاقاً يُنكر أباه » . قال الفتى وقد وجم : « ماذا تقولين ؟ وماذا أعرف من أمر أبي ؟ وكيف يكون قتالي لهذه الصابئة التي اضطهدت يهود فقتلتهم وعدت بهم وأجلتهم عن ديارهم إنكاراً لأبي وجحداً لحقه على ؟ » قالت الأم : « إن الأمر يا بُنى لأعسر مما تظن ! لقد هياك عمك لتتأر لأبيك وليهود من هؤلاء الذين تسميهم الصابئة . ولقد صابرتُه وطاولته ومالاته على ما فعل وشاركته فيما أراد ، وكنت أستجيب في

ذلك لعواطف نفسي وأهوائها ، وكنت أستجيب لهذه العصبية التي يجدها أبناء يهود جميعاً على هؤلاء الذين قتلوهم وعذبوهم وأجلوهم عن ديارهم كما تقول . وكنت أستجيب لشيء آخر يا بُنيّ هو حبي لك وحرصى على تنشيتك وحمایتك من غوائل الدهر ، ووفائى لعمك هذا الشيخ الذى منحننا من العطف والبر والحنان ما مكنتنى من أن أبلغ بك هذه السن وأصير بك إلى هذه الحال . ولقد انصرف عنا الآن يا بُنيّ وهو يقدر أنى سأهيتك لما هياك له ، وسأعدك لما أعدك للمضى فيه ، وسأنبئك بحديث أبيك على نحو يدفعك إلى الثأر له . ولكنى يا بُنيّ أنظر إليك إلى جانبي ، وأنظر إلى أبيك فى قرارة ضميرى ، أرى وجهك مائلاً فى عيني ، وأرى وجهه مائلاً فى قلبى ، أسمع لصوتك العذب يمسّ أذنى مسّاً حلواً ، وأسمع لصوت أبيك العنيف يهز ضميرى هزاً قوياً وأسأل نفسى : أأنى للأحياء أم أنى للموتى ؟ » .

ثم أطرقت أسماء ساعةً والفتى ينظر إليها ولا يكاد يفهم عنها . ولكن أسماء رفعت رأسها وكفكت من دمعها ، وقالت فى صوت هادئ مطمئن ولكنه مظلم حزين : « أنت بين اثنتين يا بُنيّ : فإما أن تحارب مع هؤلاء الذين تسميهم الصابئة ، وإما أن تعزل لحرب وترحل مع المرتحلين . فأما أن تحارب فى جيش قيصر فذلك شيء لا سبيل إليه » .

قال الفتى : « ماذا تقولين فإنى لم أفهم عنك منذ اليوم ؟ » . قالت أسماء : « أقول ما كرهت يهود أن تقولوه ، وما كره عمك أن يقولوه .

أقول شيئاً لو قالته يهود لما قتلت ولا عُذبت ولا أُجليت عن ديارها .  
 إن أباك يا بُني لم يكن لنبيّ العرب عدواً وإنما كان له صديقاً وبه حفيماً  
 وله وفيماً . لقد عاهدت يهود نبيّ العرب على أن تنصره إن اعتدى عليه  
 المشركون من قومه . فلما آن أوان الوفاء بالعهد وأقبلت جيوش قريش  
 تريد الغارة على المدينة ، نفر نبيّ العرب للحرب ونفر معه من نفر من  
 أصحابه ، ودعا أبوك قومه إلى الوفاء بالعهد فتلكثوا وتباطئوا وتناقلوا ،  
 وحاورهم أبوك فتشدد في الحوار وذكروهم وألح في تذكيرهم ، ولكنهم  
 تعللوا يا بُني ، وقالوا : يحارب محمد في يوم السبت ، وما ينبغي أن  
 نحارب في يوم السبت .

« قال مُخْبِرِيْق - ولم تكذ تنطق باسمه حتى احتبس صوتها وانهمرت  
 عبرتها فكفت عن الحديث حيناً ثم استأنفته قائلة - قال مُخْبِرِيْق :  
 فإن محمداً لم يختر الحرب ولم يختر يومها ولم يختر موضعها ، وإنما اختار ذلك  
 عدوه . لاسبت لكم ! وانفروا إلى الوفاء بالعهد ، فلم يجد منهم إلا  
 إعراضاً وإصراراً على الإعراض . وما أنس يا بُني فلن أنسى عودة أبيك  
 من نادى قومه وقد اربد وجهه وتطاير شرر الغيظ من عينيه . وكنا إذا  
 أقبل إلينا تلقيناه مبهجين بلقائه وتلقانا هو مبهجاً بعودته إلينا . فلما  
 أقبل ذلك اليوم لم تكذ أبصارنا ترتفع إليه مفتونة مُعجبة حتى ارتدت  
 عنه محزونة مشفقة . أنكرناه يا بني بل خفناه . ولم ينظر إلينا هو وكأنه  
 لم يحس أننا كنا نتلقاه ، ففضى أمامه لا يلوى على شيء ، حتى إذا  
 انتهى إلى حجرته أقبل على التوراة فنظر فيها غير طويل ثم طواها ، ثم

أمر أحد غلمانه أن يدعو إليه بعض أصحابه من يهود . فلما أقبلوا أقرأهم شيئاً في التوراة ثم قال : « أسبتوا إن شتم من الغد ، فأما أنا فلا سبت لي » . ثم قال لهم : « اشهدوا أنني نافرٌ إذا كان الغد فواف بعهدى لهذا الرجل ؛ فإن أصبتُ في هذا اليوم فمالي كله لهذا الرجل يقضى فيه بما أراد الله » . ثم دعا كبير غلمانه فأمره أن يهبي الإبل لرحلة طويلة . فلما تهيأ له ذلك دعا هذا الغلام فأوصى إليه أن يرتحل بي وبك حتى يبلغ هذه المدينة من أرض الشام فيسلمنا إلى عمك ، فإن فعل ذلك فهو حرٌّ . « ولم يستقر له قرار حتى استقلت بنا الإبل واستبد بنا السفر ، وحدا بنا الحداة ، وقد أنبئت يا بني أنه قاتلٌ حتى قُتل . وقد أنبئت يا بني أن نبي العرب كان يقول إذا تحدث عنه أو سمع الحديث عنه « مُخبريق خير يهود » . وقد صارت إليه يا بني أموال أبيك ، فلم يأخذ لنفسه منها شيئاً ، وإنما أجراها صدقة على الفقراء من أصحابه . ولم يستقر لنا الطريق يا بني إلى هذه المدينة من أرض الشام ، وإنما التوت بنا أشد الالتواء ، فلم يقنع العبد بحريته ولم يف لأبيك بوعدده ، وإنما أطمعته الدنيا ، وزين له حب الثراء أمراً عظيماً ، فهم أن يبيعنا يا بني ببيع الرقيق لولا أن أخطأه الحظ ، فعرضنا على من لم يشق على أن أعرفه بنفسى وزوجى . فلما عرّفنا أكرم مَثوانا ، واحتفظ بالعبد رقيقاً ، وأمننا وصاحبنا حتى أبلغنا هذه الدار . وكنت يا بني صبيّاً لا تعقل ولا تكاد تستقل . فلما أنبأت عمك بهذه الأنباء لم ألق منه إلا خيراً ، ولم يطلب إلى إلا أن أكتملك الحديث ، حتى يأتي لك أن تنهض للنار . ولم يرد

عمك أن يُقر أباك على ما فعل ، بل لم يرد عمك أن يصدق من هذه الأنبياء إلا ما أراد هو وما أرادت يهود ، فزعم أن أصحاب محمد قتلوا أباك . وما قتلوه يا بني وما عرضوه للقتل ، وما طلبوا منه حرباً ولا قتالاً ، ولكن أباك وافي بالعهد يا بني ، وقد يكون الوفاء مراراً في بعض الأحيان . فانظر ماذا تصنع : أنتصر قوماً نصرهم أبوك ؟ أم تكف عن حرب قوم نصرهم أبوك ؟ فأما أن تخذل من كان لهم أبوك ناصرًا ، فما أرى أن ذلك شيء تستطيع أن تقدم عليه .

قال الفتي : « حسبك يا أماه فقد سمعت ! وسأنظر في أمري . ولكن ارتحلي ؛ فليست هذه المدينة لك بدار . » قالت أسماء : « سأرتحل يا بني عنك كما ارتحلت عن أبيك . » قال الفتي : « سيكون وداعك لي قصيراً ، كما كان وداعك لأبي قصيراً . »

ومضى عام وبعض عام وإذا أعرابي من جند المسلمين يسأل في دمشق عن امرأة يهودية تعرف بأمة كعب أسماء زوج مخيريق ، ويكفلها يهودى شيخ هاجر معها من أطراف الشام حين أغار المسلمون على هذه الأرض . وقد جدت حارث بن الحباب السلمى فى البحث عن هذه المرأة واستقصاء أمرها ؛ حتى إذا اهتدى إلى دارها وأدخل إليها ذات ضحى ، قال لها فى لهجته الحجازية البدوية : « أبشرى يا أمة الله فقد كتب الله لابنك الشهادة كما كتبها لأبيه مخيريق ! » .

سمعت أسماء لهذا الأعرابي فلم تعبس ولم تبسم ، ولم تنهر من عينها عبرة ، ولم يظهر على وجهها حزن ، وإنما قالت : « إنا لله وإنا إليه راجعون ! » .





## طبيب النفوس

سابقہ

« أين الناضرة؟ على بالناضرة . رُدّوا على الناضرة! » . وكان صفوان بن أمية يقول هذا في صوت تظهر فيه الحدّة والغضب ، ويظهر فيه السخر والضحك معاً . وكان يقول هذا وهو يرمى إلى قيّم داره بنظرات كأنهن قطع النار ، حتى أخاف القيم وملاً قلبه روعاً وهولاً ، فقام مبهوتاً لا يدري ماذا يصنع ولا يعرف كيف يجيب . وكان يقول هذا وقد أخذ بيد صديقه الحارث بن هشام يجذبه إليه جذباً عنيفاً لا رفق فيه ، ويضطره إلى المجلس الذي أراده على أن يجلس فيه ، لا يلتفت إليه ولا يسمع له ، كأنما يجذب شيئاً لا رأى له ولا إرادة . فلما طال عليه وجوم القيم أقبل عليه منذراً لا يكاد يُخفي حنقه وهو يقول : « ألم أسألك عن الناضرة ! ألم أطلب إليك الناضرة؟ ! أفى أذنك وقرّ ! أتحوّلت صخرأ لا يسمع ولا يجيب؟ » . قال القيم في صوت مضطرب وبلسان متلجلج : « فإن الناضرة في حيث أمر مولاي أن تكون من الحبس ، وعليها ما أمر مولاي أن يكون عليها من الأغلال منذ غنت ذلك الصوت » . قال صفوان متضحكاً لا يكاد يهدأ غضبه : « وقد ضربتّها الأسواط التي أمرك مولاك أن تضربها في كل يوم إذا أصبحت ، وكنت تهبأ لتغديها بالأسواط التي أمرك مولاك أن تغديها

بها في كل يوم إذا مالت الشمس إلى الزوال ؛ فإني أريد الآن أن  
أضعك مكانها وأجعل عليك أغلالها ، وأرد إليك السياط التي قدمتها  
إليها منذ أمرتك ذلك الأمر المُحتمق . اذهب فأخرج الناضرة من  
حبسها ، وضع عنها أغلالها ، وأقبل علىّ بها مكرمة موفورة ، وأسرع  
في ذلك ولا تبطئ ، فإني أخشى أن يجرّ عليك الإبطاء شراً عظيماً .  
قال ذلك ثم تحوّل عن مولاه إلى صديقه الحارث بن هشام وهو يقول :  
« ما رأيت أحداً بلغ به الحمق ما بلغ بهذا الغلام » .

قال الحارث وهو يتكلف الابتسام : « بل ما رأيت أحداً بلغ  
به الغيظ ما بلغ بك أيها الصديق . إنك لتكلف هذا الفتى من أمره  
شططاً ، تأمره أن يحبس هذه الجارية وأن يعذبها ، ثم لا تُظهر له أنك  
غيرت رأيك فيما أردت من حبسها وتعذيبها ، ثم تلومه الآن لأنه أمضى  
ما أردت ولم يخالف عن أمرك ! » .

قال صفوان : « فإنه يزعم أنه ذكي لبق » ، وأنه يعرف ما لا يُعرف ،  
ويسبق إلى فهم الأشياء ، وهو قد رأى ما نرى وسمع ما نسمع وأحس  
ما نحس ، وعلم أن كل شيء من حولنا يتغير ، وأن كل سلطان من  
حولنا يزول : فقد كان من الحق عليه أن يعلم أن لم يبق لنا على  
الناضرة حبس ولا تعذيب » .

قال الحارث وقد انجلى عنه ما كان يغمر وجهه من الحزن ، وابتسم  
ثغره عن ابتهاج صريح : « نعم ! وقد كان ينبغي أن يعلم أن ليس لك  
عليه أمر ولا نهى ، وأنت لا تملك أن تلومه ولا أن تعنف عليه . وقد كان

ينبغي أن يدع دارك هذه وما فيها ومن فيها ، وأن يمضي إلى حيث يلتقى  
حرّيته وأمنه ورجولته كاملة ثم يعود إليك متسلطاً ظافراً ، فيصدر إليك  
من الأمر ما يُصدر الغالب إلى المغلوب .

قال صفوان وقد ثابت إليه نفسه واطمأن قلبه بين جنبيه : « نعم !  
هو ما تقول . لقد رأيت اليوم ما أخرجني عن طوري . وإن أعجب  
لشيء فإنما أعجب لهدوئك واستقرار نفسك ، واطمئنانك إلى ما يقع  
حولك من الأحداث . »

قال الحارث : « وماذا تريد أن أصنع ؟ لقد جاهدت محمداً ما  
وسعني جهاده ، وحاربتة ما وجدت إلى حربه سبيلاً . ولقد ذقت في  
هذه الحرب مرارة الهزيمة وحلاوة النصر . ولقد طاولته كما طاولته قريش ،  
وعاجلته كما عاجلته قريش ؛ فقد أبت الأحداث إلا أن يظهر محمد على  
قومه ، وأبت الأحداث إلا أن يدخلها علينا محمد عنوة ، وقد حلنا بينه  
وبين ذلك منذ أعوام ، فلم ينفعنا ما قدمنا إليه من عنف ، ولم يُغن عنا  
ما أظهرنا له من بأس . وها هو ذا يدخلها علينا لا عنيفاً بنا ولا مشتطاً  
علينا ، لا يجزينا من بأسنا بالأس ، ولا يلقانا بمثل ما لقيناه به من  
الصلف والحال<sup>(١)</sup> . ولكني لم أعرف الناصرة هذه التي تطلبها ، ولا أعلم  
فيم حبستها وأثقلتها بالأغلال ، ولا أفهم فيم سؤالك عنها وإلحاحك في  
هذا السؤال ، وفيم تكريمك لها بعد أن أرهقتها بالعذاب ! »  
قال صفوان : « فإنك ستعلم من هذا كله ما جهلت . »

(١) الحال : اسم بمعنى الخيلاء .

وأقبل القبيم يدفع أمامه في رفق فتاة قصيرة الخطو ، تتقدم في كثير من التردد والامتناع ، في وجهها جمال لا تبلغه العين حتى يصل إلى القلب فيحدث فيه أثراً عميقاً . ولكنها تتقدم مترددة ممتنعة ، قد مالكتها الخوف والإشفاق ، وكأن ما لقيت من السجن والعذاب قد آذى منها قلباً كريماً ، وأهان منها نفساً عزيزة ، وإن لم يؤمن ساجنوها ومعذبوها لها بكرم القلب وعزة النفس . ومتى آمن السادة الأحرار بالكرم والعزة للرقيق المستذل ! وكان وجه الفتاة يُبين عما يملأ قلبها من خوف كما كان يبين عما يؤذي نفسها من هذا الشعور بالإهانة ، ولكنه كان يبين في الوقت نفسه عن شيء يشبه الرضا والإذعان وعن شيء يشبه العفو والمغفرة . كان هذا كله يُقرأ في ذلك الوجه الجميل المشرق ، وفي تلك اللحظات الوداعة الهادئة .

فلما رآها الحارث مال إلى صاحبه وهو يقول : « ما رأيت أنضر من هذا الوجه ! » . قال صفوان : « وما عرفت أكرم من هذه النفس » . ثم نظر إلى الفتاة في رفق عظيم وهو يقول : « أقبلي يا بنتي فليس عليك بأس ! أقبلي لا تُتراعي فأنت آمنة منذ اليوم . لقد آذيناك وشققنا عليك ، ولكننا سنصلح ما قدمنا إليك من مساءة . أقبلي ونحذي مجلسك مني كما تعودت أن تجلسي ، وغنّيني ذلك الصوت الذي كان مصدر ما لقيت من الأذى ، والذي سيكون مصدر ما تلقين من النعيم » . ولكن الفتاة لبثت قائمة واجمة كأنها لا تسمع ، أو كأنها لا تفهم ، أو كأنها لا تصدق ما كان يساق إليها من الحديث .

قال صفوان : « أقبل يابنتي واسمعي لما يقال لك ، وأنزليه من نفسك منزل الحق ؛ فأنت حرة بعد أن تغنيني ذلك الصوت ، وأنت مطلقه تذهبين حيث تشائين ، وتستقبلين من أمرك ما تريدن ، ولك علي ألا تتعرضي لحاجة ، وأن تُكفي غوائل الدهر . اجلسي يابنتي كما تعودت أن تجلسي ، وغني يابنتي كما تعودت أن تغني » .  
ثم التفت إلى قيم الدار وقال في صوت حازم : « الحمر والأقداح يا غلام ! » .

وما هي إلا ساعة حتى كان الصديقان مُقبلين على شرابهما ، والفتاة تغنيهما في صوت عذب نفاذ إلى القلوب ، يغمر وجهها إشراق أخاذ للنفوس هذه الأبيات :

جزى الله رب الناس خيراً جزائه رَفِيقِينَ حِلا خِيمَتِي أم مَعْبِدِ  
هما نَزَلا بِالبرِ ثم تَرَوَّحَا فأفْلَحَ مَنْ أَمسى رَفِيقَ مُحَمَّدِ  
لِبنِ بَنِي كَعْبِ مَكَانَ فَتَاهِمِ ومَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمِرْصَدِ  
قال الحارث بن هشام ، بعد أن أخذ من الغناء والشراب بحظ موفور : « ألم يأن لك أن تنبئني عن قصتك ، وأن تبين لي عن خطتك ، فيأني أراك شديد الغموض منذ اليوم ، وما عرفتك قط غامضاً ولا ملتويّاً فيما تأتي وما تدع من الأمر !! »

قال صفوان : « أتذكر هذا الشعر ؟ » . قال الحارث : « كيف لا أذكره وقد عرفنا به وجه محمد في هجرته ، واستياسنا به من القدرة على رده إلينا ، وتعلمنا به أن ستكون لنا معه خطوب !! إني لأسمع هذا

الشعر الآن كما كنت أسمعه في تلك الليلة حين انطلق به ذلك الصوت الرائع الرهيب يمشى به صاحبه من أسفل مكة إلى أعلاها ، والناس يسمعونه ويتبعونه ، ويلتمسون مصدره فلا يرون له شخصاً ، فيستقر في نفوسهم أنه هاتف من الجن . وما أدري الآن أكان هاتفاً من الجن أم كان هاتفاً من الملائكة ، ولكنه كان روحاً من هذه الأرواح التي ملأت علينا جوتنا في هذه الأعوام .

قال صفوان : « فإني قد كرهت هذا الشعر كرهاً شديداً ، وازداد كرهى له منذ قُتل أبى وأخى بأيدى أصحاب محمد ، ومنذ ورد الملائم من قريش موارد الموت فيما كان بيننا وبين محمد من حرب . ولقد حاولت الثأر في أحد ، ولقد حاولت الثأر بعد أحد . ولقد كنت أظن أنى سأجد فيمن قتلنا من أصحاب محمد وبني أبيه شفاء ، ولكنى لم أجد إلا غيلاً يزداد تحرقاً وتأججاً كلما تقدمت الأيام . ولقد التمسست السلوة عن هذا الغل في الرحلة ، والتمسته في الصيد ، والتمسته في اللهو ، فما ظفرت به وما وجدت إلى شيء منه سبيلاً . وأدعو ذات يوم بهذه الفتاة وأطلب إليها الغناء ، فتغنينى ما شاءت ، وأطرب لصوتها العذب وغنائها الحلو ، فأستزيدها فإذا هى تغنينى هذا الشعر ، فتذكرنى بما كنت أريد أن أنسى ، ويكون ذلك حين تبلغنا الأنباء بأن محمداً قد عبأ لحربنا . وفصل من يثرب ليدخلها علينا عنوة بعد أن رددناه عنها كراماً ، فيملكنى الغضب وتستأثر بى الثورة ، وأمر بالفتاة كما رأيت أن تحبس فى بيت من بيوت هذه الدار ، وأن توضع عليها الأغلال ،



وأن تُصَبِّحَ وتُتمسى بالسياط تُلهب جسمها هذا الرخص الجميل .  
قال الحارث : « ففيم إطلاقك لها ، وفيم استماعك لهذا الصوت  
وشربك عليه ؟ » . قال صفوان : « فإن الرجل الكريم هو الذي يلقى  
جليل الأمر معترفاً به غير منكر له ولا جاحد لأخطاره . وقد حاربنا هذا  
الرجل ما وسعتنا حربه ، وقد ظننا به الظنون ، وأرسلنا فيه ألسنتنا  
وعقولنا ، وقلنا فيه ما نعتقد وما لا نعتقد ، وكانت الأيام تكذبنا ،  
وكانت الحوادث تكشف لنا عما كنا فيه من الإثم والضلال ، فكنا  
لا نسمع للأيام ولا نؤمن للحوادث ، وإنما نمضي فيما كنا نُضمِر من  
البغض ، وفيما كنا نُظهر من العدوان . ولم تكن الحرب بينا وبين  
هذا الرجل ، وإنما كانت بيننا وبين قوة أعظم من هذا الرجل بأساً وأشد  
منه نفاذاً وأبعد منه أثراً في حياة الناس . كنا نغالب القضاء ، فقد  
غلبنا القضاء . وكنا نحارب السماء ، فقد قهرتنا السماء . فما الخير في  
أن نمضي فيما كنا نمضي فيه من صلف قريش وكبريائها ، ومن جاهلية  
قريش وغرورها !! » .

قال الحارث : « إنك لتحدثني بما ناجتني به نفسي مذ أعوام ،  
وبما كانت تناجيني به نفسي حين لقيتك عائداً إلى دارك بعد أن سمعنا  
منادى محمد يؤذن في الناس أن من لزم داره فهو آمن ، وأن من لزم دار  
أبي سفيان فهو آمن . وكنت أريد أن أبلغ داري فألزمها حتى أرى لي  
مخرجاً من هذا الحرج ، فلما لقيتك دعوتني إلى دارك فأقبلت معك وإن  
كنت لغائباً عنك أسمع لما كانت نفسي تحدثني به من النجوى » .

قال صفوان : « أما أنا فقد عدتُ إلى داري مغيضاً مُحْنَقاً لا أملك نفسي من الغيظ ، ولكنني عدت إلى نفسي معترفاً بأن أمر محمد قد ظهر على أمرنا ، وبأني قد ظلمت هذه الفتاة كما ظلمت غيرها من الناس » .

قال الحارث : « فما تريد أن تصنع ؟ » . قال صفوان : « ما أدري ! ولكنني لن أذعن لهذا السلطان الحديد إلا أن أكره على ذلك إكراهاً » .

قال الحارث : « أما أنا فمخرج نفسي من هذا اليأس وذاهبٌ إلى محمد فقابل منه دعوته ومعلنٌ إليه إيماني بما يريدنا عليه » .

وهما في ذلك وإذا باب صفوان يُطرق ، وإذا مولاه يدخل مضطرباً فينبئُ سيده بأن رسول محمد بالباب . قال صفوان وقد ظهرت على وجهه ابتسامة حازمة : « فأدخِلْ رسول محمد » ، ثم التفت إلى صاحبه وهو يقول : « هذا أول الشر ! ما تظنه يريد منا ؟ » .

ولكن الرسول أدخل فحيا وتلطف في التحية ، وتلقاه صفوان لقاء حسناً ، ثم يقول الرسول لصفوان : « إن رسول الله ( ص ) يستعد لحرب هوازن ، وقد جمعت له جمعاً عظيماً ، وقد علم أن عندك سلاحاً ودروعاً وكثيراً من أداة الحرب ؛ فهو يسألك أن تُعينه بما عندك » .

قال صفوان في لهجة لم تخلُ من سخيرية : « فهو الغضبُ إذاً ! » .

قال الرسول في لهجة غلبت عايتها الأناة والحلم : « كلا يا صفوان ! ليس الغضب من أخلاق رسول الله ، وهو لم يعلمنا غضباً ولا غدراً ولا تجبراً ، وإنك لتعلم قدرته عليك وعلى غيرك من الطلقاء ، أفرأه قد أمسكم بشر ، أو نالكم بأذى ! ! إنه يستعير منك سلاحك ودروعك وما عندك من

أداة الحرب ، على أن يردها عليك موفورة بعد الظفر إن شاء الله .  
 قال صفوان : « فأبلغ محمداً أن له عندنا ما يرضى ، وأنا سنعيه بما  
 نقدر عليه من أداة للحرب . ومن يدري ! لعلنا نعيه بأنفسنا ، فهو  
 بعدُ ملكٌ قريش . قال الرسول : « بل قل نبي الله » . وأطرق صفوان  
 ونهض الرسول فانصرف راضياً .

قال الحارث : « أباي أنت على ترددك ؟ أما أنا فسلم منذ الآن » .  
 قال صفوان : « ما أدري والله ما أصنع ! إن قلبي ليحب هذا الرجل  
 ويؤمن له ، وإن نفسي مع ذلك لا تستطيع أن تسلو عن عز قريش » .  
 قال الحارث : « فإني أرى أن عز قريش لم يتبدل ، إلا أن يكون  
 ظهور محمد قد زاده قوة وبأساً ، ألم ينبئنا منذ أظهر دعوته بأننا  
 إن نؤمن له ضمن لنا ملك الدنيا ونعيم الآخرة ؟ لقد كذبناه وأعرضنا  
 عنه وسخرنا منه ، فلم يرعه ذلك ، ولم يفئل من عزمه ، وإنما مضى  
 أمامه لا يلوى على شيء ولا يحفل بشيء ولا يشفق من شيء ، حتى  
 إذا لم يجد عند قومه خيراً ولا في وطنه أملاً ، هاجر بدعوته إلى حيث  
 يستطيع أن يجهر بها وأن يذيعها آمناً ويذود عنها بالقوة إن تعرضت  
 للخوف . ولست أخفي عليك أني لم أعجب بشيء قط كما أعجبت بهذه  
 الحجرة يفرّ فيها صاحبها برأيه ليدود عنه ويدعو إليه حرّاً طليقاً لا يخاف  
 شراً ولا يلقى أذى !

« هذا الفرار بالحرية ، أو هذا الفرار في سبيل الحرية ، شيء لم  
 نعرفه من قبل . لقد كنا نفرّ بأموالنا لنحصنها ، وكنا نفرّ بامتعتنا لنؤمنها ،

وكنا نفرّ بدمائنا لنحقنّها ، فإذا هذا الرجل وأصحابه يقرون بدينهم لينشروه ،  
ويتركون لنا أموالهم وأمتعتهم ومنافعهم ، ثم لا يلبثون أن يبذلوا دماءهم  
في سبيل ما يدعون إليه . ألا يروعك هذا .

قال صفوان . « فما بال هذا كله لم يروعك قبل اليوم ؟ » .

قال الحارث : « والله لقد راعني وما زال يروعني ؛ وإنما هي

الكبرياء . وقد آن أن تنجلي عني غمّرتها . » .

قال صفوان : « أما أنا فلم تنجل عني غمرة الكبرياء بعد ! وانظر ؛

إنّ أمرى لعجبٌ حقّاً ! إني لا أستطيع أن أذعن لمحمد ، ولا أومن لما جاء

به ، ولكنني مع ذلك لا أستطيع أن أبتى بمكة آمناً وادعاً وهو يلقى

عدوه من قيس . لأشهدنّ حرّبه هذه كما يشهدها أصحابه ، ولأنظرنّ

في أمرى بعد ذلك . » .

ويتيح الله لنبيه الظفر يوم حنين على جموع قيس بعد أن امتحن

المسلمون في أنفسهم وقد أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئاً ،

وإذا رسل النبي تصل إلى صفوان في خيمته ومعه الحارث بن هشام قد

أسلم وشهد الواقعة مسلماً . فإذا دخل الرسل على صفوان قال قائلهم بعد

أن حيا وتلطف في التحية : « إن رسول الله ( ص ) يردّ عليك سلاحك

ودروعك وأداتك وفورة ، ثم هو يهدى إليك حظّاً من الغنيمة يمنحك

مائة من الإبل ، ولا يكره أن يزيدك إن استزدت . » .

قال صفوان : « وصَلته رَحْمٌ ! فما عرفته إلا رجل خير ، وما أرى

إلا أنّ الله قد منحه القدرة على تطهير القلوب من الحقد والبغض ، ومن

الضعيفة والإثم . هلم سيروا معي إليه ، فقد آن لغمرة الجهالة أن تنجلي ،  
وآن لصفوان بن أمية أن يؤمن بمحمد وما أنزل عليه من الحق » .  
ويمضي صفوان بن أمية إلى النبي فيسلم . ثم يعود فيخلو إلى نفسه  
ويفرغ لأمره ، ولا يكاد يشارك الناس فيما يضطربون فيه من الأمر .  
قال بعض أصحاب صفوان له ذات يوم : « أي أبا وهب ! إنك  
أسلمت ، ولكن الإسلام لا يستقيم لك إلا أن تُهاجر كما هاجر  
الناس » .

قال صفوان : « فلنهاجر كما هاجر الناس » . وخرج من مكة غير  
محب للخروج . فلما بلغ المدينة لم يتم فيها إلا قليلا حتى قال له  
رسول الله ( ص ) : « عزمتُ عليك يا أبا وهب لما رجعتَ إلى أباطح  
مكة » . فرجع إلى أباطح مكة أحب ما يكون في الرجوع إليها ، وأقام  
فيها ما شاء الله أن يقيم . وكان يتحدث إلى الناس فيقول : « لقد  
أعطاني رسول الله ( ص ) يوم حنين ، وإنه لمن أبغض الناس إلى ،  
فما زال يعطيني حتى إنه لمن أحب الناس إلى » .

قال قائل : « قد أحببته إذا لعطائه » ! . قال صفوان : « ويحك !  
لا والله إن كنت لغنيًا ، وإنما أحببته لأن الله علمه كيف يداوى  
القلوب المرضى » .



شوق اجمیب الی اجمیب

بیتاں البیتاں



وقف حارثة بن شراحيل ذات يوم على بعض غلماناه ، وقد انحدرت الشمس إلى مغربها مسرعة كأنما كانت تنهزم أمام هذا الليل الذي أقبل في هدوء وجلال كأنه سيل من الظلمة الخالكة يغمر الصحراء والآكام قليلا قليلا ، فقال في أناة لا تخلو من حدّة : « شبوا ناركم يا هؤلاء ، وأطعموها من جزل الحطب ويابسه ، فإني أراها منذ ليال خامدة هامدة ، لا يكاد يسطع لها لهب ، أو يرتفع لها سنا ، وأنتم ترون ظلمة الليل تغمر الأرض ، وظلمة السحاب تحجب السماء . وما أرى إلا أنا نستقبل ليلة قاسية عاتية على من ركب الطريق . وقد قلّ الطارقون لنا منذ حين . وقد كنت أرجو أن يكون منزلنا هذا أمناً للخائف ، وهُدًى للحائر ، وخصباً للمجدبين » . ثم تحول عنهم ومضى إلى نادى قومه .

فقال بعض الغلمان : « ويلّ للإبل الرائحة ! إنا لنرى في وجه مولانا شراً ، وما نظنها تجوزه موفورة . إن نفسه لتنازعه إلى قرى الضيف ، ولئن لم يطرقه ضيف ليضيفنّ من حضره من أهل الحى » . قال قائل : « فإني أعرف في وجهه الملل والضيق منذ أيام . وما أرى إلا أن غيبة زوجه وابنه قد طالت عليه ، ولولا أنه يصطنع الأناة ويحرص على الوقار لحف إليهما وتعجل عودتهما ، ولكنه يكره أن يقال غابت عنه سُعدى شهراً فلم يستطع عنها صبراً . ومن يدري !

لعله حين أمرنا بأن نشب النار ليسطع لها ويُسبَع سناها إنما فكر في سعدى وزيد ، وقدر أنهما يتجشمان إليه وعورة الطريق وظلمة الليل وريح الشمال هذه التي تلمح الوجوه ببردها الذي لا يطاق . فلنشب له النار ، ولنرفع من لها وسناها ما يفرق الظلمة ، ويهدى الحائر ، ويدعو إلى الأمن والدعة والقرى ، ولنا من هذا كله حظ مقسوم ونصيب موفور ، ولنا من رضا سيدنا غبطة ، ومن راحته بهجة وسرور .

ولم يخطئ غلمان حارثة فيما أداروا بينهم من حديث ؛ فقد كان سيدهم منغص النهار ، مؤرق الليل ، موله الفؤاد ، مفرق النفس حين اتصلت غيبة زوجه عنه ، وكانت قد فارقت منذ شهر أو أكثر أو أقل لتزور قومها في هذا الحى من طي ، حيث يقيمون غير بعيد ، وإنما هي ثلاثة أيام تقطع فيها الإبل أمداً من آماذ الصحراء . فتبلغ منازل طي في ظل الجبلين أجماً وسلمى .

وكانت سعدى قد احتملت معها أصغر أبنائها زيدا ، وكان غلاماً يافعاً ، لم يكد يبلغ الثانية عشرة من عمره ، تريد أن تُزيره أخواله ، وتصل بينه وبين صبية قومها وغلمانهم . وقد شقت هذه الرحلة على زوجها حارثة ، ولو أطاع نفسه وأرسل طبعه على سجيته ، لأجتل هذه الرحلة أشهراً حتى تتاح له المشاركة فيها ، ويأمن فراق أثر الناس عنده وأحبهم إليه . ولكنه لم يستطع ، ولم يُرد أن يُظهر نفسه ضعيفاً رقيقاً ، فحلى بين امرأته وبين ما أرادت ، وتقدم إليها في ألا تُطيل المقام عند قومها ، وأن تعود قبل أن يتقدم الشتاء ويكثر هبوب الشمال .

وقد أخذ يرتقب عودتها منذ أيام ، لا تكاد تمضي ساعة من نهار أو من ليل حتى يمضي معها شطر من صبره وقسط من احتمالها ، وحتى يشتد شوقه إلى زوجته ونزاع نفسه إلى ابنه ، وضيقه بالانتظار بين قومه من كلب . وكثيراً ما كان يخرج من خبائه حين يرتفع الضحى فيمضي أمامه حتى يُبعد ، ثم يرقى فيقوم فيها مقام الربينة ، إلا أنه لم يكن يرقب العدو أو يتجسس المغير ، وإنما كان يرسل نظره في الصحراء يرجو أن ترفع له العير التي تحمل إليه سعدى وابنها زيداً . وكان إذا طال وقوفه على ربوته تلك ، وتقليبه نظره في وجوه الصحراء ، ظن بنفسه الظنون ، وأشفق أن يظن قومه به الظنون ، فعاد أدراجه كاظماً ما يجد من شوق ، كاتماً ما يحس من وجد ، شاغلاً نفسه أو متكلفاً شغلها بما يمكن أن يُشغل به الأغنياء الموسرون من أهل البادية الوادعين الآمنين .

وكان كلما تقدم النهار يقدر أن العير ستقبل عليه مع الليل ، فإذا أقبل الليل أشفق منه على هذه العير التي لم يكن يشك في أنها قد ركبت الطريق . وقد كتم على نفسه أحاديثها تلك ما استطاع ، واكنه في تلك الليلة أحس الخوف يساوره والإشفاق ينازعه نزاعاً شديداً ، واحتفظ مع ذلك بشيء من أناة وفضل من وقار ، فتقدم إلى غلامانه في أن يشبوا نارهم ويذكوها ، وقدر في نفسه أنه سيستعين على لياه الطويل بإطعام الحى وإذاعة الكرم والجود فيه . حتى إذا كان الغد تقدم إلى ابنه الشابين في أن يذهبا في الطريق إلى منازل طيبي ، فإن

أدركا العير عادا معها ، وإن لم يدركاها مضيا حتى يردا هذه الغائبة التي أسرفت في الغيبة وقصرت في ذات الزوج والأبناء والبنات .

وما كاد الرعيان يروحون بالإبل مع العتمة حتى نهض حارثة كأنه الجنى ، وأوماً إلى ابنه الشابين فتبعاه ، ومضوا حتى تخيروا من هذه الإبل ناقة كوماً وجزوراً سميناً ، فعقروا ونحروا وأذنوا في الحى أن هلم إلى الطعام واللهم . وقضى الحى ليلة خصب ولهو ودعة ، شبع فيها الجائع وطعم فيها البائس ، ولها فيها المترف الميسور . ولكن الليل لم يكد ينقض حتى تُسمع دعاء الطارق من بعيد ، ويُسرع حارثة وابناه إلى الاستجابة لهذا الدعاء . وما هي إلا ساعة حتى يُقبل الضيف ، وإذا هم جماعة من شباب البدو وشياطين الصحراء ، قد شق عليهم الليل ، واشتد عليهم البرد وعصفت بهم الرياح ، فاضطروا إلى الهدوء والراحة ، وقد كانوا يودون لو استطاعوا أن يمضوا في طريقهم حتى يبلغوا غايتهم من الغد أثناء النهار أو حين يشرف الليل . ويتلقاهم حارثة وابناه لقاء حسناً ويبلغونهم من الأمن والقرى السريع ما يشتهون . حتى إذا أشرقت الشمس من غد وهمت الإبل أن تمضى لمراعبيها نهض حارثة وابناه فاستبقوا منها ما عقروا ونحروا ، ثم أذنوا في الحى أن هلم إلى الطعام والقرى ، وإذا هم يُنفقون نهراً خصباً كما أنفقوا ليلة خصبة . وقد وجد حارثة في كرمه وجوده عزاء عن شوقه وسلوة عن وجده ، ورجوعاً إلى ما كان ينبغي لمثله من الصبر والجلد والوقار . وارتحل عنه ضيفه موفورين راضين ، واستأنف هو حياة هادئة بعض الهدوء راضية بعض الرضا .

ولكنها أيام تمضى وتتبعها أيام ، ولا يبلغه من أخبار الغائبة شيء ، حتى يشق الأمر عليه ويبلغ الجهد به ، وحتى يهيم بالرحلة إلى منازل طيبي لا يكتم ذلك ولا يخفيه . وإنه ليستعد لهذه الرحلة وإذا نبأ يبلغه فيملاً قلبه جزعاً وبأساً . فقد أغار نفر من صعاليك العرب وشياطين الصحراء على أطراف طيبي فاستاقوا إبلا واختطفوا صبيه ، ومضوا قبل أن يبلغ الصريخ معظم الحى ، فانطلقوا إلى حيث لم تبلغهم الخيل ، على أنها وُجِّهت في طلبهم كل وجه من وجوه الصحراء جميعاً .

وصور أنت لنفسك جزع ذلك الأب البائس ، وبأس تلك الأم النازح ، وما ألم بهذين الحيين في طيبي وكلب من هذا الحزن المغيظ الذى لا شفاء له ولا سبيل إلى إطفاء ناره بثأر أو انتقام . وعند من يكون الثأر ومن يكون الانتقام وقد أغار المغيرون فانهبوا واختطفوا ولم يدعوا الحى من أحياء العرب ولم ينتسبوا لقبيلة من قبائل قحطان أو عدنان؟! ومتى ادعى الصعاليك والخلعاء لحي أو قبيلة!! ومتى نهضت الأحياء والقبائل بجرائر الخلعاء والصعاليك!!

ولكن أعواماً تمضى وحارثة يلقى من اللوعة والحسرة ما يلقى ، وسعدى تجاهد من اليأس والقنوط ما تجاهد . ويُقبل نفر من كلب يزورون مكة في الموسم ، فيلقون عند المسجد شاباً قصيراً آدم أفضس الأنف يتوسمون فيه ملامح كلب ، ثم يسمعون له ويتحدثون إليه ، فما يشكون في أنه كلبى وفي أنه من رهطهم الأذنين . عرفوا لغته ، ثم نسبه فعرفوا نسبه ، ثم سأله عن قصته فأنبأهم بأن نفرأ من الصعاليك

اختطفوه مع جماعة من أتراه بنين وبنات ، ثم تفرقوا بهم ، وأقبل به  
خاطفه إلى سوق عكاظ فباعه من حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي ،  
وأداه حكيم هذا إلى عمته خديجة بنت خويلد الأسدية ، وأحسننت هذه  
العناية به والرعاية له ، حتى إذا تزوجت من الأمين محمد بن عبد الله  
ابن عبد المطلب وهبته له ، فهو قائم على خدمته منذ أعوام .

وَيَهْمُ هَوْلَاءُ النَّفَرِ مِنْ كَلْبٍ أَنْ يَسْعُوا فِي فِدَائِهِ عِنْدَ الْأَمِينِ ، وَأَنْ  
يَعُودُوا بِهِ عَلَى أُمِّهِ الْبَائِسَةِ وَأَبِيهِ الْمَلْتَاعِ . وَكُنَ الْفَتَى يَرُدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ  
أَجْمَلَ الرَّدِّ وَأَرْفَقَهُ ، وَيَلْحَقُ عَلَيْهِمْ فِي أَلَا يَفْعَلُوا ، وَيَحْمِلُهُمْ إِلَى أَبِيهِ  
وَعَشِيرَتِهِ تَحِيَّةً فِيهَا الْحُبُّ وَالْبِرُّ ، وَلَكِنْ فِيهَا الرِّضَا بِهَذِهِ الْحَالِ الَّتِي صَارَ  
إِلَيْهَا ، وَالْحَرَصُ عَلَى هَذَا الْمَنْزِلِ الَّذِي اسْتَقَرَّ فِيهِ . وَمَنْ غَرِيبٌ مَا قَصَّ  
الْفَتَى عَلَى هَذَا النَّفَرِ مِنْ كَلْبٍ أَنَّهُ لَا يَشْكُ فِي أَنْ الَّذِينَ اخْتَطَفُوهُ قَدْ  
كَانُوا حَدِيثِي عَهْدٍ بِأَبِيهِ . طَرَقُوهُ ذَاتَ لَيْلٍ فَتَلَقَّاهُمْ لِقَاءً حَسَنًا ، وَتَقَدَّمَ  
فِي قَرَاهِمِهِمْ وَتَزَوَّيْدِهِمْ بِخَيْرٍ مَا أَحْبَبُوا . سَمِعَهُمُ الْفَتَى يَتَحَدَّثُونَ بِذَلِكَ ،  
وَيُثْنُونَ بِهِ عَلَى حَارِثَةَ بْنِ شَرَاخِيلَ ، وَظَنَّ أَنَّهُ إِنْ انْتَسَبَ لَهُمْ وَعَرَفُوا  
مَكَانَهُ مِنْ حَارِثَةَ رَدَّوهُ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا فَعَلَ لَمْ يَلْقَ مِنْهُمْ إِلَّا ظُلْمًا وَهَضْمًا  
وإنكاراً ، كَذَبُوهُ وَأَذَوْهُ وَظَنُوا بِهِ الْخُدَيْعَةَ وَالْكَيْدَ .

ويعود هذا النفر من كلب إلى حيث ينزل قومهم في طرف من  
أطراف الشام ، فيردون الأمن والهدوء والغبطة والأمل إلى الأبوين  
البائسين اليائسين . فإذا كان الموسم من قابل أقبل حارثة وأخوه كعب  
حاجيين وزارا مكة ، واتمسا الأمين فدلا عليه ، فيقولان : « يا ابن

عبدالله ! يابن عبد المطلب يابن هاشم يابن سيد قومه ! أنتم أهل الحرم وجيرانه وعند بيته ، تفكّون العاني وتطعمون الأسير ، جئنناك في ابنا عندك ، فامتنّ علينا وأحسن إلينا في فدائه ، فإننا سنرفع لك في الفداء . قال : ما هو ؟ قالوا : زيد بن حارثة . فقال رسول الله (ص) : فهل لغير ذلك ؟ قالوا : ما هو ؟ قال : ادعوه فخيروه ، فإن اختار كما فهو لكما بغير فداء ، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار علي من اختارني أحداً . قالوا : قد زدتنا على النصف<sup>(١)</sup> وأحسنْتَ . قال : فدعاه فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم . قال : من هما ؟ قال : هذا أبي وهذا عمي . قال : فأنا من قد علمت ورأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما . فقال زيد : ما أنا بالذي أختار عليك أحداً ، أنت مني بمكان الأب والأم . فقالوا : ويحك يا زيد ! أختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ قال : نعم ! إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً . فلما رأى رسول الله (ص) ذلك أخرجوه إلى الحجر فقال : « يا من حضر اشهدوا أن زيدا ابني أرتّه ويرثني » . فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا ، فدُعِيَ زيد بن محمد ، حتى جاء الله بالإسلام<sup>(٢)</sup> .

وقع حب هذا الفتى في قلب الأمين ، وملاً حب الأمين قلب الفتى ، وإذا الأمين يعلم ذلك من نفسه ومن غلامه ، فيأبى الفداء ،

( ١ ) النصف ( بالتحريك ) والنصف ( بالكسر ) : الانتصاف وإعطاء الحق .

( ٢ ) طبقات ابن سعد طبع ليدن ، جزء ٣ صفحة ٢٨ .

ويخالف عما ألف الناس . وإذا الفتى يخرج من هذه المحنة منتصراً على نفسه وعلى أوامر القربى ، وعلى ما ألف الناس من إثارة الحرية على الرق ، ومن إثارة الوطن على الغربية ، ومن إثارة الأهل على الأجانب في الدار والنسب . ولكن الله قد أعد لزيد ألواناً أخرى من المحن ، وقرنها بألوان أخرى من الخير والكرامة . فهذا الأمين قد اتخذ له ابناً ، وزوجه ابنة عمته زينب بنت جحش ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب . وقد اختص الله أمين قريش بنبوته واثمنه على وحيه ورسالته ، وإذا ابنه زيد أسرع الرجال استجابة له وانحيازاً إليه . وقد أخلص زيد في صحبة مولاه وأبيه ونبيه ما أقاما في مكة ، يحتملان من ألوان الأذى وصنوف المكروه ما يحتمله المسلمون ، ويصبران من الفتنة على ما صبر عليه الذين منحهم الله قلوباً جلدة ونفوساً حرة وإيماناً عميقاً . حتى إذا أذن الله لنبيه وللمؤمنين في الهجرة ، هاجر زيد مع المهاجرين ، فأخى رسول الله بينه وبين عمه حمزة بن عبد المطلب .

يجعله بهذا كله فرداً من أفراد الأسرة وواحداً من أهل البيت ، ويتحدث إليه بأنه مولاه وبأنه منه ومن قومه . ويشهد زيد معه بدرأ ، ويشهد زيد معه أحداً ، ويغزو النبي فيخلف زيدا على أمر المدينة من ورائه ، ويقوم النبي فيخرج زيدا أميراً على سراياه وغزواته ، حتى تقول عائشة رحمها الله : « ما بعث رسول الله (ص) زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمره عليهم ، ولو بقي بعده استخلفه <sup>(١)</sup> » .

( ١ ) طبقات ابن سعد طبع ليدن ، جزء ٤ صفحة ٢١ .



واكن لله في عباده أمراً هو بالغه ، وإرادة هو ممضيها ، وحكمة هو حاملهم عليها . لقد كان المسلمون لا يدعون هذا الرجل إلا زيد بن محمد ، ولا ينظرون إليه إلا على أنه ابن نبيهم ، ومن أقرب الناس إليه وألصقهم به وأكثرهم عنده ، وكان النبي نفسه يقول ذلك ويجهر به . واكن الله يريد أن يبلغى نظام التبنى هذا ، وأن يرد الناس إلى أنسابهم وأن يدعوا الأبناء لأبائهم ، وإذا هو يمتحن في ذلك نبيه ، ويمتحن في ذلك زيدا ، ويمتحن في ذلك المؤمنين الصادقين جميعاً . يلتقى في قلب النبي حب زينب زوج زيد ، ويلقى في قلب زيد الانصراف عن زينب والنفور منها .

وهذه نفس محمد مضطربة أشد الاضطراب ، ممتنعة أشد الامتناع ، واجمة أشد الوجوم ، ترفض هذا الحب رفضاً وتزور عنه ازوراراً ، وإذا هي تنكره حتى على نفسها . واكن الله يبدى ما تخفى ، ويعرف الناس ما تنكره ، وإذا زيد يريد أن يطلق امرأته والنبي ينهأه ويزجره ويحذره . ولكن الله بالغ أمره وممض إرادته ومتم حكمته ، وإذا زيد يطلق امرأته ، وإذا النبي يتزوج زينب ، ويقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض في ذلك ما يقولون . واكن الحب الخالص بين زيد ومحمد يخرج من هذه المحنة العنيفة ظافراً منتصراً كأنني وأصني ما يكون ، وإذا الله ينزل في هذه المحنة قرآناً ويسمى فيه زيدا فيقول : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى

الناسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَسْخِشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كُهَا لَكُمُ لَا يَكُونُ عَلَيَّ الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا . ثُمَّ يَقُولُ : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » .

وقد تلقى المؤمنون الصادقون هذه الخنة كما كانوا يتلقون أمر الله كله راضين به مخلصين في الرضا ، قد اطمأنت إليه قلوبهم ، وصفت له نفوسهم ، وصحّت على إفضائه عزائمهم . وثقوا بأنّ الله قد اختار لهم فاختاروا لأنفسهم ما اختار لهم الله . وقد مضى زيد مع نبيه وصاحبه كما كان يمضى مع أبيه ، وفيّاً أميناً مخلصاً ، مجاهداً في سبيل الحق مضحياً في ذات الله . وإذا رسول الله يزوجه حاضنته أم أيمن الحبشية ، ويعده الخنة ، فتنجب له أسامة بن زيد .

ثم تُقبل الخنة الأخيرة . فهذا النبي يجهز لغزوة مؤتة . فإذا أتم جهازه اختار الأمراء ؛ فقدم زيدا وقال : « فإن أصيب فجعفر ابن أبي طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رَوَاحَةَ » . قال المحدثون : فوثب جعفر بن أبي طالب فقال : « يا رسول الله ، ما كنتُ أرغب أن تستعمل عليّ زيدا » .

فقال رسول الله : « امضه فإنك لا تدري أى ذلك خير » (١) .  
ومضى المسلمون إلى مؤتة يقودهم زيد . حتى إذا كانت الموقعة ،

( ١ ) طبقات ابن سعد طبع ليدن ، جزء ٣ ، صفحة ٣٤ .

قاتل المسلمون على صفوفهم وقاتل الأمراء مترجلين ، فقتل زيد رحمه الله طعنًا بالرماح . وقال النبي حين بلغه ذلك : « إنه دخل الجنة يسعى » . وصعد النبي المنبر فأنبأ المسلمين بمصرع الأمراء الثلاثة ، وقال : « اللهم اغفر لزيد ، اللهم اغفر لزيد ، اللهم اغفر لزيد ، اللهم اغفر لزيد ، اللهم اغفر لزيد ثلاث مرات ، ويجمع بين ابن عمه جعفر وعبد الله بن رواحة في استغفار واحد .

تحدث ابن سعد عن الواقدي في إسناده ، قال : لما أصيب زيد ابن حارثة ، أتاهم النبي ( ص ) قال فَجَهَشْتُ بنت زيد في وجه رسول الله ( ص ) فبكى رسول الله ( ص ) حتى انتحب . فقال له سعد بن عبادة : يا رسول الله ما هذا ؟ قال : « هذا شوق الحبيب إلى حبيبه » .



القلب الرحيم

مجلس

لم يبسم الأمير لحنظلة بن عمير الخزاعي حين أدخل عليه ، ولم يبسط له ذلك الوجه الذي تعود زواره أن يروه مشرقاً سمحاً ، بل لم ينظر إليه ، ولم يرفع رأسه عن ذلك الكتاب الذي كان ينظر فيه ، وإنما تلى من الشيخ تحيته وردّها عليه بمثلها ، وكأنه نسي مكانه منه فلم يأذن له بالجلوس . وظل الشيخ قائماً حائراً ، مطرقاً حيناً ثم ناظراً عن يمين وشمال حيناً آخر ، والناس من حول الأمير ومن حوله ساهمون واجمون ، ينكرون في أنفسهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا شيئاً تهيّباً للأمير .

وكانت للشيخ في نفوس الناس بالفسطاط مكانة حسنة ومنزلة رفيعة . عرفوا ورّعه ، وكرم نفسه ، وتنزهه عن الصغائر ، وحسن بلائه في المشاهد ، وحسن رعايته لحرّمات الدين ، وأكبروا منزلته من قومه ، ونباهة شأنه فيهم ، وحسن صنيعه إليهم . وكثير منهم كانوا يكبرون عظم ثروته ، وسعة ذات يده . وكلّهم كان يرى على كل حال أن الأمير لم يلقه بما تعود أن يلقاه به من البشر والإيناس . وكلّهم كان يودّ لو استطاع أن ينبّه الأمير إلى مكان الشيخ ، ولكنه كان يشفق أن يجاوز حقه ويعدو حده ويدخل على الأمير بما لا يجب . وقد طال إطراق الأمير وصمته ، وطال وقوف الشيخ وحيرته . ثم تحوّل الشيخ عن موقفه فجأة ، وسلم على الأمير سلام المنصرف .

فرفع الأمير إليه وجهاً عابساً وهو يقول : « إلى أين يا حنظلة ؟ » .  
قال الشيخ : « إلى حيث يلقاني الناس بغير ما لقيتني به أيها الأمير » .  
قال الأمير : « لا بأس عليك ، اجلس فإن لي معك شأناً » . قال  
الشيخ : « لقد علمت أن لك معي شأناً ، ولكني علمت أيضاً أن مثلي  
لا يُلقى بمثل ما لقيتني به . فإن كنت قد دعوتني لخصومة أو ملامة ،  
فقد كنت حريصاً أن تُقدم بين يدي خصومتك أو ملامتك خيراً  
مما قدمت ، أو تكلف قاضيك أن يدعوني كما يُدعى المتهم المليم » .  
قال الأمير : « اجلس فليس عليك من بأس ! إني لم أدعك  
لخصومة ولا لملامة ، وإنما دعوتك لبعض الأمر . ولعل ما نجم بينك  
وبيني لا يعدو العتب عليك والنصح لك » . قال الشيخ : « وما ذاك ؟ » .  
قال الأمير : « فخذ مكانك ! فإننا سنتحدث عما قليل » .

وسعى الشيخ هادئاً مطمئناً حتى جلس وهو لا يكاد يُحس ما يظهر  
على وجهه وفي عينيه من آيات الغيظ . وأحسن جاساء الأمير أن الأمير  
يريد الخلو إلى حنظلة فجعلوا ينصرفون متتابعين ، حتى لم يبق في  
مجلس الأمير أحدٌ إلا هذا الشيخ . هنالك نظر الأمير إلى حنظلة نظرة  
طويبة فيها حب ورفق ، وفيها حزم وعزم أيضاً ، ثم قال وهو يبتسم  
متكلفاً : « إن لبيت مال المسلمين عندك لثأراً ما أظنه يستطيع أن  
يُدركه منك مهما تَضَخَّم ثروتك ومهما تُغَلَّ هذه الأرض التي  
تملكها ، ومهما يكسب لك هذا العدد العظيم من الرقيق الذين تصرفهم  
في هذه الصناعات المختلفة المربحة » .



قال حنظلة : « أين عما تريد أيها الأمير ؛ فإنى لا أفهم عنك منذ اليوم » . قال الأمير : « فإنك قد رزأت بيت المال رزءاً ما أظن ثروتك تستطيع أن تنهض به » . قال حنظلة : « فإنك لم تؤلنى عملاً من أعمالك ، ولم تأتمنى على ما تحتوى خزائنك من مال ، وما أعرف أن بينى وبين السلطان سبباً من أسباب التجارة أو الالتزام ، فكيف رزأت بيت المال وبم رزأته ؟ » .

قال الأمير : « ما هذا الحديث الذى بلغنى عنك ؟ ألم ترتفع إلى الأنبياء بأنك قد زرّت قرية عامرة من قرى الريف تريد أن تتعهد فيها بعض أرضك ، فلم تنصرف عنها حتى أسلم أهلها جميعاً ، ولم يبق منهم مُعاهد يؤدي إلى بيت المال درهماً أو ديناراً ! أفنتظن أنك لم ترزاً بذلك بيت مال المسلمين ! ! فإذا مضيت على سيرتك هذه ، وإذا تأثرك جماعة أمثالك ، فجعلوا كلما زاروا قرية من قرى الريف حملوا أهلها على الإسلام وصرفوا عن بيت المال مورداً من موارده ، فإلام نحن صائرون ؟ ومن أين ننفق على هذه المرافق ؟ ! ومن أين نرزق أهل الديوان ، ونوفر على الجند أعطيّاتهم ؟ وكيف نحمل إلى دمشق ما تريد أن يُحمل إليها من المال ؟ » . فلم يستطع الشيخ أن يملك نفسه ولا أن يحتفظ بما ينبغى من الوقار لنفسه أولاً وللمجلس الأمير بعد ذلك ، ولكنه اندفع فى ضحك حرّ مطلق لا تحنظ فيه ولا اتزان . وجعل الأمير ينظر إليه دهشاً لا يدري أيغضب أم يرضى . فلما سكت الضحك عن الشيخ قال فى صوت مضطرب بعض الشيء : « أصلحك الله

أيها الأمير وغفر لك ! ما كنت أظن أن الله قد بعثنا جباة للمال نملاً  
به خزائنك ونحمله إلى دمشق ، وإنما علمت أن الله قد بعثنا دعاة  
إليه ، وهداة إلى الحق ، ومبشرين برحمة الله ، ومخوفين من نعمته ،  
ما يعيننا بعد ذلك أن تمتلئ خزائنكم بالمال أو تصفر منه .

قال الأمير وهو يبتسم ويكظم غيظاً يريد أن ينفجر : « حسبك  
يا حنظلة ! هذا كلام كان يقال منذ أذاعه عمر بن عبد العزيز رحمه  
الله في الناس وكتبه إلى الولاة والعمال ، وقد قبلته أنت ونفرت من أمثالك ،  
ومضيت في إنفاذه جادين . ولكن عمر رحمه الله قضى ولم يطل به العهد ،  
وعادت أمور الناس إلى من تعلم من الخلفاء والأمراء ، وعادت سياسة  
الناس سيرتها الأولى . فلا بد من أن ننفق على المرافق ، ولا بد  
من أن نرزق الجند ، ولا بد من أن نحمل إلى بني مروان في كل عام  
ما ينهض بأعبائهم ، وإنها لأعباء ثقالة ! » .

قال حنظلة : « فإن أمر هذا كله لا يعنيني ، وإنما يعني أمير  
المؤمنين وولاته وعماله والمديرين لأمواله ، فأما أنا فرجل من المسلمين  
أتيح له أن يدعو الناس إلى الحق ، فاستجابوا له وهداهم الله به إلى  
دينه ؛ فلا على أن يُصرف عن بيت المال موارد . وإن كان لك أيها  
الأمير أو لأمير المؤمنين أرب فيما أملك من ثروة فما أستطيع أن أدفعكما  
عنه ، وما أريد أن أفعل ، فخذنا منه ما تشاءان ، ونخذه كله إن  
أحببنا ؛ فإن المال يغدو ويروح . وما أكره أن أشتري هدى هؤلاء  
الناس بمال منهما يكشُر ، وما أكره أن أعين بيت المال على بعض

أعبائه بثروة مهما تضخم ، فلانى أرى ذلك صدقة ، وأعلم أن الله لا يضيع أجر المتصدقين .

قال الأمير وقد عاد إليه هدوؤه واطمأن في مجلسه وأشرقت في وجهه ابتسامة حلوة عرفها حنظلة ، فنظر إلى الأمير نظرة الصديق قد لقي صديقه بعد طول الغيبة - قال الأمير : « ليس عليك ولا على مالك بأس ! ولكنى أريد أن تقتصد في هذا الجهد وترفق في هذه الدعوة » .  
قال حنظلة : « فلانى لم أبذل جهداً ولم أشتد في دعوة . ولو ددت لو أستطيع أن أبذل في ذلك الجهد وأن أبلغ من هداية الناس إلى الحق ما أريد ! فما أعرف أن شيئاً يؤذى نفسى كما يؤذيها منظر هؤلاء المعاهدين وهم يؤدون الجزية عن يد وهم صاغرون . وإنى لأرى في دعوتهم إلى الإسلام وهدايتهم إليه إنقاذاً لنفوسهم وإنقاذاً لمروءتهم وإمتاعاً لهم بهذه الحرية التى نتمتع بها وهم مُبعدون عنها مصروفون عما تكفل لأصحابها من الشرف والكرامة وكمال الرجوة . ألم تضع نفسك قط أيها الأمير موضع واحد من هؤلاء الناس الذين يشترون أمنهم على أنفسهم ودينهم بالمال يؤدونه إلينا صاغرين ؟ » .

قال الأمير : « وفيم تريد أن أضع نفسى موضع هؤلاء الناس ، وقد من الله علينا بالعروبة والإسلام فجنبنا هذا الصغار ؟ »  
قال حنظلة : « فإن الله قد أمرنا أن نسوى بين الناس وبين أنفسنا ، وأن ندعوهم إلى الإسلام لنرفع عنهم هذا الإصر ، ولنردهم إلى مشاركتنا في هذه النعمة التى أنعم الله بها علينا » .

قال الأمير : « ألم تُنبئني أنك لم تبذل فيما صنعت جهداً ، ولم  
تحتمل فيه مشقة ولا عنفاً ؟ » .

قال حنظلة : « بلى ! ولو قد علمت كيف كان اهتداء هؤلاء  
الناس إلى الحق واستجابتهم لدعوة الله لراعك من ذلك ما راعني ،  
ولأعجبك من ذلك ما أعجبني ؛ فإني لا أقضي العجب من هذه القصة  
التي أجرى الله بها الخير على يدي . وما رأيت أعجب من أمر محمد  
صلى الله عليه وسلم فيما رأيت وما علمت من أمور الأنبياء . رجل كان  
يطلبه خصومه وأعداؤه بالمعجزات ، فيبرأ منها ويعلن إليهم أنه بشر  
مثلهم ، وأنه لم يُرسل ليبه العقول بالأحداث العظام ، وإنما أرسل  
ليتلو على الناس قرآناً يتحدث إلى عقولهم فيملؤها هدى ، ويتحدث  
إلى قلوبهم فيشعرها رحمة وبراً ، ثم لا يخلو أمره من هذه في  
المعجزات التي تبهر العقول وتسحر الألباب ، دون أن تحدث في  
طبيعة الأشياء حدثاً أو تتجاوز بعادات الناس الجارية طريقها المألوف !  
إنما هي معجزات ممتازات يراها الناس مألوفة يسيرة ، ويراهم المفكرون  
نادرة باهرة ومتمنعة منقحة للمكابرين . لقد كان محمد رجلاً لا كالرجال .  
ولقد كان بشراً ، ولكنه امتاز بين الناس بخصال أحسنها وأحققها في  
قلبي وفي عقلي ، ولكني لا أجد إلى تصويرها سبيلاً » .

قال الأمير : « فأفصح عما تريد واقصص على قصتك ؛ فإنك  
قد أثرت في نفسي عجباً من العجب » .

قال الشيخ : « فإن قصتي يسيرة كبيرة ككل ما يتصل بهذا الرجل الكريم الرحيم . إنك لتعلم أني ذهبت إلى تلك القرية أتعهد بعض أعمالى ، فما أبلغها وما أستقر فيها حتى أعرف أن عظيماً من عظمائها النصرارى قد رُزئ في صبيّ له ، فأرى من الخير والبر أن أسعى إليه مواسياً ومعزياً فأفعل . ويلقاني الرجل حفيماً بى وقد ملك الجزع كل أمره وأخرجه عن طوره ، ولقد كنت أعرفه جلدأ صبوراً وقوراً ، ولكن هذا الصبيّ قد كان وحيداً ، وقد كان قرّة عين له حين تولى عنه الشباب وأدرسته الشيخوخة . فلما نزل به الخطب لم يثبت له ولم يستطع عليه صبراً ، وقد عجز من كان يحيط به من القسيسين والرهبان عن تعزيتة وتسليته . وبأخذنى الرفق به والإشفاق عليه ، فأتحدث إليه في لغته القبطية مواسياً مسلياً ، وأقول له فيما أقول : « لو عرفت أن أحاديث نبينا تعزيك أو تسليك لقصصت عليك منها طرفاً . فقد رُزئ نبينا في صبيّ وحيد له ، كما رُزئت في صبيك هذا الوحيد . فتلقى الرزء كريماً يملأ قلوبنا نحن المسلمين إكباراً له وإعجاباً به ورحمة للصبية من أبنائنا ، في احتفاظ بالرجولة ، وثبات على المروءة ، واصطناع للوقار ، واعتراف بحق الله فيما يمين به علينا من المال والولد ، وإنما يأخذه كما أعطاه دون أن يكون لنا أن نضيق بذلك أو نشور عليه ، هى نعمة أهديت إلينا ثم أخذت منا ، وقد ابتلينا بإهدائها إلينا كما ابتلينا بأخذها منا ، ونحن بعد ذلك مثابون إن ثبتنا للمحنة وصبرنا على الابتلاء .

قال الرجل : « فحدثني بحديثك ؛ فإن ما تقوله يبعث في نفسي شيئاً من راحة وأمن ودعة » . قلت : « فإن نبينا قد رُزق في آخر أيامه صبياً ابتهج لمولده ابتهاجاً عظيماً وسُر به سروراً لا يقدر . ولكن نبينا كان يُحسن لقاء النعمة كما كان يُحسن لقاء المحنة ، كان لا يُخرجه الابتهاج عن طوره ، وكان البطرُ والأشرُ أبعد الأشياء عنه . وكان إذا رضى لم يستأثر بلذة الرضا ، وإنما يُشرك فيها الناس . فلم يكذب يُرزقُ هذا الصبي حتى أعلن ذلك إلى الناس مغتبطاً ، ثم تصدق على الفقراء ، ووسع على من ضيقت عليهم الحياة . وكان رفيقاً بابنه هذا ، يسعى إليه عند مُرضعه إذا قال الناس ، فيأخذه فيقبله ويقول له ما شاء الله أن يقول من هذه الألفاظ الحلوة التي تصور أجمل تصوير حنان الآباء ورحمتهم لأبنائهم . وقد كانت نعمة الله على نبينا لا تُحصى ، وكان منها امتحان الله له في أحب الأشياء إليه وآثر الناس عنده فما يبلغ ابنه ستة عشر أو ثمانية عشر شهراً حتى تسعى إليه العلة . ويمضي النبي مع صفي من أصفياه يقال له عبد الرحمن بن عوف ليعوده فيبلغه وهو يجود بنفسه ، وينظر الأب إلى صبيه الوحيد الذي جاءه حين تولى عنه الشباب ، وحين أقبلت عليه الشيوخية ، وحين استيأس من الولد ، ينظر الأب إلى ابنه هذا أسيفاً محزوناً ، ولكنه ينظر إليه مع ذلك راضياً مطمئناً مدعناً لقضاء الله . وهذه عينه تدمع ، وهذا صفيه ينكر منه ذلك ويقول له : « أتبكي وقد نهيت الناس عن البكاء ؟ » . فيجيبه : « إنما هذا رُحِمٌ ، وإن من لا يرُحِمُ لا يرُحِمُ ،

إنما نهى الناس عن النياحة وأن يُندب الرجل بما ليس فيه . ثم قال :  
« لولا أنه وعدُّ جامع ، وسبيلٌ مثناء ، وأن آخرا لاحتقُّ بأولنا ،  
لو وجدنا عليه وجداً غير هذا ! وإنا عليه لمحزونون ! تدمع العين ويحزن  
القلب ، ولا نقول ما يُسخط الرب ، وفضلُ رَضاعه في الجنة <sup>(١)</sup> .  
وهنا تنحدر من عيني الرجل دموع غزار ، وتأخذه عبرة شديدة  
يهتز لها جسمه كله اهتزازاً عنيفاً . فإذا انجلت عنه قال : « أعدُّ  
على حديثك هذا ؛ فإنني أجد له عذوبة ما وجدتها لحديث قط » .  
فأعيد عليه الحديث ، فيسمعه مصغياً إليه أشد الإصغاء ولا تنهمر  
عبرته ولا تأخذه الرعدة هذه المرة ، وإنما يقول في صوت هادئ :  
« امض في حديثك » . فأقول : « لقد بلغت آخره أو كدت أبلغه .  
فهذا الأب يحمل ابنه إلى القبر ، ويجلس لينظر والناس يوارونه في  
التراب . ويرى فرجة قد تُركت في اللحد ، فيأخذ حجراً ويناوله  
مَنْ قام على تسوية القبر ويقول : « إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها  
تُقر عين الحي » <sup>(٢)</sup> .

وهنا يعود الرجل إلى استعباره ، ولكنه في هذه المرة لا يبكي وحده  
وإنما يبكي معه مَنْ حوله من الناس . ويقول راهب من رهبانهم :  
« ما هذا بكلام رجل كالرجال » . ثم يسأل الشيخ أن أمضى في حديثي ،  
فأقول : « لقد انتهيت منه أو كدت أنتهي . فقد عاد نبينا إلى بيته

( ١ ) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٨٦ .

( ٢ ) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٩١ .

محزوناً جلدأ ، وانكسفت الشمس في ذلك اليوم ، فيتحدث الناس بالمعجزة ، ويقول بعضهم لبعض : « إنما انكسفت الشمس حزناً لموت إبراهيم ابن النبي » . وينتهي حديث الناس إلى نبينا ، فيخرج ساعياً حتى يأتي المنبر ، فيرقاه ويحمد الله ويثنى عليه فيقول : « أما بعد أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى المساجد »<sup>(١)</sup> . وأقف بحديثي عند هذه الغاية وأنظر ، فإذا من حولي في صمت عميق تنحدر على وجوههم دموع هادئة لا تمثل حزناً ولا جزعاً ، وإنما تصور قلوباً لينة رحيمة ، ونفوساً قد كشف عنها الغطاء ، وإذا الشيخ ينهض من مجلسه رزيناً ويسعى إلى هادئاً وهو يقول : « ابسط يدك ، فما أرى إلا أن نبيك قد جاء بالهدى » . وما أكاد أتلقى منه إسلامه حتى يكون الرهبان والقسيسون الذين حضروا المجلس أسرع الناس إلى ، كلهم يعلن إسلامه ، ويتبعهم من حضرنا من عامة الناس . وما أبرح القرية من الغد حتى يكون أهلها جميعاً قد ساروا سيرة عظيمهم وقسيسهم ومن وفد عليهم من القرى المجاورة ، وحتى يكون بيت مالك أيها الأمير قد رزئ فيما رزئ فيه من الجزية .

قال الأمير بعد صمت طويل : « فهل تعلم أن لهذا الحديث وجهاً آخر من الإعجاز ؟ » . قال حنظلة : « وما ذلك ؟ » . قال الأمير : « قد سمعت من كان يتحدث في الشام عن موت إبراهيم ابن رسول الله

(١) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٩١ .



ويقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو عاش إبراهيم لوضعت  
الجزية عن كل قبطي (١) " .

« فإنك يا حنظلة قد أحييت ذكرى إبراهيم في هذه القرية فوضعت  
الجزية عن أهلها » .

(١) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٩٣ .

## فهرس

صفحة

٥	.	.	.	.	.	.	صريع الحسد
١٠٩	.	.	.	.	.	.	سيد الشهداء .
١٢٣	.	.	.	.	.	.	ذو الجناحين
١٣٧	.	.	.	.	.	.	حديث عداس
١٤٩	.	.	.	.	.	.	مصعب بن عمير
١٦١	.	.	.	.	.	.	طريد اليأس .
١٧٥	.	.	.	.	.	.	نزيل حمص .
١٨٩	.	.	.	.	.	.	الوفاء المر
٢٠٣	.	.	.	.	.	.	طبيب النفوس
٢١٧	.	.	.	.	.	.	شوق الحبيب إلى الحبيب
٢٣١	.	.	.	.	.	.	القلب الرحيم

تم طبع هذا الكتاب  
على مطابع دار المعارف بمصر



## كتب أخرى للمؤلف

- في المباحث الإسلامية : مرآة الإسلام
- في الأدب والنقد : فصول في الأدب والنقد
- في الأدب الجاهل حديث الأربعماء ( ٣ أجزاء ) تجديد ذكرى أبي العلاء مع المتنبي مع أبي العلاء في سجنه ألوان - جنة الشوك من الأدب التمثيلي اليوناني
- في أدب التمثيل :
- في القصة والرواية : دعاء الكروان صوت باريس
- في التراجم والسير : الحب الضائع شجرة البؤس
- على هامش السيرة ( ٣ أجزاء ) عثمان الأيام ( جزءان )
- في الاجتماع :
- في التربية :
- في سلسلة اقرأ :
- الوعد الحق على وبنوه أديب - قيادة الفكر نظام الاثنينين مستقبل الثقافة في مصر
- الحب الضائع رحلة الربيع
- أحلام شهر زاد الوعد الحق - صوت أبي العلاء

٣٠٠ قرشاً ج. ع. م	٣٠٠ فلس في العراق والأردن ٤,٢٠٠ دراهم في المغرب
٢٤٠ ق. ل	٣٠٠ فلس في الكويت ٣,١٢٠ ريالاً سعودي
٣٠٠ ق. س	٤٥٠ مليمياً في تونس ٦ شلنات في البلاد
٣٠٠ مليم في ليبيا والسودان ٥,١٠٠	٥,٨٦٠ دولاراً الأخرى

11/1/1912





**Elmer Holmes  
Bobst Library**

**New York  
University**

